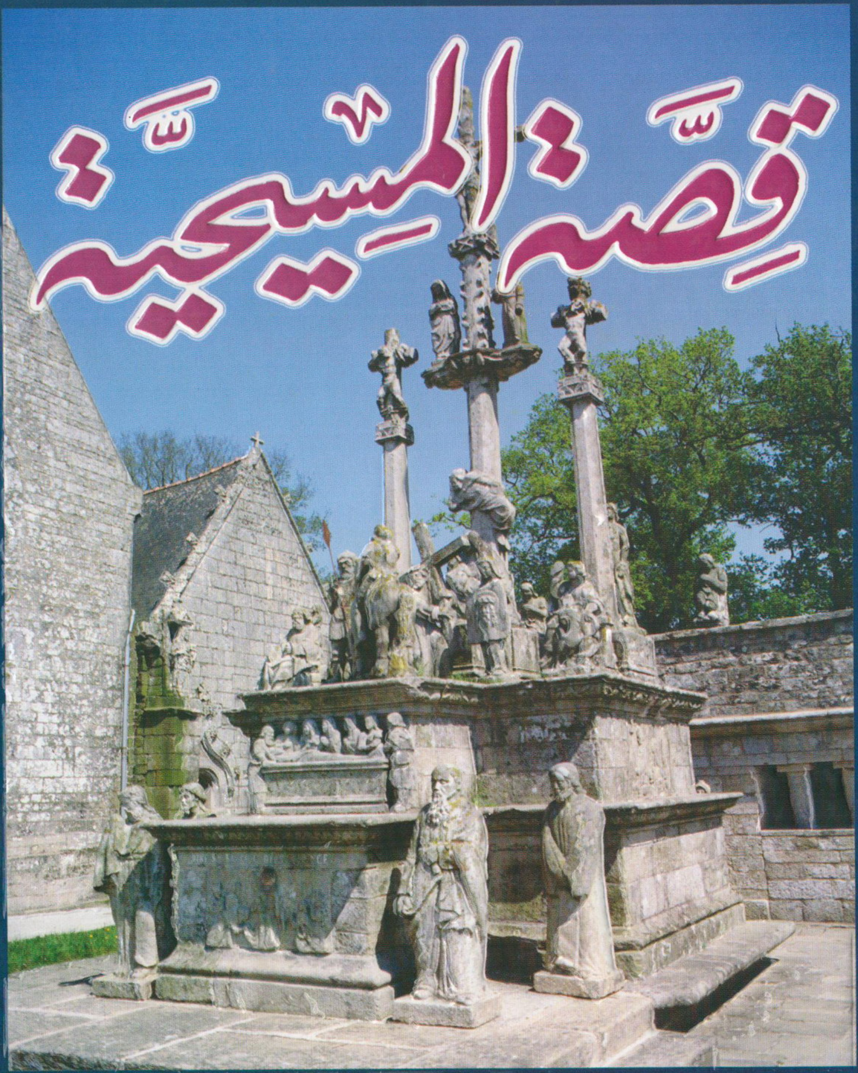
بسام مرتضى

قصة المسيحية



دار المحجة البيضاء

قِصَّةُ المَسِيحِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسام مرتضى

قصة المسيحية

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - ٠١/٥٤١٢١١

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع أنبياء الله والمرسلين، خاتمهم «محمد» وعلى آله الطيبين الطاهرين وبعد. . .

مَنْ هم الهراطقة الذين نقرأ عنهم في التاريخ الأوروبي؟

انهم الذين قالوا لا إله إلا الله، وأنكروا التثليث، وألوهية السيِّد المسيح، وتجسد الإله فيه، وأنه يحتفظ بطبيعتين واحدة إلهية، وأخرى بشرية، تجسَّدت على الصليب لتكفر عن ذنوب البشر، فاعتبرتهم المذاهب المسيحية التي خالفتهم هراطقة، فعذَّبوهم، وأحرقوهم أحياء أو نفوهم من البلاد، وظلَّ وجودهم مستمراً منذ القرن السادس عشر حتى اليوم ولو خفية وسرّاً.

اتَّهم الكاثوليك «لوثر» وجماعته بالخروج عن المسيحية والهرطقة، واتَّهم البروتستانت الكاثوليك بالإنحراف عن المسيحية الصحيحة والهرطقة أيضاً. ومع ذلك فقد تعاونا وقاما بنبذ، أو طرد واضطهاد، أو إحراق جماعات أخرى قالت بالتوحيد، وعدم الألوهية أو الإبنية للسيد المسيح، هذه الجماعات لم تشارك أيّاً من المذهبين في صراعهما مع بعضهما البعض، وحاولت أن تهرب وتفر بدينها، لأنها

كانت قلَّة ضعيفة لا تقوى على مواجهة كلا الطائفتين أو المذهبين.

لقد شغل الصراع بين البروتستانت والكاثوليك مساحة كبيرة من أوروبا، ومن التاريخ الأوروبي، وكان من نتاجه أنه ولَّد علمانية، وإلحاداً، وفساداً منقطع النظير، وصاغ أنظمة جديدة لأوروبا والعالم الذي كره المسيحية ولم يعد يرتضيها ديناً له.

إنَّ الباحثين في التاريخ الأوروبي ـ أمثال «وِل ديورانت» في «قصة الحضارة» ـ يشيرون إلى الحركة التوحيدية الدينية التي زامنت حركة «مارتن لوثر» و«كالفن» والتي يسمونها بحركة المناهضين للتثليث، والتي كانت حركة دينية خالصة لم تؤيد أو تدعم سلطة الحكَّام أو الملوك، ولم تطمع بحظوةٍ عند حاكمٍ أو ملكٍ، أو بثروةٍ أو مال.

لقد اتخذت هذه الحركة ـ كما سيلحظ القارىء في هذا الكتاب ـ أُسلوب المناظرات، والمناقشات الفكرية، وفكَّروا في إنشاء مدارس، ومجامع لنشر دعوتهم الفكرية التوحيدية على غرار ما كانت تقوم به حركة اليسوعيين تقريباً في بلاد العالم وأوروبا، وكانت بداية هذه الحركة المناهضة للتثليث في التاريخ الأوروبي الحديث على يد «إرازمس» أحد رواد الحركة الإنسانية في القرن السادس عشر، الذي أصدر إنجيلاً ترجمه عن اليونانية إلى اللاتينية بعد رجوعه إلى نسخٍ عديدة من الأناجيل باللغة اليونانية، واللاتينية، وكان خالياً من أية عبارات متعلقة بالتثليث، ورغم أن «إرازمس» وبعد إصداره للإنجيل (١٥١٦) قد خاطب البابا «ليو العاشر» وأطلعه على التناقض الموجود في الترجمة الإنجيلية المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية، فإنه لم يلق منه آذاناً صاغية.

ولكن الخطر والأثر الكبير الذي أحدثه «إرازمس» هو أنه كان سبباً خصوصاً عندما أقدم أيضاً على نشر نص يوناني للإنجيل يختلف في بعض معانيه عن النص اللاتيني المعتمد ـ في ظهور حركاتٍ، ورجال فكر، وفلاسفة تنكر فكرة التثليث، والخطيئة الأصلية، والقربان المقدس وغيرها من معتقدات المسيحية، التي كان الحجة في إنكارها عندهم عدم ورودها أو الإشارة إليها في الأناجيل من قريب أو بعيد.

إنَّ «إرازمس» لم يهاجم عقيدة التثليث، ولكنه لم يعثر عليها من خلال ترجمته وتحقيقه في الأناجيل.

والأكثر أهمية وشهرة في الحركة التي ناهضت التثليث، هو «سير فيتوس» (١٥١١ ـ ١٥٥٣) الذي أثار كتابه «خرافة التثليث»(١٥٣١) هياجاً فكرياً كبيراً، ومناقشاتٍ لاغطة بين اللاهوتيين والمفكرين، دعت إلى إعادة دراسة الكتاب المقدَّس، والنظر فيه من جديد، ثم ظهر «برنارد أوشينو» (١٥٦٥ ـ ١٤٨٧) الذي سار على نهج سلفه في محاربة التثليث، و«أريوس» كذلك، وسيجد القارىء في هذا الكتاب، الأساليب الفظيعة التي وُجِهُوا بها هؤلاء الموحدين، وغيرهم ممن رفض بعض المبادىء الأخرى للمسيحية أيضاً، وكيف واجهوها بعزمٍ وثبات. ففي عام ١٥٣٩ أُحرقت «كاترين فوجيل» وكانت زوجة جواهري، وكانت في الثمانين من عمرها لتوحيدها، وكذلك بعض القساوسة الإيطاليين أمثال: «برونو» و«فانيني» وغيرهم ممَّن سيطَّلع عليهم، ويعرفهم القارىء في هذا الكتاب.

لقد اهتز الضمير الأوروبي العقلاني المتنور، لأجل كل عمليات

التعذيب، والإضطهاد، خصوصاً الإحراق حياً لكل مَن عارض أو أنكر صُلْب المبادئ المسيحية التي رآها غير صحيحة، جملةً أو تفصيلاً.

لقد أُحرق ما لا يقل عن عشرة آلاف مسيحي في قرنٍ واحد تحت شعار مخالفة العقيدة المسيحية الحقَّة.

لقد أورد «وِل ديورانت» في «قصة الحضارة» ـ الذي حكينا عنه قصة المسيحية ـ العديد من الصفحات التي تناولت الإحراق للعديد من الأشخاص، والأُسَر، والبيوت، والنساء، والأطفال وكأنها حفلات نار كانت تُقام لأجل مجرد الإتهام بالهرطقة.

لقد هاجر آلاف الموحدين من مواطن اضطهادهم إلى أماكن أخرى حيث لا اضطهاد لهم فيها، هروباً بعقيدتهم أو على الأقل حتى ينعموا بحرية المعتقد والفكر.

في «بولندة» خاصة تمركز كثير من «السوسينيين» المناهضين للتثليث، والمعروفين باتباعهم لـ«سوسينوس» (Faustus Socinus) الذي ناهض التثليث، واجتمع حوله العديد من الأشخاص الذين عُرفت حركتهم فيما بعد بالحركة السوسينية، وقد حوربت هذه الحركة بشدة، وطردهم الكاثوليك من «بولندة» كما حاربهم البروتستانت أيضاً وطردوهم منها، فلجأوا إلى الأراضي المنخفضة، وبروسيا (١٦٤٨).

ورغم قمع هذه الحركة في شتى أنحاء أوروبا، وحل مؤسساتها، وعدم اعتبار أتباعها مسيحيين إطلاقاً، ـ لمجرد اعتقادهم بأنَّ المسيح نبي فقط، ورسولٌ بشري مميَّز، أُوتي الكتاب والحكمة ـ فإنَّ الحركة لم تمت وظلت تمارس نشاطها سراً وبحذرٍ شديد.

ولعل تفجُّر الأفكار المناهضة للتثليث التي ظهرت أو تلت ظهورهم يمكن أن يكون لهم أثر فيها، والسابق يؤثر بالتالي، وهكذا دواليك.

إنَّ الخلافات المذهبية التي سادت القرون الوسطى، وظهور عصر التنوير، والنهضة، والعقلانية، هي مراجعة للأفكار التي حاولت أن تضطهد الناس، وتُرهب عقولهم وتحرقهم.

ألأن «فولتير»ـ رائد الثورة الفرنسية ـ وغيره، يؤمن بوجود الله، ولا يؤمن بالكنيسة نسميه مهرطقاً؟

أم مَن يدرك بعقله، وفطرته، وجود عقل أسمى، وصانعٍ مدبِّرٍ للكون وراء العقل والكون، يمكن أن نسميه مهرطقاً أيضاً؟

وأخيراً، فإنني لم أتحدث في هذه المقدمة إلا عن غيضٍ من فيضٍ ذكره «وِل ديورانت» في «قصة الحضارة» في أجزائها البالغة سبعة وأربعين جزءاً، وفقاً لطبعة «دار الجيل» في بيروت، وقد جُمعت في إثنين وعشرين مجلداً كتبها «وِل» بمساعدة زوجته «أريل» في بعض الأجزاء الأخيرة، وقد ماتت «أريل» وهي في الثالثة والثمانين في ٢٥ تشرين الأول ١٩٨١، ومات هو بعدها بثلاثة وعشرين يوماً، وكان عمره ستاً وتسعين سنة.

بقي القول: إنني اعتمدت على أسفار «قصة الحضارة» في هذا الكتاب «قصة المسيحية» لما رأيت فيها من الشمول، والإستيعاب والكفاية، ونترك للقارئ الكريم الحكم، ومن الله نستمد التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسام مرتضى

البداية

تبدأ الأدلة المسيحية على وجود المسيح بالرسائل المعزوة إلى القديس «بولس». بعض هذه الرسائل لا يُعرف كاتبها معرفة أكيدة، ومنها عدة رسائل مؤرَّخة في عام ٦٤ ولكنها كُتبت في الحقيقة بعد ذلك التاريخ. لا يكاد يختلف الباحثون في أنها في جوهرها من كتابات «بولس» ولم يشك أحد قط في وجود «بولس» نفسه أو في لقائه الكثير لـ«بطرس» و«يعقوب» و«يوحنا». ويعترف «بولس» بأنَّ هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح في أثناء حياته، ويحسدهم على هذه المعرفة.

وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها، إلى العشاء الأخير، وإلى حادث الصلب[١].

يقول «ول ديورانت»:

هذا ما كان من أمر المسيح، وأما الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة. ذلك أن الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا هي البقية من عدد أكبر منها كثيراً، لقد كانت في وقتٍ ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين

(١) وِل ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ص: ٢٠٦ ـ ج١١ ـ ١٢.

الأول والثاني . . وقد كُتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة، ولم تكن نماذج طيبة في النحو أو الصقل الأدبي، لكن سهولة أسلوبها، ووضوح تشبيهاتها وصورها، وعمق إحساسات تصويرها، وروعة قصصها، كل هذا الذي أكسبها جمالاً أدبياً فذّاً، زاد من قوته الترجمة الإنكليزية البعيدة كل البعد عن الدِّقة، والتي وُضِعت للملك «جيمس». وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث، أمَّا النسخ الأصلية فيبدو أنها كُتبت بين عامي ٦٠ و١٢٠، ثم تعرَّضت بعد كتابتها على مدى قرنين من الزمن لأخطاء في النقل . . والكُتَّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد، بل كل ما ينقلونه مأخود من العهد القديم، ولسنا نجد إشارة إلى إنجيل مسيحي قبل عام ١٥٠ إلا في كتابات بيبياس papias الذي كتب يقول؛ إن «يوحنا الأكبر» ـ وهو شخصية لم يستطع الإستدلال على صاحبها ـ قال: إن «مرقس» ألَّف إنجيله من ذكريات نقلها إليه «بطرس».

ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل «مرقس» في الزمن على سائر الأناجيل، وفي تحديد تاريخه بين عامي ٦٥ و٧٠. وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً في عدة صور، فإن كثيراً من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر، وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هي الصورة الأولى لإنجيل «مرقس» نفسه.

ويبدو أن إنجيل «مرقس» كان منتشراً أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم.

ولهذا فإنه يبدو أنه من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً

جوهرياً عمَّا كان لديهم من أقوال، وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال.

وتقول الرواية المأخوذ بها (عند الباحثين) أنَّ إنجيل «متى» أقدم الأناجيل كلها، رغم ما يدَّعيه البعض من أسبقية إنجيل «مرقس» كما أشرنا سابقاً، وأنه تاريخ صحيح في جوهره كما يدَّعيه «شوتزر» أحد علماء الإنجيل[1].

ويرى «إيرنيوس» ـ أحد نقَّاد الأناجيل ـ أن إنجيل «متى» كُتب في الأصل باللغة العبرية ـ أي الآرامية، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية.

ويميل الناقدون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع «متى» وليس من أقوال «العشَّار» نفسه.

وحتى أكثر العلماء يعزونه إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٧٥ ـ ٩٠.

وأما إنجيل «لوقا» فهو يقتبس كثيراً من كتابات «مرقس» كما يقتبس من «متى» أيضاً، ونصُّه يُعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول.

ولا يُدَّعى الإنجيل الرابع «يوحنا» عند الباحثين، أنه ترجمة لـ«يسوع» بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله، خالق العالم، ومنقذ البشرية. وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح. وتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول.

---

(١) لاحظ قصة الحضارة: ج١١ ـ ١٢ ـ ص٢٠٨.

«وملاك القول: إن ثمة تناقضاً كبيراً بين الأناجيل بعضها مع بعض، وإن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشك بما يُروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وُضعت عن قصدٍ لإثبات وقوع كثيرٍ من النبوءات الواردة في العهد القديم. . . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى «شيشرون» و«سالست» و«تاستس».

إنَّ التاريخ وسيلة لنشر المبادىء الخلقية السامية، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث، وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعفٍ، وعيوب، ولما يرتكبه النسَّاخ من أخطاء أو تصحيح. فإذا سلَّمنا بهذا كله بقي الشيء الكثير. . ورغم هذا فإنَّ عمل كُتَّاب الأناجيل يعتبر ـ في نظر البعض ـ معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل، لأجل سيرة المسيح وأخلاقه، وتعاليمه الواضحة المعقولة التي تُشكِّل أروع ظاهرة في تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة لأولي الألباب. ولكن هل هذا يكفي لإثبات الصحة، والإعتماد عليها مع ما هي عليه من التشكيك، والنقد الشديد؟

أم يكفي كونها أروع ظاهرة في تاريخ الغربيين في الإعتماد والإعتبار»[(١)]؟

---

(١) قصة الحضارة: ج١١ ـ ١٢ ـ ص٢١١ ـ وِل ديورانت.

ولادة عيسى عليه السلام

لا يُعرف اليوم الذي ولد فيه عيسى عليه السلام بالتحديد، ولكن ينقل كلمنت «الإسكندري» حوالي عام ١٠٠ أن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من نيسان، وبعضهم بالعاشر من أيار، وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح في اليوم السادس من شهر كانون الثاني منذ القرن الثاني بعد الميلاد. وفي عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية، ومنها كنيسة «رومة» بذكرى مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني، وكان قبل هذا يُحتفل فيه بعيد «مثراس» أي مولد الشمس التي لا تقهر.

وتمسَّكت الكنائس الشرقية باليوم السادس من كانون الثاني، واتهمت أخواتها من الكنائس الغربية بالوثنية وعبادة الشمس، ولم يكد ينتهي القرن الرابع حتى اتُخذ اليوم الخامس والعشرون من كانون الأول عيداً للميلاد في الشرق أيضاً.

ويقول «متى» و«لوقا» إن مولد المسيح كان في «بيت لحم» وأنَّ أسرته انتقلت منها إلى «الناصرة» في «الجليل»، أمَّا «مرقس» فلا يذكر

«بيت لحم» ولا يذكر «المسيح» إلا بإسم «يسوع الناصري».

وقد سُمِّي بالإسم العادي المألوف «يسوع» «Yeshu'a» ومعناه «معين يهوه»، وحرَّفه اليونان إلى «Lesous»، والرومان إلى «esus».

ولا يذكر «بولس» و«يوحنا» شيئاً عن مولده من عذراء، وأما «متى» و«لوقا» اللذان يذكرانه فيُرجعان نسب «يسوع» إلى «داود» من طريق «يوسف»، بسلسلة أنساب متعارضة، ويلوح أنَّ الإعتقاد بمولد المسيح من عذراء قد نشأ في عصرٍ متأخرٍ عن الإعتقاد بأنه من نسل داود.

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذي لا يُغني عن شباب المسيح. فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره، وكان ذا عقل يقظٍ وطلعةٍ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في بلاد الشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج، لكنه لم يتعلَّم تعليماً منظَّماً، وشَاهِدُ ذلك؛ أنَّ جيرته كانوا يتساءلون: «كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة؟».

وكان يتردد على المجمع الديني، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدَّس، ويبدو عليه السرور حين يسمعه. وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في «أسفار الأنبياء» و«المزامير» بنوعٍ خاص، وكان لها أثر كبير في صُنعه.

ويقول «لوقا» إنَّه في «السنة الخامسة عشرة من حكم «تيبيريوس» أو بعدها بقليل جاء «يسوع» إلى نهر الأردن ليُعَمَّد على يديه، وهذا القرار الذي اتخذه رجل «يقرب من سن الثلاثين» شاهدٌ على أن المسيح قد آمن بتعاليم «يوحنا»، وأنَّ تعاليمه هو لن تفترق في جوهرها عن تلك

التعاليم؛ أما أساليبه، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا: فهو لم يُعَمِّد أحداً، ولم يعش في البيداء، بل عاش العالم، ولم ينقضِ على هذا اللقاء بين «عيسى» و«يوحنا» إلا قليل من الوقت حتى أمر «هيرودس» «أنتباس» «صاحب المدن الأربع» في الجليل بسجن «يوحنا» ويروي «مرقس و«متى» في هذا المجال قصة «سالوم» إبنة «هورديياس» التي فتنت «هيرودس» برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدِّم لها أية مكافأة تطلبها، ويقولان إنها طلبت إليه رأس «يوحنا» بتحريض من أمها، وأنَّ الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها.

وليس في الأناجيل شيء عن حب «سالوم» لـ «يوحنا»، وليس في «يوسفوس» ما يشير إلى أنها كانت لها يد في موته، وإنَّ الإنسان ليجد في الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع أخرى منها، وينصحنا بنبلٍ وشرفٍ ألَّا نحكم حتى لا يحكم علينا، ولكنه يلعن الناس والمدن التي لم تؤمن برسالته، ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمراً، ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أُمه، كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حينٍ معالم إنسانيته العميقة، أما فيما عدا هذا فقد كان أحبَّ الناس إلى القلوب؛ كان يُعَلِّم أتباعه أن يُصَلُّوا إلى الآب قائلين: «ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض».

ولم ينطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله: إنَّ «مملكتي ليست من هذا العالم» إلا بعد أن خَبا هذا الأمل؛ لقد كان يتحدث في بعض الأحيان عن ملكوت اللّه بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار

المبرؤون من الذنوب ـ «ملكوت الله داخلكم» وكان في أحيانٍ أخرى يصوِّرها كأنها مجتمع سعيد في مستقبل الأيام.

حكامه هم الرسل، ويبدو أنه لم يكن يرى أنَّ ملكوت الله هي الكمال الخلقي إلا مجازاً، وأنه يرى أنَّ هذا الكمال الخلقي إنما هو إعداد لهذا الملكوت، وثمن يؤدَّى للحصول عليه، وقد نصح «الفريسيين» اليهود بأن يُعطوا «ما لقيصر لقيصر وما للَّه للَّه». ولسنا نجد في قصة الرجل الذي «دعا عبيده قبل سفره وسلمهم أمواله» أية شكوى من الربا أو الإسترقاق، بل إنها تُسلِّم بهاتين السُّنَّتين بوصفهما من الأمور التي لا تقبل الجدل، وكانت التهمة التي أُدين من أجلها عيسى هي أنه كان يتآمر ليكون «ملك اليهود». ولقد طال الجدل حول الزمن الذي امتدت إليه رسالة المسيح، والسنة التي مات فيها، والرواية المأثورة التي تقول إنَّ موته كان عام ٦٤م، وكان كثير مما ورد في هذا القانون الأخلاقي الصارم «كفارة الدم» يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض، فلما أن بدأ هذا الأمل يضمحل، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى، وضَعُفَت الأخلاق المسيحية، وانتقل إلى يوم الأحد المسيحي ما كان يُراعى في السبت اليهودي من جدٍ ووقار.

لقد كان المسيحيون يجتمعون في ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب، ليقيموا قداسهم الأسبوعي بالإعتماد على الطقوس اليونانية الخاصة التي حلّت محل القرابين الدموية في الأديان القديمة، بوضع هدايا على مذبح الإله المعتبر كجسد للمسيح، وتناول الخمر على يد القساوسة بوصفه دمه، وأصبح الخمر، والخبز المغموس بالخمر

يقدَّمان في القدَّاس بوصفهما تكراراً لتضحية «يسوع» بنفسه على خشبة الصليب.

ويُروى عن «عيسى» أنه قدَّم كثيراً من الخمر[١] في حفلٍ للزواج، وبشكلٍ معجز، بيد أن قواه كانت غير عادية، ولعلَّ الذي يثبت هذا هو معجزاته.

والمعتقد به ـ لدى غير المؤمنين ـ أن معظم المعجزات التي كان يأتي بها «عيسى» «المسيح» كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الإيحاء، أي بتأثير روح قوية واثقة من نفسها، في روحٍ قابلة للتأثر، وليس منها إلا عدد قليل لا يصدقه العقل[٢]. ويمكن مشاهدة بعض المعجزات تلك كاللمسة المبشرة بالخير التي تشفي المريض، وتقوي الضعيف كل يوم تقريباً في «لورد» «Lourdes» وغيرها من مراكز العلاج النفساني، وقد شفى الرسل حالاتٍ من هذا النوع.

وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية.

أولاهما: إيمان المرضى بالشفاء على يد مَن يشفيهم.

وثانيهما: عجزه عن القيام بمعجزاتٍ في الناصرة، لأن أهلها كانوا ينظرون إليه على أنه «إبن النجّار» ولا يؤمنون بقواه غير العادية، ومن ثم كان قولهم إنه: «ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته».

ويقال لنا عن «مريم المجدلية»: إنَّ سبعة شياطين قد أُخرجت

---

(١) هل يعقل هذا يا تُرى من نبي رغم ما في الخمر من شديد المساوىء الأخلاقية، والسلبيات الإجتماعية؟!

(٢) كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه (الأعمى)، والأبرص بإذن الله .

منها، أي أنها كانت تشكو آلاماً، ونوباتٍ عصبية.

والظاهر أنَّ هذه الآلام والنوبات كانت تخف حدتها في حضرة «عيسى»، ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة، وأنَّ قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها؛ أمَّا إبنة «بايرويس» فقد قال «المسيح» عنها في صراحة: إنَّ البنت لم تمت بل كانت نائمة ـ ولعلها كانت مصابة بالشخوص (بالتخشب والجمود)، ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة، بل قال بلهجة الآمر القوية: «طليثا» قومي، أي: يا صبية قومي.

ولسنا نقصد بهذا أن نقول[1]: إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة؛ فقد كان يحس أنه لا يأتي بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية ولسنا نعرف أنه كان مخطئاً في اعتقاده هذا، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما في تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة فيه.. ولقد ساءه أنَّ أكبر الأسباب التي دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال عجيبة.

ويصعب علينا القول بأنَّ أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا العالم، فالأناجيل تُظهر ما بين أخلاقهم من اختلافٍ واقعي، وتكشف عن عيوبهم كشفاً صريحاً، فهم لا يخفون مطامعهم، ولما أراد أن يهدِّىء من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون في يوم الحساب على إثني عشر كرسياً يُدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر.

---

(١) الكلام لـ «وِل ديورانت» قصة الحضارة، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٢٢.

وكان يُعَلِّم الناس بالبساطة التي تتطلبها حال مستمعيه، بالقصص، والأمثال، والحِكَم، وكانت بداية تعاليمه هي إنجيل «يوحنا المعمدان» وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى «دانيال» و«أخنوخ» ولم ينطق «إنجيل يوحنا» المسيح بقوله: «إنَّ مملكتي ليست من هذا العالم»[1] إلا بعد أن خبا أمل أن توجد مملكة أرضية، وكانت هذه هي الرواية اليهودية التي ورثها المسيح عن الرسل الأولين. فهل كان يعني بها حالة روحية أو طوبى مادية؟

لقد كان يتحدث في بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها المبرؤون من الذنوب ـ «ملكوت الله داخلكم»[2]. والتي كان يقصد بها أن يكون الناس مستعدين للدخول في هذا الملكوت من خلال المبادىء الأخلاقية المثالية التي أعلن عنها كأن يكون الناس كصغار الأطفال في قلوبهم، وفضيلة العزوبة على الزواج، وأمره الناس بالتخلي عن جميع الروابط العائلية، والإنخراط في الرهبنة، فكان هذا وغيره تهيئاً واستعداداً لنظامٍ يماثل نظام الأديرة، بل حتى أثنى على الذين «خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات»[3]. وعلى الذين تركوا «بيتاً أو الوالدين أو إخوة أو امرأة وأولاداً» وما من شكٍ في أنَّ هذه التعاليم لم توضع لمجتمعٍ دائمٍ لأن تطبيعها لا ينسجم مع قواعد الحياة العامة، والإهتمام بالشؤون الإقتصادية، وشؤون الحكم والسياسة، بل وُضِعت لتسير عليها أقلية دينية مترهبنة، فكانت

---

(١) يوحنا: ٢٠.

(٢) لوقا: ٢٠.

(٣) لوقا: ٢٦ ـ ٢٩ ـ متى ـ ١٢ ـ ٣٤.

ضيقة في أغراضها عامة في بعض مجالاتها.

وقد ظلَّ المسيح لا يرى نفسه إلَّا كونه أحد اليهود، يؤمن بالأنبياء السابقين، ويجري على ناموسهم، ولا يخطب إلا في اليهود، ويرسل إلى مدن اليهود خاصة «إلى طريق أممٍ لا تمضوا. . .» «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

ولم يفكر في أن ينقض شريعة اليهود: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل».

فكان صارماً في مسائل الجنس، والطلاق، وخفَّف الشروط الموضوعة على الطعام، والطهارة، وحذف بعض أوقات الصوم، وندَّد بالجهر بالصلوات، والتظاهر بالصدقات، والإحتفالات الفخمة بالجنازات، حتى ظن الناس أنَّ الشريعة اليهودية سوف تُمحى، فقاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات، وكان الذي أغضبهم بنوعٍ خاص ما ادَّعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا، والتحدث بإسم الله، والتجديف[1] على الله (الكلام غير اللائق بحال الله) بقوله: فإن ابن الإنسان هو ربُّ السبت أيضاً»[2].

وأوجسوا في أنفسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل، وندَّد بهم تنديداً فظيعاً: «. . إنكم أبناء قتلة الأنبياء، فاملأوا أنتم مكيال

---

(١) يلتقي المسلمون مع اليهود من ناحيتين: الأولى: أن كل إنسان مسؤول عن خطيئته لا يتحملها إلا هو «ولا تزرُ وازرة وزر أخرى» أي ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، والله وحده هو الذي يغفر الخطايا. والثانية: دعوى أن المسيح ليس ابن الله، ولا اللَّه، وإن كانت بعض فرق اليهود تدَّعي أنَّ «عُزير» ابن الله.

(٢) متى: ٨.

آبائكم! أيها الحيّات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم؟ . . إنَّ العشَّارين، والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله»[١].

وحلَّتِ القطيعة بين عيسى واليهود حين أنكر كل ادَّعاء بأنه من نسل داود، وأنه مسيح سياسي يريد أن يردُّ المُلكَ إلى إسرائيل أو يعيد السيادة اليهودية إليهم، ويرفع نير الرومان عن إسرائيل.

عدا عن هذا، فإنه لم يقل في الأناجيل الثلاثة المتشابهة (متى، مرقس، لوقا): إنه هو الآب الإله الواحد أو يُسَوي نفسه به، فقد سأل أتباعه: «لماذا تدعونني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً هو الله»[٢] وقال وهو يصلي في «جستماني»:

«ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد أنت»[٣].

---

(١) متى: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) متى: ١٧.
(٣) مرقس: ٣٦.

دعوى الصلب

زار «المسيح» الهيكل عند اقتراب عيد الفصح، وقد هاله ما رأى فيه من الباعة، والصيارفة، والمنادين على الحمام وغيره من حيوانات التضحية للهيكل، فانتابته نوبة من الغضب الشديد هو وأتباعه، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة، وتوبيخ تجار الحمام، وبائعي الأضاحي، وإخراج التجار من ساحة الهيكل بالقوة، وظل عدة أيام يأتي إلى الهيكل ليعلم دون أن يتعرَّض له أحد، ولكنه كان يبيت ليلة في جبل الزيتون خارجه خوفاً من أن يُقبض عليه فيُقتل.

وكان عمَّال الدولة الرومانية، واليهود يراقبونه خوفاً من أن تنطلق ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد، فتدفعها عواطفها الثائرة على ظلم الحكم الروماني، ونزعتها للتحرر منه على القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حُكم ذاتي، وحرية دينية.

من أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الإجتماع وقرر أغلبية الحاضرين بإلقاء القبض على المسيح. وفي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري (الثالث من شهر نيسان) من العام الثلاثين في أرجح

الأقوال، أكل عيسى وتلاميذه عشاء عيد الفصح في دار صديقٍ له في «أورشليم» وكانوا ينتظرون أن يُنجِّي المعلِّم نفسه بما له من معجزات لكنه لم يفعل شيئاً، وقد قيل له إنَّ أحد الإثني عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه، وفي هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخريوطي.

وبعد أن بارك، وكسر الخبز، وشربوا الخمر ليكون دمه الذي سيراق للعهد الجديد، غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية.

ويقال: إن الجماعة الصغيرة هذه مع يسوع، اختبأت تلك الليلة في حديقة جثيماني خارج «أورشليم» وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل، وقبضت على «يسوع» وسيق أولاً إلى بيت «أونياس» أحد كبار الكهنة اليهود السابقين ثم نُقل منه إلى «بيت قيافا».

ويقول «مرقس» إنَّ «المجلس» ـ أعضاء السنهدرين ـ اجتمع في ذلك المكان، وشهد عليه شهود كثيرون، وذكروا بنوعٍ خاص تهديده بتخريب الهيكل. ولمَّا سأله «قيافا» هل هو «المسيح ابن الله» أجابه كما تقول الرواية: «أنا هو»(١).

واجتمع السنهدرين في صباح اليوم التالي، وأثبت عليه جريمة التجديف والنطق بالكفر.

وكان «بيلاطس» البنطي رجلاً قاسياً، وسأل «يسوع» ساخراً: «أأنت ملك اليهود» فأجاب يسوع حسب رواية «متى» بقوله: «نعم».

وبناءً على هذا أصدر «بيلاطس» حكمه بالإعدام. وكان الصلب من

---

(١) مرقس: ٦١ ـ متى: ٦٣.

طرق العقاب الرومانية اليهودية، وكان الجلد يسبقه عادة، ووضع الجنود الرومان تاجاً من الشوك على رأس المسيح يسخرون منه بذلك من تلقيبه بـ«ملك اليهود»، والنساء يلطمن، وينحن عليه، وقد صعد «تل جمجمة».

ولم يكن مع المسيح إلا يوحنا وحده من الرسل، وكان معه ثلاث نساء: مريم أمه، ومريم أختها، ومريم المجدلية، ونساء أُخريات ينظرن إليه من بعيد.

وردَّد «يسوع» وهو على الصليب كلماتٍ منسوبة إليه كما في المزمور الثاني والعشرين: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟».

«وذلك هو نداء اليأس البشري الذي يعزوه «مرقس» و«متى» إلى «المسيح» وهو يحتضر. فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذي أعانه في موقفه أمام «بيلاطس» قد انقلب في تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود؟ ولعلَّ «لوقا» قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد «بولس» الدينية فبدَّلها بقوله: «يا أبتاه في يديك أستودع روحي» وهي عبارة تردد صدى الآية الخامسة من المزمور الحادي والثلاثين، ترديداً يثير الريب لما فيه من الدقة»[1].

وأشفق جندي على المسيح الظمآن، فجاء بإسفنجة مغموسة في الخل، وقرَّبها من فيه، فشرب عيسى؛ وقال: «قد أكمل» وفي الساعة التاسعة «نادى بصوت عظيم... وأسلم الروح». ويضيف «لوقا» «وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر... رجعوا وهم يقرعون صدورهم»[2].

---

(١) قصة الحضارة، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٣٨.

(٢) لوقا: ٤٨.

واستطاع إثنان من اليهود ذوي النفوذ أن يحصلا على إذنٍ من «بيلاطس» بإنزال جثة المسيح عن الصليب، فأنزلاها وواريها التراب.

وبعد يومين من هذا الحادث زارت «مريم المجدلية» قبر المسيح مع مريم أم يعقوب، وسالومة، فوجدته فارغاً؛ فامتلأت قلوبهن خوفاً وسروراً، وجرينَ لينقلن ما رأيْنَهُ لتلاميذه.

وتروي الرواية أن «المسيح» ظهر في ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه في الطريق الموصل إلى «عمواس» وتحدث إليهم، وأكل معهم، ولم يعرفاه ثم «أخذ خبزاً وبارك وكسر. فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفا عنهما»[1] ورجع التلاميذ إلى «الجليل» فلما «رأوه سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا»[2]. «وبينا كانوا يصطادون السمك، رأوا المسيح ينضم إليهم؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك[3].

وفي سِفْر أعمال الرسل أنَّ: المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوماً من ظهوره على مريم المجدلية.

«لقد كانت فكرة انتقال القديس بجسمه، وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة عند اليهود، فقد رووها عن موسى، وأخنوخ، وإليشع، وإشعيا»[4].

---

(١) لوقا: ١٣.
(٢) متى: ١٦ ـ ١٧.
(٣) يوحنا: ٤.
(٤) قصة الحضارة، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ٢٤٠٢.

حديث الرُّسُل

استمدت المسيحية دوافعها، وقوتها من شخصية المسيح نفسه، وما أتى به من تعاليم، وإرشاداتٍ، وعقائد، ويبدو أنَّ الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليلٍ ليقيم ملكوت السماوات على الأرض. وكان الإعتقاد بنزول مسيح ليطهر الأرض ويقيم ملكوت (مملكة) الله ويبعث الناس بأجسامهم، وبعودته إلى الأرض، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحي في أوائل عهده، ولا يزال كذلك، على أن هذه العقائد لم تمنع الرسل من الإستمرار في التمسك بالدين اليهودي على ما جاء في أعمال الرسل: «وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة»[1].

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام، وشفاء الأمراض والعلاج بالمسح بالزيت. ولمّا كثر عدد النصارى في بضع سنين قلائل، خاف رؤساء اليهود من وجودهم، وتأثيرهم، فقُبض على «بطرس» الذي لم يكن من اليهود،

(١) الأعمال: ٤٦.

وغيره لمحاكمتهم أمام السنهدرين، فجُلدوا ثم أُطلق سراحهم، وفرَّ اليهود المهتدون الذين يتزعمهم «إصطفانوس» أو «استيفن» أحد الشمامسة المشرفين على جماعة المؤمنين إلى «السامرة» و«أنطاكية» وأفشأوا فيها جماعات مسيحية قوية، أما الرسل الذين بقوا في «أورشليم» مع المسيحيين اليهود فقد سلموا من الإضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس.

وبينا كان «بطرس» يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية، صار يعقوب «العادل» «أخو الرب» رئيس الجماعة المقيمة في «أورشليم». وكان يبشر بالناموس بصرامة، ولم يكن يأكل اللحم، أو يشرب الخمر، ولم يلبس إلا ثوباً واحداً تقشفاً، وزهداً، وظلَّ المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لا يمسُّهم أذى. وفي عام ٦٢ قُتل «يعقوب العادل» نفسه، وقُبض على «بطرس» لكنه فرَّ.

وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على «رومة» وأيقن المسيحيون في «أورشليم» أن نهاية العالم قد اقتربت وأنَّ المسيح سيظهر، وخرجوا من المدينة، وأقاموا في بلاد الوثنية، القائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن، وافترقت اليهودية عن المسيحية من تلك الساعة، واتهم اليهود المسيحيين بالخيانة لعدم النُّصرة، ورحَّب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد «تيطس» الحاكم الروماني، تحقيقاً لنبؤة المسيح، واشتعلت نار الحقد في قلوب أتباع كلا الدينين.

وظلت المسيحية اليهودية قائمة على مدى خمسة قرون بين المسيحيين المعروفين بـ«السريان» الذين كانوا يجمعون بين التقشف المسيحي، والناموس اليهودي الكامل، وكانوا طائفة قليلة حكمت عليهم الكنيسة

المسيحية بالكفر أواخر القرن الثاني الميلادي وطردتهم من حظيرتها.

وكان الرُّسُل والتلاميذ ـ إثر هذه المحنة ـ قد انتشروا فيما بين «دمشق» و«روما» وأخذ «بطرس» يعظ في مدن سوريا، وجاء في سِفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أنَّ عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء. وكان وهو طليق، و«بولس» وهو سجين، يبذلان ما بوسعهما لهداية أهل «رومة» بعد زيارتهما لها عدة مرات، ولعلَّ قتلهما كان في عام واحدٍ هو عام ٦٤[١].

وفي المكان الذي قُتل فيه «بطرس» ورأسه مدلًّى على الصليب شُيِّدت كنيسة القديس «بطرس» القائمة اليوم في ميدان الفاتيكان، والتي قيل أنها تضم عظامه.

وظلَّت المجامع اليهودية أهم الأماكن للدعوة المسيحية، ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية، واحتفالاتها، وملابسها، وأخذت المسيحية عن اليهود أساليب تنصيب جماعة من الكبراء لتولي شؤون الكنائس، وقبلت المسيحية فيها أعياداً يهودية كعيد الفصح، وعيد العنصرة، وإن كانت قد غيَّرت أشكالها، وتواريخها.

«وكانت المسيحية حسب تعاليم «المسيح» و«بطرس» يهودية، ثم أصبحت في تعاليم «بولس» نصف يونانية، وأضحت في المذهب الكاثوليكي نصف رومانية، ثم عاد إليها العنصر اليهودي والقوة اليهودية حتى دخلها المذهب البروتستانتي»[٢].

---

(١) Eusebius, 25 .

(٢) قصة الحضارة، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٤٨.

بولس الرسول

واضع اللاهوت المسيحي ولد في «طرسوس» حوالي ١٠ من أبوين يهوديين، من الطائفة اليهودية الفريسية. تعلم في المجمع الديني القائم في المدينة ثم أرسله والده إلى «أورشليم» حيث تابع تعلمه عند «عمالائيل» ـ الذي خلف «هلل» في رياسة السنهدرين» ـ على طريقة الناموس الدقيقة، غير أن الفريسيين من اليهود الذين كانوا أكثر تزمتاً منه هالهم نظرته إلى النساء الوثنيات نظرة الإعجاب والتقدير، وهو الذي يُطلق عليه إسم «جمال الناموس»لما بلغه من علم بالناموس؛ وكان يعتقد أنه ملهم، موحى إليه، قادر على فعل المعجزات، وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعاً عن اليهودية، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعاً عن المسيح.

وتزعم الإضطهاد الأول للمسيحيين في «أورشليم» ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له في دمشق أتباع كثيرون تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى تلك الجماعات، ولما اقتربت جماعته من دمشق «فجأة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض، وسمع صوتاً يقول له: شاول، شاول، لماذاتضطهدني؟ فقال: مَن أنت يا سيّد؟

فقال: الرب (الصوت) أنا يسوع الذي أنت تضطهده. . . وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا يبصرون أحداً. فنهض شاول من الأرض، وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً، فاقتادوه بيده، وأدخلوه إلى «دمشق» وبقي ثلاثة أيام لا يبصر. . . فلمَّا أحسَّ في آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدي يهودي مهتد، رحيمتين، تلمسان وجهه وتسكنان ألمه «فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال، وقام، واعتمد. وتناول طعاماً فتقوَّى» وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع «دمشق» وقال للمجتمعين فيها إنَّ عيسى ابن الله. «وليس في وسع أحدٍ أن يعرف العوامل التي أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسي في طبيعة الرجل. ولعلَّ ما قاساه من التعب في سفره الشاق الطويل في شمس العراء اللاقحة، أو لعل ومضة برق في السماء ناشئة من شدة الحرارة، لعلَّ شيئاً من هذا أو ذاك كله قد أثَّر في جسمٍ ضعيفٍ ربما كان مصاباً بالصرع، وفي عقلٍ يعذبه الشك والإجرام، فدفع بالعملية التي كانت تجري في عقله الباطن إلى غايتها، وأصبح ذلك المنكر شديد الإنفعال أقدر الداعين إلى مسيح «أصطفانوس» وكان الجو اليوناني الذي يحيط به في «طرسوس» يتحدث عن منقذٍ ينتشل البشرية كما كانت «عليوم» من بني جنسه من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر. ولما لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفنانة، الذي لا يتردد الناس في استقبال الموت من أجله، هو ذلك المسيح المنتظر؟»[١].

---

(١) كما جاء في أعمال الرسل.
قصة الحضارة، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ويقول «بولس» إنه ظلَّ ثلاثة أيام يدعو في قرى بلاد العرب إلى المسيح، ولمَّا عاد إلى «أورشليم» ـ بعد هروبه من «دمشق» لإصدار حاكم «دمشق» أمراً بالقبض عليه بإيعاز من اليهود الذين ساءهم فعل «بولس» ـ عفا عنه «بطرس» واتخذه صديقاً له، وعاش معه فترة من الزمن، وكان معظم الرسل يرتابون فيه، ولكن «برنابا» وهو مهتد حديثاً، رحَّب به، وقدَّم له كثيراً من المعونة، وظلَّ في مسقط رأسه ثماني سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً، ثم أقبل إليه «برنابا» وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين في «أنطاكية» وأخذ الرجلان يعملان معاً وكثر الأتباع فيها إلى الدين الجديد، وكان أكثر المؤمنين من النساء اللاتي آمَنَّ ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدانية.

وأبحر الرجلان في مهمتهما التبشيرية الأولى (٤٥ ـ ٤٧) إلى قبرص ولقيا نجاحاً قوياً بين اليهود الكثيرين المقيمين في تلك الجزيرة، ومنها إلى «برجا» في «بمفيليه» حتى وصلا إلى أنطاكية في «بسيديا» حيث غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم فيها، وأخرجوهما منها، ورُجم «بولس» بالحجارة في «لسترا» وعادا إلى أنطاكية السورية.

وفي عام ٥٠ م قام «بولس» برحلته التبشيرية الثانية، وكان قد اختلف مع «برنابا» الذي اختفى وقتئذٍ في موطنه في جزيرة قبرص، ولم يعد له ذكر في التاريخ.

وفي «لسترا» ضمَّ إليه «بولس» تلميذاً أحبه كثيراً يدعى «تيموثاوس» وسافرا معاً حتى وصلا إلى اسكندرية ترواس، وفيها تعرَّف «بولس» على «لوقا» الذي يُعتقد أو يُظن أنه صاحب الإنجيل الثالث، وسِفْر

أعمال الرسل، ثم أبحر «بولس» وتيموثاوس» ومساعد آخر له يدعى «سيلاس» من «ترواس» إلى «مقدونية».

فلما وصلا إلى «فلبي» أُلقي القبض عليهما بتهمة تكدير السلام، وجُلدا، وزُجَّا السجن ثم أُطلق سراحهما بعد أن عُرف أنهما مواطنان رومانيان، ومن «فلبي» إلى «تسالونيكي» حيث أسس هو ومَن آمن معهم ـ وكانوا قليلين ـ كنيسة لهم، لكن أهل «تسالونيكي» جاءوا يتهمون «بولس» بأنه عدو اليهودية، فخرج منها إلى «أثينا» (٥١) وحيداً، لا يلوي على شيء.

وفي «أثينا» لم يلق قبولاً لدعوته، فغادر منها إلى «كورنثه» يائساً، يخطب كل سبت في كنيسها، كنيس اليهود، ثم انتقل إلى «أورشليم» (٥٣) وقضى في «إفسوس» عامين، وكتب إلى أهل «غلاطية» رسالة تفيض بالغضب انفصل بها نهائياً عن المسيحيين المتهودين أو «جماعة المختتنين» الذين ذهبوا إلى «غلاطية» وطلبوا جميع المهتدين أن يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة لأنها توجب الختان وتحرّم التخلي عنه، وتحرِّم الخمر، وأكل المخنوقة، وما ذُبح على النصب، وتوحِّد الله، في الوقت الذي تجاوز فيه «بولس» عن هذا الأمر (الختان) وأعلن أن الناس ينجون بإيمانهم بالمسيح المنقذ إبن الله.

وفي «أورشليم» (٥٧) حذَّرهُ زعماء الكنيسة الكبرى من اليهود المؤمنين والغيورين على الناموس، بعد أن علموا أنه لا يأمر باختتان الأولاد وفق شريعة موسى، ولكن بعض اليهود لمَّا رأوا «بولس» في الهيكل، أخذوه وجرُّوه خارج الهيكل، وكادوا أن يقتلوه لولا أن قبضت عليه كتيبة رومانية، وأنقذته من القتل.

وبقي «بولس» تحت الحراسة ـ باعتباره مفسداً، ومهيِّجاً للفتنة ـ مدة عامين كاملين (٥٨ ـ ٦٠).

وعامله ولاة الرومان برفق، وانتظروا حتى يأتي الشاكون بإيمانه بكل ما هو مكتوب في الناموس، وحتى يجد «نيرون» ملك الرومان متسعاً من الوقت للإستماع إلى قضيته بعد أن كان «بولس» قد رفعها إليه وقُبلت كونه مواطناً رومانياً. ودعا «بولس» زعماء اليهود في «رومة» أن يوافوه في المنزل الذي يقيم فيه بعد أن سمح له الرومان بالتنقل، واختيار المنزل الذي يقيم فيه، وتوكيل جندي بحراسته، واستمع إليه زعماء اليهود، لكنهم لما رأوا أنه لا يعتقد بلزوم مراعاة الناموس اليهودي كضرورة للنجاة تولوا عنه، وغضبت عليه الجالية المسيحية التي أتت إليها المسيحية من «أورشليم» وكانوا يختتنون.

وكان يجد بعض السلوى فيما بعث به من رسائل طويلة إلى أتباعه البعيدين عنه، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل التي وجهها إلى شتى القرى والمدن أيضاً، وقد احتفظت بهذه الرسائل الجماعات التي وُجهت إليها لتتلوها على الناس جهرة.

«ولقد أنشأ «بولس» لاهوتاً لا تجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح، وكانت العوامل التي أوحت إليه بالأسس التي أقام عليها ذلك اللاهوت هي انقباض نفسه، وندمه، والصورة التي استحال إليها المسيح في خياله، ولعله قد تأثر بنبذ الأفلاطونية، والرواقية للمادة والجسم، واعتبارهما شراً وخبثاً؛ ولعله تذكر السُّنَّة اليهودية، والوثنية سُنَّة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس.

أما هذه الأسس فأهمها أنَّ إبن كل أُنثى يرث خطيئة آدم، وأنْ لا شيء يُنجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته. وتلك فكرة كانت أكثر قبولاً لدى الوثنيين منها لدى اليهود. ولقد كانت مصر، وآسية الصغرى، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة ـ أوزريس، أتيس، ديوتيش ـ التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان. . وكان لفظ كريوس (الرب) الذي سمّى به بولس المسيح هو اللفظ الذي تطلقه الطقوس اليونانية ـ السورية على «ديونيش» الميت المفتدى، ولم يكن في وسع غير اليهود من أهل أنطاكية وسواها من المدن اليونانية، الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بآلهتهم المنقذين. . وأضاف «بولس» إلى هذا اللاهوت الشعبي بعض آراء صوفية غامضة. . من ذلك قوله: إنَّ المسيح هو «حكمة الله» و«ابن الله الأول»، «بكر كل خليقة، فإنه فيه خُلق الكل. . الكل به وله قد خُلق؛ الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل».

وليس هو المسيح المنتظر (المسيا) اليهودي الذي سينجي إسرائيل من الأسر، بل هو الكلمة الذي سينجي الناس كلهم بموته. . لقد كان في وسعه (بولس) أن يخلع على حياة المسيح، وعلى حياة الإنسان نفسه أدواراً عليا في مسرحية فخمة تشمل النفوس كلها والأبدية بأجمعها، وكان في وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة المربكة، أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح إلهاً حقاً فلما رضي أن يُقتل؟

فقال: إن المسيح قد قُتل ليفتدي بموته العالم الذي استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم.

فكان لا بد أن يموت ليحطم أغلال الموت، ويفتح أبواب السماء لكل مَن نالوا رضوان الله»(١).

وعن موت «بولس» يقول «ترتليان: إن بولس استشهد في رومة في عهد نيرون». وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا في وقت واحد وإن كان كلاهما استشهدا منفرداً.

لقد شاد «بولس» صرح المسيحية الديني «كما أنه هو وبطرس وضعا نظام الكنيسة العجيب.. ولأن كنيسة «رومة» كانت من صنع «بطرس» وبقيت وفيَّة لذكراه، ظلَّ بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان.. ومع هذا كله بقي (بولس) الرجل الذي فصل المسيحية عن اليهودية من حيث الجوهر والأساس، يهودياً في قوة خُلُقه، وصرامة مبادئه، ولـمَّا أراد رجال دين العصور الوسطى أن يجعلوا الوثنية كثلكة برَّاقة لم يجدوا ما يتفق مع هذه النزعة، فلم يقيموا لـ«بولس» إلا قليلاً من الكنائس، وقلَّما كانوا يقيمون له تمثالاً أو ينطقون بإسمه؛ ومرَّت خمسة عشر قرناً قبل أن يجعل «لوثر» «بولس» رسول الإصلاح الديني، ويجد فيه «كلفن» النصوص الثابتة التي أخذ عنها عقيدته الجبرية. وبهذا كانت البروتستانتية نصراً لـ«بولس» على «بطرس» وكان الإعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لـ«بولس» على المسيح»(٢).

وبهذا اللون، وبهذا المذاق، نشر «بولس» دعوة المسيح.

---

(١) نفس المصدر السابق ـ مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٦٣ ـ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ـ وِل ديورانت.
(٢) نفس المصدر السابق ـ مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص: ٢٧١ ـ ٢٧٢ ـ وِل ديورانت.

يوحنا

كاتب الإنجيل الرابع (٩٠م) ومن غير المعقول أن يكون هو نفسه كاتب «سِفْر الرؤيا» لأن «سِفْرَ الرؤيا» سِفْرٌ يهودي، والإنجيل «فلسفة» يونانية. يقول هذا الإنجيل في مستهله:

«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. . كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان؛ فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس. . والكلمة صار جسداً، وحلَّ بيننا».

لقد عاش «يوحنا» في بيئة «هلنستيه» دينية، فلسفية على مدى جيلين، فأصبغ العقيدة المسيحية بالصبغة اليونانية، وفصل المسيحية عن اليهودية، وجعل المسيح إبن الله الخالد معه، والخالق الأول للكون. فالمسيحية في إنجيله لم تقضِ على الوثنية اليونانية بل تبنَّتها، ذلك أن الفكر اليوناني عاد إلى الحياة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية صاحبة السلطان على الآداب، والطقوس المسيحية.

«وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية

الرهيبة؛ وساعدتا مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة متناقضة الأطراف.

فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس. . . وعبادة أم الطفل، والإتصال الصوفي بالله، ذلك الإتصال الذي أوجد الأفلاطونية الحديثة، واللأدرية، وطمس معالم العقيدة المسيحية، ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها، والصورة التي نسجت على منوالها، ومن «فريجيا» جاءت عبادة الأم العظمى. . . ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام، وعصور الأرض، واللهب الأخير الذي سيحرقها، وثنائية الشيطان والله، والظلمة والنور؛ فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً «يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه» ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المتراسية، والقربان المقدس في القداس، حدًّا جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذي ابتدعه ليضل به ضعاف العقول. وقصارى القول: إن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم[1].

لقد صاغ يوحنا في إنجيله فلسفاتٍ ليرفع من شأن المسيح عالياً، لكنه أخفى سنا ضوئه الراقي في مجد حياته، سيرة، وأفعالاً.

---

(١) لاحظ مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٢٧٥ ـ ٣٧٦ من المصدر السابق ـ وِل ديورانت.

المسيحيون الأوائل

كان المسيحيون الأوائل يجتمعون في معابد خاصة صغيرة، وقد نظموا أنفسهم على نحو المجامع اليهودية، وكانوا يرحبون بالعبيد لكنهم لم يبذلوا أية جهودٍ لتحريرهم، بل كانوا يكتفون بالقول لهم إنهم سيعيشون في ملكوتِ الله الذي يكون فيه جميع الناس أحراراً.

وكان يُسمح للنساء بالدخول إلى المجامع الدينية، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يأتين للصلاة والعبادة محجبات لأن شعرهن يعد من أكبر المغريات، خشية أن يفتتن به الناس، والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة، بل إنْ القديس «جيروم» كان يرى أن يُقَصَّ هذا الشعر كله.

كذلك كان يُطلب إلى النساء المسيحيات ألَّا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلي، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوعٍ خاص، وأنَّ بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس غير رأس لابسه صعب عليها أن تعرف أي رأس تباركه.

وحُرِّم على المسيحيين الإجهاض، والذهاب إلى الملاهي، وكانت الكنيسة توصي بالعزوبة، وبقاء البنات إبكاراً، ولم يكن يُسمح بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية، أمَّا الطلاق فلم يكن يُسمح

به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنياً وأراد أن يلغي زواجه من معتنق المسيحية، وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرامل من النساء والرجال؛ وقد حُرِّم اللواط وذُمَّ ذمّاً شديداً، وكان كثير مما ورد في هذا القانون الأخلاقي الكنسي يستند إلى عودة المسيح إلى الأرض، فلمَّا أن بدأ هذا الأمل يضمحل، أخذت مطالب الجسد تقوى وتشتد، وأخذت الأخلاق المسيحية تضعف.

وانتقل يوم السبت اليهودي إلى يوم الأحد المسيحي بعد أنْ حلَّ الثاني محله في القرن الثاني بعد الميلاد، فقد أصبح يوم الأحد عندهم يوماً مقدَّساً معروفاً بيوم الرب، ليقيموا قدَّاسهم الإسبوعي فيه.

«وأخذ هذا القدَّاس ينمو نمواً بطيئاً بالإعتماد على صلاة الهيكل اليهودية، وعلى الطقوس الدينية الخاصة بالتطهير، والتضحية الرمزية البديلة لحَمَلِ الله، للتكفير عن الخطايا، وهي التضحية التي حلَّت في المسيحية محل القرابين الدموية البشرية في الأديان القديمة، واستحال الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه، وأصبحا يقدمان لله بوصفهما تكراراً لتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب.

وكان منح البركة للخبز والخمر أحد الأسرار المسيحية السبعة المقدَّسة، وهي الطقوس التي يعتقد المسيحيون أنهم ينالون البركة الإلهية من خلالها.

ولمَّا استُبدل تعميد الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحي بعد مرحلة الطفولة؛ فاستحال الإعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصّاً أمام القس.

وكانت طريقة الدفن المسيحية تقوم على أساس وضع كل جثة وحدها في قبرٍ خاص ثم أخذ المسيحيون حوالي عام ١٠٠ يدفنون موتاهم في سراديب وفقاً للعادات السورية والتسكانية القديمة.

وكان الزواج من النظم المدنية ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها، وجعلته عهداً مقدَّساً لا يمكن نقضه، واتُّخذَت عادة وضع الأيادي كصورة من صور الرسامة الكهنوتية، وذلك قبل حلول عام ٢٠٠ ميلادية، وبعد أن تشكل هذا الدين الجديد انتشر بما أُوتي له من قدرة في كثيرٍ من أرجاء العالم، وعلا شأنه في شمال أفريقيا، وأضحت «قرطاجنة» و«هبّو» مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحي، وفيهما برز آباء الكنيسة اللاتينية الكبار أمثال: ترتليان، وكبريان، وأوغسطين.

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحَّدت الجماعات المسيحية المنتشرة في أرجاء العالم، وهي: أنَّ المسيح إبن الله، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض، وأنَّ كل مَن يؤمن به سينال النعيم الأبدي في الدار الآخرة، ولكنَّ المسيحيين اختلفوا في موعد ظهور المسيح ثانية؛ فلمَّا أن مات «نيرون»، وخرَّب «تيطس» الهيكل، ودمَّر «هدريان» «أورشليم» رحَّب كثير من المسيحيين بهذه الحوادث، وعدُّوها بشائر بعودة وظهور المسيح ثانية إلى الأرض، ولمَّا لم تصدق هذه العلامات، قيل في رسالة معزوة إلى «برنابا» إنه سيعود خلال ألف عام، إلا أنه لم يلقَ تشجيعاً من الكنيسة، وأخذت تقاومه، وتعتبره زيغاً وضلالاً.

وقيل: إنَّ ذلك حين ينقرض جيل اليهود عن آخره، وقيل: حين لا

يبقى أحد من غير اليهود إلا ووصل إليه الإنجيل، وكل هذه الأقاويل وغيرها لم تُفد شيئاً، وأعادت بكثير من معتنقي المسيحية إلى الوراء، ولم تعد تُثبِّت لهم قواعد الولاء لها.

وإذا غضضنا النظر عن كل ذلك، فإنَّ أتباع المسيح قد انقسموا في الثلاثة قرون الأولى من ظهوره إلى فِرَقٍ كثيرة مختلفة، منها:

١ ـ **الأدرية**: وهي تدعو إلى التصوف بأفكارٍ مخلوطة بين النصرانية والمجوسية، وأفكار أخرى معقدة يستطيع من خلالها المرء أن يصل إلى العلم اللدني بالأشياء كلها.

٢ ـ **المرسيونية**: نسبة إلى «مرسيون» من أهل «سينوب» وهو شاب ثري عزم على تخليص المسيحية من اليهودية، وأصدر إنجيلاً مؤلَّفاً من إنجيل «لوقا» و«رسائل بولس».

٣ ـ **المنتانسية**: أتباع «منتانس» الذي دعا إلى الزهد والتقشف وبساطة المسيحية الأولى، وصرامتها، استعداداً لمجيء «المسيا». وأمر «جستنيان» الحاكم الروماني في القرن السادس الميلادي ـ بعد أن أعلنت الكنيسة أن تعاليم «منتانس» كفر وضلال ـ بإبادة هذه الفرقة عن آخرها.

٤ ـ **الزهَّاد**: وهي الفرقة التي قالت بأن الزواج من الخطايا، وعمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل.

٥ ـ **المتخيّلة**: وهي الفرقة القائلة بأن المسيح لم يكن لحماً ودماً بل شبحاً أو خيالاً.

٦ ـ **الثيودوتية**: التي لم تكن ترى المسيح أكثر من مجرد إنسان.

٧ ـ **المتبنيَّة**: التي تقول إنَّ المسيح إبن الله بالتبني لا بالطبيعة.

٨ ـ **السموساتية**: أتباع بولس السموساتي، وهي طائفة تعتقد أن المسيح رجل عادي، ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقي.

٩ ـ **الظاهرية** (modafists): فرقة تقول بأن الآب والإبن والروح القدس: هي صورة مختلفة يظهر فيها الله للإنسان، وليست أقانيم منفصلة.

١٠ ـ **السابلية**: أتباع سابليوس، ويقولون نفس مقالة الظاهرية.

١١ ـ **اليعاقبة**: ويعتقدون بأن للمسيح طبيعة واحدة.

وفي القرن الثالث ظهرت «المانوية» نسبة إلى رجلٍ صوفي فارسي يدعى «ماني الطشقوني» الذي أعلن أنه المسيح المنتظر، وأنه الإله الحق الذي أُرسل إلى الأرض لإصلاحها، وقسَّم العالم إلى مملكتين متصارعتين هما: مملكة الظلمة، ومملكة النور، واعتبر أنَّ الشيطان هو الذي خلق الإنسان، وملائكة إله النور هي التي أدخلت إلى البشرية خلسة عناصر النور، وهي: العقل، والذكاء، والتفكير، وأنَّ المرأة هي خير ما صنع الشيطان للإغواء، والإيقاع في المعاصي.

فإذا عاش المرء عيشة الزهد، وتغذى بالأغذية النباتية، فإن ما فيه من عناصر النور سوف يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهدي إلى سبيل النجاة.

وبعد ثلاثين عاماً من نجاح دعوته، صُلب «ماني» بناءً على طلب كهنة المجوس، وعُلِّق على أحد أبواب مدينة «السوس».

وتفرَّق المسيحيون شِيَعاً وفرقاً كثيرة حتى أحصى «إيفانيوس» عام ٣٨٤

ثمانين فرقة، وأحسَّت الكنيسة من خلال ذلك أنَّ سلطانها ودورها سينتهي.

وقد فاضت المسيحية في القرن الثاني بالأناجيل، وتحيَّر المسيحيون كثيراً في قبولهم لهذه الكتابات وعدم قبولهم لها، «فقد قبلت الكنائس الغربية مثلاً «سِفْر الرؤيا» أمَّا الكنيسة الشرقية، فقد رفضته بوجه عام. وهذه الكنائس الشرقية كانت تعترف بالإنجيل كما يقول به العبرانيون، وبرسائل يعقوب، أما الكنائس الغربية فقد كانت ترفض الإعتراف بذلك، ويذكر «فلمنت» الإسكندري أنَّ ضمن الكتب المقدَّسة رسالة كُتبت في أواخر القرن الأول الميلادية إسمها تعاليم الرسل الإثني عشر»[1].

وانشقت الأديرة، والكنائس حتى ظهرت في الإسكندرية أخطر حركة «إلحادية» في تاريخ الكنيسة هي الحركة «الأريوسية» نسبة إلى «أريوس الإسكندري» الذي كان قِسَّاً مصرياً لا يقول بألوهية المسيح، ففي حوالي عام ٣١٨ طرح أفكاراً «غريبة» تقدَّم بها إلى أُسقفهِ «ألكسندر» عن طبيعة المسيح، إذ يقول: إن المسيح والله ليسا شيئاً واحداً، ولا يمكن أن يكون الإبن من الآب لأنه إذا كان منه فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت في زمنٍ محدَّد فيكون الآب متقدماً عليه؛ وإذا كان المسيح قد خُلق فقد خُلق من غير شيء، فمادة الآب إذن غير مادة الإبن، إذ لو كان من مادته لما احتاج إلى أن يُخلق، وقد وُلد الروح القدس من الكلمة، والكلمة أعظم من الروح القدس (المسيح) نفسه. وارتاع الأسقف «ألكسندر» من هذه الأفكار، ومن سرعة انتشارها أيضاً

(١) قصة الحضار، مجلد: ١١ ـ ١٢ ـ ص٣١٥ ـ وِل ديورانت.

بين رجال الدين أنفسهم، خصوصاً وأن مسألة الثالوث[1] واتحاد الآب والإبن في المادة كانت مسألة حيوية من الوجهتين الدينية، والسياسية بالنسبة للكنيسة التي ترى بأن المسيح إذا لم يكن إلهاً فإنَّ كيان العقيدة المسيحية كله سيبدأ بالتصدع.

واعتزم الإمبراطور «قسطنطين» بالقرب من عاصمة «نقوميديا» للقضاء على «أريوس» وجماعته، وإبطال مزاعمه، وحلَّ النزاعات القائمة بين الأساقفة. وأكَّد «أريوس» من جديد على رأيه القائل بأن المسيح مخلوق ليس بمستوى الآب «الله» وكانت إجاباته على الأسئلة التي وُجِّهت إليه ـ عند اجتماع المجلس في بهو أحد قصور الإمبراطورية ـ منطقية، قاطعة، وكانت النتيجة أنْ حَكَم المجلس على «أريوس» وجماعته الذين لم يتزحزحوا أو يتوبوا عن عقيدتهم باللعنة، والحرمان، والنفي من البلاد، وصدر مرسوم إبراطوري يأمر بإحراق كتب «أريوس» جميعها ويعتبر إخفاءها جريمة عقوبتها الإعدام، وبقيت الشؤون الكنسية في القرن الرابع الميلادي، عهد قسطنطين مضطربة رغم مجمع نيقيه الذي انعقد عام ٣٢٥ لأنه لم يضع حدَّاً للنقاش الحاد الذي احتدم بين «أثناسيوس» زعيم عقيدة الثالوث الأقدس، و«أريوس» المناهض لها، بل ظلَّ كثير من الأساقفة من الكثرة الغالبة في الشرق يناصرون «أريوس» سراً أو جهراً، ويقولون بعدم اتحاد المسيح مع الآب (الله) في مادته ولا في خلوده.

---

(١) المثير للدهشة والاستغراب هو أنه رغم ما في تصوير الأقانيم الثلاثة في صورة إله واحد من صعوبة في الفهم لدى العقل، يجب على العقل أن يخضع لها ويؤمن بها، وهل يمكن ذلك؟

ولمَّا أن مات «قسطنطين» عنى «قِنْطِنْطيُوس» إبنه بشؤون الدين أكثر من أبيه، وكان من نتيجة بحثه في أبوَّة المسيح أن يخرج باعتناق مذهب «أريوس» وطرد «أثناسيوس» من كرسي الإسكندرية بعد أن كان عاد إليه بعد موت «قسطنطين».

«وأتى على المسيحية نصف قرنٍ لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد، وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح»(١).

وبينا كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المعترضين عليها عقيدة وسلوكاً، إذ وجدت نفسها يغمرها سيل من المارقين «الدوناتيين» في أفريقيا الذين أنكروا ما للعشاء الرباني الذي يقدمه القساوسة من أثر في الخطيئة، وأخذت هذه العقيدة تنتشر في أفريقيا انتشاراً سريعاً، بعد ما أشعل فتيلها «دوناتوس» أسقف «قرطاجنة» (٣١٥).

وحارب «أوغسطين» الدوناتيين بكل الوسائل المتاحة، ولكنهم عادوا إلى الظهور عندما جاء «الوندال» إلى أفريقيا وطردوا القساوسة منها، وبقي الحقد الطائفي يأكل الصدور حتى جاء المسلمون العرب إلى أفريقيا عام (٦٧٠) فلم يجدوا في تلك البلاد قوة متحدة تقف في وجههم.

وكان «بلاجيوس» في تلك الأثناء يشن هجوماً على عقيدة «الخطيئة الأولى» لآدم مع حواء وأنها موروثة ببني البشر، وكان «ثيودور المبسوستيائي» يعتبر «سِفْر أيوب» قصيدة مأخوذة ـ مع تعديل ـ من مصادر وثنية، و«نشيد الإنشاد» ليس هو إلا أحد أغاني الفرس، وأنَّ «مريم» ليست أم الله، بل هي أم الطبيعة البشرية في «يسوع».

---

(١) نفس المصدر السابق، مجلد ١١ ـ ١٢ ص٢٠.

وكان معظم المسيحيين يقولون: إذا كان المسيح إلهاً فـ«مريم» قد حملت في الله أي أنها أم الله؛ ولكن «نسطوريوس» الذي هو من تلاميذ «ثيودور» يقول: إن مريم هي أم طبيعة المسيح البشرية، وإنَّ تسميتها بأم المسيح خير من تسميتها بأم الله. وألقى «سيريل» كبير أساقفة الإسكندرية موعظة يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩ قال فيها: إن مريم ليست أم الله الحق بل هي أم كلمة الله.

وإثر ذلك اجتمع في «إفسوس» (٤٣١) مجلس عام للأساقفة عزل فيه «نسطوريوس» من منصبه وحرمه من الكنيسة المسيحية بعد عدم تراجعه عن آرائه أو عزله من منصبه، فنفاه الإمبراطور «ثيودوسيوس» الثاني إلى واحة في صحراء «ليبيا» بقي فيها سنين عديدة إلى أن عفا عنه الإمبراطور، حوالي عام ٤١٥ وقد وجدوه يحتضر.

وانتشر أتباعه من بعده في شرقي سوريا، وتكوَّنت منهم جماعات في بلخ، وسمرقند، والهند، والصين، وعاشوا جماعاتٍ متفرقة في آسيا، ولا يزال مَن بقي منهم يُنكر عبادة «مريم». وزاد الإضطراب، وبلغ أوجَّه عندما رفض معظم المسيحيين في سوريا ومصر، عقيدة الطبيعتين للمسيح، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين، وأصبحت «اليعقوبية» منذ ذلك الحين الدين القومي لـ«مصر» و«إثيوبيا» المسيحية، وانتشرت «النسطورية» فيما بين النهرين وشرق سوريا، ولما فتح المسلمون العرب «مصر» وقدموا على الشرق الأدنى في القرن السابع رحَّب بهم نصف سكان تلك البلاد، ورأوا فيهم محررين لهم من سلطان العاصمة البيزنطية المسيحية واستبدادها.

الخطيئة الأولى

في الغرب المسيحي ـ في القرن الرابع الميلادي ـ انقسم الغوغاء في تأييدهم ـ بعد موت قسطنطين روما ـ إلى قسمين لتنازع شخصين على كرسي البابوية هما: «دماسوس» و«يورفسوس» وحصد العنف الناشىء من وراء ذلك النزاع ١٣٧ شخصاً في يومٍ واحدٍ وفي كنيسة واحدة، واستتب الأمر بعد ذلك لـ «دِمَاسوس» في تصريف الشؤون الدينية، ولمَّا اعتنق الغربيون المسيحية، زاد ذلك في سلطة كرسي رومة وظهر آباءُ كنيسة مشهورون في الغرب في ذلك القرن هم: «أمبروز» و«جيروم» و«أوغسطين» و«جريجوري الأكبر» وفي الشرق ظهر: «أثناسيوس» و«باسيلي» و«جريجوري» و«نزيانزين» و«يوحنا كريستوم» و«يوحنا الدمشقي».

ومع ذلك لم تخلُ نظراتهم العقائدية من اختلافات، فقد خالف الراهب الإنكليزي «بلاجيوس» «أوغسطين» في عقيدة الخطيئة الأصلية، ودافع بقوة عن حرية الإنسان؛ وقال: «إنَّ الله في واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزل علينا من الشرائع والوصايا، وبما يضربه القدِّيسُون من الأمثلة قولاً وفعلاً، وبمياه التعميد المطهرة، وبدم المسيح المنقذ،

ولكن الله لا يرجح كفَّة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية آثمة بفطرتها، فلم تكن ثمة خطيئة أولى، ولم يكن هناك سقوط للإنسان، ولن يُعَاقب على الذنب إلا مَن ارتكبه، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه»[١].

وعُقد مجمع ديني شرقي ليحاكم الراهب الإنكليزي، ولكنه قرَّر صحة عقائده، إلا أنَّ مجمعاً إفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض من «أوغسطين» وأعلن البابا «إنوسنت» الأول أنَّ «بلاجيوس» مارق من الدين، ثم مات «إنوسنت» وخلفه «زُوْسمُوس» وأعلن أن «بلاجيوس» بريء، وأعلن مجلس «إفسوس» أنَّ ما يراه «بلاجيوس» من أن في مقدور الإنسان أن يكون صالحاً دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال.

ولم تكن المعارك الكبرى التي شبَّت بين البابوات، والأباطرة والملوك إلا من أجل التسلّط على عقول الناس، والدولة. وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو شنّها حملة شعواء على الدعارة، وهي وإن لم تنجح نجاحاً كبيراً في الحد منه إلا أنها رفعت من مستوى الأخلاق المتدني ولو على صعيد البيت، فشجَّعت على الزواج، وحرَّمت الإجهاض، وعزَّزت من شأن البكورية، وشجَّعت على الصبر الذي يولده الأمل، إلا أنها لم تحرّم الإسترقاق لأنها اعتبرته نظاماً طبيعياً لا يمكن القضاء عليه.

وتسابق الكثير على الرهبنة، والمباهاة بالتقشف، حتى وصل ببعضهم ألَّا يغتسل لأشهرٍ أو يترك الديدان تأكل من جسده لكنَّ سرعان ما قلَّ ذلك وضَعُف مع الأيام.

---

(١) Duchesne, III, 143.

الحروب الصليبية

(١٠٩٥ ــــ ١٣٩١)

سيطر المسلمون على بلاد الشرق الأدنى، وحكم الفاطميون «مصر» و«فلسطين» حكماً سَمِحاً مارست فيه الطوائف المسيحية شعائرها الدينية بحرية واسعة وإن تخلله بعض التجاوزات القليلة.

وبدأ الصراع الإسلامي المسيحي عندما بدأ الأتراك السلاجقة زحفهم نحو البلاد المسيحية، وانتزعوا بيت المقدس من أيدي الفاطميين (١٠٧٠) وأخذ الحجاج المسيحيون بعد حجهم لبيت المقدس، يتحدثون عمَّا يلاقونه من تعسفٍ، وظلمٍ، وتحقيرٍ لهم بعد عودتهم إلى أوطانهم. وممَّا شجع الأتراك المسلمون على ذلك هو ما نزل بالإمبراطورية البيزنطية من ضعفٍ شديد نتيجة اضطراب شؤونها الداخلية، وانتشار الفرق الخارجة على الدين، وانفصالها عن الغرب إثر الإنشقاق الذي حدث عام ١٠٥٤، فاستولى السلاجقة الأتراك على حمص، وأنطاكية (١٠٨٥) وطرسوس، ونيقية، وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق الباسفور إلى القسطنطينية.

وصدر القرار النهائي باسترداد بيت المقدس من البابا «إربان» أو

«إربانوس» نفسه، كما دعا «غربرت» عندما أصبح البابا سلفستر الثاني، العالم المسيحي لإنقاذ بيت المقدس. وسرت روح الحماسة بعد الدعوات البابوبية الكثيرة في أوروبا كلها استعداداً للحرب المقدَّسة.

وكانت الحرب الصليبية الأولى في الأعم الأغلب مغامرة فرنسية، وارتاعت أوروبا لما أُصيبت به الحملة الصليبية الثانية بعد الأولى من فشل «عظيم»، وإخفاقٍ شنيعٍ، وأخذ الناس يتساءلون كيف يخسر المدافعون عن دين الله ويُذَلُّون هذا الإذلال العظيم، وقام بعض المشككين يجادلون في مبادىء الدين المسيحي، ويرد عليهم «برنار» بأن ما حلَّ بهم ربما كان عقاباً لهم على ما ارتكبوا من معاصٍ وذنوب.

وظلت «أورشليم» اللاتينية خلال الأربعين سنة التي أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات والخلافات الداخلية للإستيلاء على عرش مملكة «أورشليم» ونشبت المعركة الفاصلة في الحروب الصليبية كلها عند «حطين» بالقرب من «طبريا» في اليوم الرابع من شهر تموز ١١٨٧، ففي عام ١١٨٣ التقى صلاح الدين بقوات المملكة اللاتينية «أورشليم» في معركة غير حاسمة عند مرج «إبن عامر» وهاجم «ريجنلد» أمير القلعة عند «الكرك» ولكنه لم يستطع اقتحامها وبقيت المناوشات، والغارات مستمرة بين الفينة والأخرى حتى وقَّع صلاح الدين هدنة عام ١١٨٥ م مع «ريجنلد» تدوم أربع سنين، ولكن «ريجنلد» سرعان ما نكث الهدنة، ففي عام ١١٨٦ اعترض قافلة للمسلمين، ونهب متاعها وأسر عدداً من أفرادها، وكان هذا النكث مفتاح القضاء على الصليبيين وانتزاع بيت المقدس، وفلسطين وما جاورها من أيديهم. والتقى جيش

المسلمين، وجيش الصليبيين في «حطين» وانتصر المسلمون ولقي «ريجنلد» حتفه.

ولم يطل حصار مدينة «أورشليم» أكثر من اثني عشر يوماً حتى استسلم أهلها، وانتهى أمرها.

وعاد «وليام» كبير أساقفة مدينة «صور» إلى «أوروبا» يروي قصة سقوط بيت المقدس، ولمَّا قَدِم «المانيا» تأثر بدعوته إمبراطورها العظيم «فريدريك بربرسا» وجهَّز جيشاً وزحف من فوره (١١٨٩) لاسترداد الأرض الموعودة، واتخذ طريقة إلى فلسطين، لكن الخطط العسكرية التركية وغاراتها أزعجته، وقطعت عنه المؤمن، ومات كثير من جنوده جوعاً، ومات «فريدريك» نفسه ميتة غير مشرِّفة، إذ مات غرقاً في نهر «سالف» الصغير في «قليقية» (١١٩٠) ولم ينجُ إلا عدد قليل من جيشه انضم إلى حصار «عكا».

وكان «ريتشارد» الأول ملك إنكلترا الملقب بـ«قلب الأسد» قد رغب هو الآخر بأن يجرب حظه مع المسلمين في استرداد بيت المقدس وأبحر بجيشه من مرسيليا، وأبحر معه «فيليب» الملك الفرنسي الذي اتفق وإياه على إنجاز مهمة التحرير من «جنوى» على أن يلتقيا في «صقلية» (١١٩٠) فلما التقيا نشب النزاع بينهما، واستسلما للَّهو، والقصف فيها لمدة نصف عام.

وفي عام ١١٩١ كان حصار «فيليب» لـ«عكا» في فلسطين، والذي دام تسعة أشهر بعد أن كان لحق به «رتشارد» بعد أسابيع قليلة. وعُقد اتفاق هدنة مع صلاح الدين، ثم عاد «فيليب» الملك الشاب إلى بلاده

بعد إصابته بالحمى، وترك وراءه ١٠.٥٠٠ جندي، وبقي «رتشارد» القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة.

ولم يخلُ الإتفاق من معارك جزئية، ومجاملات دينية، واستفزازات، لكن المشكلة العويصة التي واجهت المسيحيين الصليبيين أن كثيراً منهم استسلموا بعد هذا الحصار الطويل، للخمول، والترف، والمجون، وأطلقوا لشهواتهم العنان.

والتقى جيش صلاح الدين الأيوبي ـ كردي الأصل ـ بجيش «رتشارد» عند «أرسوف» وانتصر عليه (١١٩١) فتراجع «رتشارد» وسحب جنوده إلى داخل أسوار «يافا» وظلَّت حرب المدن في فلسطين بين كرٍّ وفرٍّ بين «صلاح الدين» و«رتشارد» حتى استولى الملل على «رتشارد» وأرسل يطلب الصلح من جديد بعد أن كان طلبه أول الأمر، عازماً على الإنسحاب، والعودة إلى «إنكلترا».

وفي أيلول (١١٩٢) وقَّع «صلاح الدين» و«رتشارد» شروط صلحٍ لمدة ثلاث سنين، وقُسِّمَت فلسطين على أساس احتفاظ «رتشارد» بما استولى عليه من المدن الممتدة على طول الساحل من «عكَّا» إلى «يافا» والسماح للمسلمين بحرية الإنتقال من أحد القسمين إلى الآخر، وتعهَّد السلطان «صلاح الدين» بحماية الحجاج المسيحيين إلى «بيت المقدس» على أن تبقى المدينة في أيدي المسلمين، وزالت الأحقاد من الصدور ولكن إلى حين، وأبحر «ريتشارد» عائداً إلى بلاده.

وبما أن الحملة الصليبية الثالثة لم تُفلح بالإستيلاء على بيت المقدس، شجَّع موت صلاح الدين عام (١١٩٣) الذي لم يتجاوز

الخامسة والخمسين من عمره، البابا «إنوسنت» الثالث الذي جلس على عرش البابوية (١١٩٨ ـ ١٢١٦) على الدعوة إلى حملاتٍ صليبية جديدة، وتجمَّعت الجيوش الصليبية الجديدة في مدينة البندقية في صيف عام ١٢٠٢ لتُنقل بالبحر عن طريق الإيطاليين، حيث كان الإيطاليون مسيطرين على البحر المتوسط بأساطيلهم البحرية والتجارية، وكان معظم الصليبيين من فرنسا كالعادة، ولم تكن الأمبراطورية البيزنطية لتقدم خلال الحروب الصليبية للصليبيين معونة مادية تُذكر صوره مجرد دعواتها، وترحيبها بالحرب، لأجل الحصول على كسب مادي عظيم.

وفي الرابع والعشرين من شهر حزيران ١٢٠٣ وقف أسطول الصليبيين الضخم أمام القسطنطينية، ودُهش الجيش الصليبي الكبير مما رأى من ثراء، وأسوار شامخة، وكنائس عالية، وقصورٍ رائعة، ولم يعد ليفكر بحربه واسترداده لبيت المقدس من المسلمين، لكن البابا «إنوسنت» الثالث نهى الصليبيين عن مهاجمة القسطنطنية وأنذرهم بالحرمان إذا فعلوا، ورغم انسحاب البعض ظلَّت فكرة الإستيلاء على أغنى مدينة في أوروبا مستحوذة على أذهان كثيرٍ من الصليبيين، ولما لا وفيها إخضاع للكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية للبابا في روما!

وازداد نهمهم لطول ما حُرموا من هذه الفريسة المنتظرة فهاجموها، وانقضُّوا عليها في أسبوع عيد الفصح، وسلبوها ونهبوها، واغتصبوا من النساء والراهبات اليونانيات ما اغتصبوا، والتهمت النار الكنائس والمنازل، ودور الكتب، والمتاحف، وسُرقت آلاف روائع لوحات الفن، وأُحرق بعضها وشُوِّه.

وقُسِّمت الإمبراطورية البيزنطية إلى أملاك إقطاعية، وعاد معظم الصليبيين إلى أوطانهم محمَّلين بالغنائم ولم تصل إلى فلسطين سوى حفنة قليلة لم تُفد بشيء، وكان هذا العمل ـ سقوط القسطنطينية بأيدي الصليبيين الأوروبيين اللاتين ـ انتصاراً لهم على اليونان الأرثوذكسي، وعملاً ممهِّداً لإستيلاء الأتراك عليها بعد مائتي عام من ذلك الوقت.

بعد هذا الفشل الذريع للحملة الصليبية الرابعة، انعقد مجلس «لاتران الرابع» بدعوة من «إنوسنت» الثالث من أجل استعادة الأراضي المقدَّسة، وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بعد تجهيزها، من بلاد المانيا، والنمسا، والمجر عام ١٢١٧ بقيادة «أندرو» ملك المجر، ووصلت إلى مدينة «دمياط» في «مصر» وسقطت المدينة بعد حصارٍ دام عاماً كاملاً، ثم عُقدت هدنة بين الملك «الكامل» سلطان «مصر» و«سوريا» الجديد والصليبيين، إلا أنها لم تدم طويلاً، وعادت «دمياط» إلى المسلمين، وجلا جميع الجنود الصليبيين عن أرض «مصر».

ولمَّا كان عام ١٢٢٨ زحف «فريدريك» على رأس الحملة الصليبية السادسة، ولمَّا وصل إلى «فلسطين» لم يلق أية معونة من المسيحيين المؤمنين، فأعرضوا عنه كونه مطروداً من حظيرة الدين، والكنيسة المسيحية، فلمّا رأى الأمبراطور الألماني ما فعلوا، أرسل إلى الملك الكامل ووقَّعَا معاهدة عام ١٢٢٩ تنصُّ على احترام حقوق كلا الطرفين المسلمين، والمسيحيين، والعيش بوئام، وسلام، والمحافظة على السلم لمدة عشر سنين وعشرة شهور، والتقت الثقافتان الإسلامية، والمسيحية فترة من الزمن وهما متفاهمتان تحترم كلتاهما الآخرى.

ولـمَّـا رجـع «فـريـدريـك» إلـى بـلاده، اسـتـولـى الـنـبـلاء والأشـراف المسيحيون المقيمون في فلسطين على بيت المقدس، وعقدوا حلفاً مع القوة المسيحية في آسيا، فاستنجد سلطان «مصر» بأتراك «خوارزم» فأنجدوه، واستولوا على بيت المقدس، وبعد شهرين من ذلك الوقت (١٢٤٤) هزم الظاهر «بيبرس» قائد المماليك، المسيحيين في «غزَّة» وسقطت مدينة القدس مرة أخرى في أيدي المسلمين في تشرين الأول عام ١٢٤٤.

ولمَّا حلَّ عام ١٢٤٨ سار «لويس» التاسع ملك فرنسا على رأس حملة صليبية سابعة، ووصلت إلى «دمياط» واستولت عليها، ولكن فيضان النيل السنوي الذي لم يحسب له الصليبيون حساباً حصرهم في «دمياط» مدة نصف عام، ومُني بهزيمة ساحقة عند «المنصورة» وأُسِرَ الملك «لويس» نفسه وعشرة آلاف من جنوده، ومرض وعالجه طبيب عربي ثم أُطلق سراحه بعد شهرٍ من الأسر، وافتداء نفسه بـ٥٠٠ ألف جنيه فرنسي، وسار الملك منهزماً على رأس فلول جيشه إلى «عكَّا» وأقام فيها أربع سنين يدعو فيها إلى كف أوروبا عن منازعاتها الداخلية، والإنضمام إليه في حربٍ جديدة ضد المسلمين، ولكنه لم يلق آذاناً صاغية، وعاد إلى «فرنسا» عام ١٢٥٤. والجدير بالذكر أنَّ البابا «إنوسنت» بعث موفده الراهب «جيوفاني ده بيانو كربيني» إلى المغول طلباً للمساعدة منهم ضد الأتراك المسلمين فلم يُستجَب له، أعاد الملك «لويس» نفس الطلب إلى زعيم المغول عبر موفده «وليام الرُّوبروكوازي» «William of Rubruquois» إلا أنه لم يلقَ منه غير ما لقي

من جواب دعوة البابا الأولى وهو شرط خضوع البلاد المسيحية له.

وحَلَّت بالمسيحيين الكارثة النهائية عندما نهب بعض المغامرين المسيحيين قافلة للمسلمين في بلاد الشام، وبعض المدن الإسلامية، وشنقوا تسعة عشر تاجراً من تجار القافلة، فطلب السلطان التعويض الكافي عن هذا الإعتداء فلم يُجَب إليه، فزحف على «عكا» واستولى عليها بعد حصارٍ دام ثلاثة وأربعين يوماً، ثم تلاها سقوط حيفا، وصور، وصيدا، وبيروت، عدا عن سقوط قيصرية (١٢٦٥) وصفد (١٢٦٦)، ويافا (١٢٦٧) وأنطاكية (١٢٦٨) قبلها على يد سلطان المماليك الظاهر «بيبرس» وأدركت أوروبا بعد ذلك أن الحروب الصليبية قد انقضى أجلها[(١)].

لقد دامت هذه الحروب قرنين من الزمن بقيت خلالها بيت المقدس في أيدي المسلمين المماليك، ولم يبقَ في أيدي المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام «وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية في رقَّتها، وأسباب راحتها، وتعليمها، وأساليبها الحربية، يُضاف إلى ذلك أن الجهود الكبيرة التي بذلها البابوات لنشر لواء السلم على ربوع أوروبا بتوجيهها إلى غرضٍ واحد قد تحطمت بفعل المطامع القومية، وحروب البابوات «الصليبية» على الأباطرة»[(٢)].

وهكذا أخفقت الحروب الصليبية في حروبها ضد المسلمين، وفقدت روحها المعنوية حين عجزت عن فتح بيت المقدس وفُتِحَت «بيزنطية» المسيحية بدلاً منها.

---

(١) ولكن ـ وللأسف ـ إلى حين، فما تكاد تنطفئ حتى تظهر من جديد في أي وقتٍ كان
(٢) قصة الحضارة ـ ج١٥ ـ ١٦ ـ ص: ٦١ ـ وِل ديورَانت.

الرِّبا

حرَّمت الكنيسة الرِّبا، وحاربه المسيح، وظلَّت الكنيسة ترتاب في جميع أنواع المضاربات، والمكاسب، وتعارض جميع صنوف الإحتكار، والربا، وقرر مجلس «لاتران» الثالث (١١٧٩) «أن الذين يجهرون بالربا لا يُقبلون في العشاء الرباني، وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يُدفنون دفن المسيحيين، وليس لقسيسٍ أن يقبل صدقاتهم».

وكانت ثروة الكنيسة في الأرض لا في التجارة، وكانت تنظر بعين السخط إلى سلطة طبقة التجار، وظلَّ تشريع الحكومات يؤيد موقف الكنيسة في الربا، زمناً طويلاً، إلا أنَّ بعض الأديرة كانت تقرض المال نظير عطايا تنالها سراً أو ببيوع صورية، وتبدَّل الحال إلى أنْ أصبح «كثير من رجال الدين ـ وبخاصة الأديرة ـ يُقرضون المال لمن هم بحاجة إليه، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له، ثم يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة مضافاً إلى رأس المال المقرض، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف لأنه محرم تحريماً صريحاً»[١].

---

(١) لاحظ لوقا: ٣٤.

وكان الكهوريون «اللمبارد» أو اليهود يُقرضون بعض الأديرة المال بشروطٍ ترفع سعر الفائدة إلى ستين في المائة في السنة، كما أنه إذا تمَّ تأخير الدفع مرَّة بعد المرَّة عن موعده فإن نسبة الفائدة تزيد حينئذٍ.

وبلغ انتشار الربا حدَّاً جعل «إنوسنت» الثالث يعلن بصراحة عام ١٢٠٨ أنه لو طرد جميع المرابين من الكنيسة كما يتطلب القانون الكنسي، لوجب إغلاق الكنائس جميعها.

ولم يكن تحريم الكنيسة له مؤثراً رغم إنذارها بأن مَن يتعاطى به سيُحرم من القربان المقدس، والدفنة المسيحية عند موته. وكان المسيحيون ينافسون اليهود في عقد القروض، وواجه الرهبان الفرنسيين هذه المشكلة بإنشاء أرصدة الإحسان ليقرضوا منها المحتاجين بغير فائدة. وبعقد مجلس «لاتران» الخامس عام ١٥١٥ منحهم أن يفرضوا على كل قرضٍ ما يكفي من المال لتغطية نفقات الإدارة الإشراف على الأرصدة الإحسانية المجموعة من الهبات والوصايا ونحوها[١].

(١) Lanciani, Golden Days, 87.

الأسرار المقدَّسة

ينطبق لفظ الأسرار المقدَّسة Sacramentum لدى الكنيسة على كل شيء مقدَّس.

وفي القرن الرابع الميلادي كان ينطبق على التعميد، والصليب، والصلاة، وفي القرن السابع على التعميد وتثبيت العماد، والقربان المقدَّس. وفي القرن الثاني عشر حُدِّدت الأسرار المقدَّسة بسبعة أسرار: التعميد، وتثبيت العماد، والكفارة، والقربان المقدَّس، والزواج، ورتبة الكهنوت، والمسح بالزيت قبيل الوفاة؛ أما الرش بالماء المقدَّس، وعلامة الصليب، والبخور فسميت «Sacramenlals» أي المتعلقة بالأسرار لا نفس الأسرار.

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها، وكان الهدف منها محو الخطيئة الأولى الموروثة بآدم وحواء.

وقبل أن يحل القرن التاسع كانت طريقة التعميد الأولى ـ غمر الطفل كله ـ قد استبدلت بطريقة الرش لخطورة الغمر على صحة الطفل في الأجواء الباردة الشمالية، واستبدل التعميد الذي كان يتم عندما يكبر الطفل بالتعميد في سن الرضاعة.

وكانت مراسم تثبيت العماد، والقربان المقدَّس تُقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة، أما عند أتباع الكنيسة الغربية ففي سن السابعة من عمر الطفل حتى يستطيع تعلم المبادىء الأساسية للدين المسيحي.

وبهذه الطريقة التي يقوم بها أحد الأساقفة، يثبت المسيحي الصغير على دينه.

أمَّا مراسم الكفارة فتتم باعتراف المسيحيين بذنوبهم لدى القِسِّ كوسيلة من وسائل تطهير أرواحهم ثم تأتي بقية المراسم.

وتقول الكنيسة: إنَّ المسيح منح الرسل هذا الأمر لأنه هو غفر الخطايا، وقد انحدرت إليهم بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين، ومن «بطرس» إلى البابوات، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن، طريقة الإعتراف العلني التي جرت بها العادة أيام المسيحية في سابق عهدها، بطريقة الإعتراف الفردي السري اليوم حتى لا تمس كرامة بعض «الكبار».

وقد قرر مجلس «لاتران» الرابع (١٢١٥) أنَّ مَن أهمل الإعتراف والعشاء الرباني اللذان لا بدَّ منهما كل عام، يُحرَم من كل خدمات الكنيسة، ومن الدفن دفنة مسيحية، لكنه (الإعتراف السمعي) لم يخلُ من بعض النتائج السيئة؛ فقد كان هذا النظام يُستخدم أحياناً لتحقيق أغراضٍ سياسية، وذلك حين كان القساوسة مثلاً يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات.

ولم يكن صك الغفران للمسيحي إلَّا إعفاءً جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذي يستحقه الإنسان جزاءً له على ذنوبه التي ارتكبها، وهذا

الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة، وكانت الكنيسة تدَّعي لنفسها حق التجاوز عن هذا العقاب.

وقد مُنِحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع، وأُعطي بعضها في القرن الحادي عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة وعُرِض على مَن يشتركون في الحرب الصليبية الأولى، ونشأت من هذه العادات سُنَّة تشمل كل من يقوم بأعمال، وخدمات دينية، واجتماعية كبناء كنائس، ومستشفيات، ودفع تبرعات، أو حرب مسيحية، ونحو ذلك، ولكنها فتحت مجالاً للمطامع البشرية، وحوَّلت رؤساء بعض الأديرة إلى لصوص يبيعون صكوك الغفران لطالبيها أو لتوبة من الذنوب أو غير ذلك.

وقد نشأ من هذه العروض الغفرانية «pardoners» تنافس شديد جلَّل بالعار كثيراً من المسيحيين، فكانوا يتظاهرون بتعظيم ما يدفع الناس على التبرع بالمال، ويحتفظون به لأنفسهم، وندَّد مجلس «ماينز» الديني عام ١٢٦١ بكثيرٍ من موزعي هذه الصكوك، وحُرم رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران، وشهَّرت بها مجالس كنيسة مثل مجلس «فين» (١٣١١) ومجلس «رافيا» (١٣١٧) لكن هذه المساوىء لم تنقطع[١].

وكان العشاء الرباني أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد، وهو الفكرة القائلة بأن الخبز هو جسم المسيح والنبيذ هو دمه.

وقد نشأت في القرن الثاني عشر عادة الإكتفاء بتناول العشاء الرباني بالخبز وحده لكن بعضهم طالب بتناول القربان بصورتيه لأن دم

---

(١) لاحظ قصة الحضارة ـ مجلد: ١٥ ـ ١٦ ـ ص: ١٨ من القسم أو الجزء الثاني ـ وِل ديورانت

المسيح ملازم لجسمه في الخبز ولأن جسمه ملازم لدمه في النبيذ، وانتشرت عدة قصص حول مقدرة الخبز المقدَّس على إخراج الشياطين، ومداواة الأمراض، ومعرفة الكاذبين باختناقهم، وكان يُطلب من كل مسيحي تناول العشاء الرباني مرة كل عام على الأقل.

ونشأت عقيدة حضور المسيح في أثناء العشاء الرباني نشأة بطيئة، وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هي التي أعلنها مجلس نيقية عام ٧٨٧.

وأعلن مجلس «لاتران» عام ١٢١٥ أنَّ هذه العقيدة من المبادىء الأساسية في الدين المسيحي، وأضاف مجلس «ترانت» عام ١٢٦٠ إعلاناً آخر وهو أنَّ كل جزء من الخبز المقدَّس يحتوي جسم المسيح وروحه، ودمه كله، «وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوروبية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان البدائية، وهي أكل الإله»[١].

وآخر الأسرار المقدَّسة ـ بعد الزواج المفوَّض إلى المطران أو القس من طريق المسيح، والموروث عن طريق الرسل، والموهوب لهم ـ هو المسح الأخير، يستمع القس إلى اعترافات المسيحي المحتضر، ويمنحه المغفرة التي تنجيه من النار، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة، وتصبح مستعدة للبعث أمام الرب العدل، ويدفنه أهله بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون، لأنَّ جسمه يُبعث حيَّاً بعد الموت، ويضعون قطعة من النقود في تابوته كما كان يفعل الأقدمون، إذ كانوا يعتقدون أنهم يؤجرون «كارون» لنقله إلى الآخرة، ثم يُحمل إلى قبره ويُدفن.

---

(١) قصة الحضارة ـ مجلد: ١٥ ـ ١٦ ـ ص: ٢٠ من القسم الثاني.

الصلاة المسيحية

إنَّ أقدم الصلوات المسيحية هي الصلاة التي مطلعها: «أبانا الذي في السموات» والصلاة التي مطلعها: «نؤمن بإله واحد» وقبل انتهاء القرن الثاني عشر بدأت الصلاة «السلام عليكِ يا مريم» تتخذ صيغتها المعروفة.

ونشأت عند الرهبان، والراهبات عادة استعمال المسبحة التي جاء بها الصليبيون من الشرق الإسلامي، ونشر الرهبان «الدمنيك» هذه العادة كما نشر الرهبان الفرنسسكان عادة تلاوة المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح. ونشأت أناشيد العبادة الإلهية ـ مزامير، وأدعية، وقراءات، وترانيم، صاغها البندكتيون وغيرهم ـ لتدخل السرور على قلوب المؤمنين. ونشأت عادة تقديس الأولياء والشفعاء، وكان لكل أمة ومدينة، وليّها، وقدّيسها كما كان لكل منها إلهاً في رومة القديمة، فكان لإنكلترا القدّيس «جورج» ولـ«فرنسا» القدِّيس «دنيس» وكان القديس «كرستوفر» نصير الحمَّالين لأنه حمل المسيح على كتفيه، وكان

القدِّيس «سبستيان» والقدِّيس «رتش» نصراء ضد الوباء، والقدِّيس «بليز» لشفاء آلام الحلق، والقدِّيس «كورني» يحمي الثيران، والقدِّيس «غول» يحمي الدجاج، والقدِّيس «أنطون» يحمي الخنازير، والقدِّيس «ميدار» لينزل المطر وهو الذي تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القدِّيسين.

وكثُر عدد القديسين في العالم وكثُرت تبعاً لذلك تقديس مخالفاتهم وعظامهم، وشعورهم، وأثوابهم وأي شيء استعملوه في حياتهم، وكانت مخلَّفات زائفة كثيرة تباع للكنائس، والناس المؤمنين. وكان شر هذه المساوىء هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسّر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته[1].

وانتشرت القصص الخرافية عن معجزات المخلَّفات، وتضاعف عددها حتى أنَّ بعض رؤساء الأديره أغوتهم كثرة ما يُحمل إليهِم من الهدايا فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة.

وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الناس من تصديق مختلقي الأقاصيص الكاذبة، وحرَّم مجلس «لاتران» المنعقد عام ١٢١٥م عرض المخلّفات خارج الأضرحة، وندَّد مجلس «ليون» الثاني (١٢٧٤م) بالإقلال من شأن المخلَّفات، والصور المقدَّسة.

وتذكِّر عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعادة تقريب القرابين المحروقه، أما عادة الرش بالماء المقدَّس فكانت صورة قديمة من التعاويذ، وأما ملابسالقساوسة، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم فهو تراث من رومة الوثنية.

(١) Power, Medieval people 80.

وغدت الإحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أعياداً مسيحية، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية، وظلَّ الناس كما كانوا سابقاً، يوقدون النيران منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا، وحلَّ تقويم القدِّيسين المسيحي محل التقويم الروماني، وتحوَّل تقديس مريم أم المسيح إلى عبادة لها، ووافق مجلس «أفسس» عام ٤٣١ على أن تُـلَقَّب «مريم» أم الله على الرغم من احتجاج «نسطوريوس» ثم قررت الكنيسة في القرن السادس إقامة الإحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء، وحدَّدته باليوم الثالث عشر من شهر آب وهو تاريخ عيدين قديمين لـ«إيزيس» و«أرتميس» وكانت صورتها تُحمل في مقدمة كل موكب عظيم، وتُعلق في كل كنيسة وبيت في العالم المسيحي اليوناني.

وعلى هذا النحو من التقديس نشأ دين جديد، وصيغ إنجيل لـ«مريم» لا تعترف به الكنيسة، ولا يصدقه العقل، ولكنه يفتتن به افتتاناً كبيراً لما فيه من قصص الناس التي سطَّرها الرهبان، ومنها «القصة الذهبية» التي تروي: إنَّ أرملة قدَّمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها، فلمَّا أسره العدو أخذت الأرملة تصلي إلى العذراء كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها، ومرَّت على ذلك اسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعي أمه، وأخفته في بيتها، وحينئذ فتحت العذراء السجن، وأطلقت سراح الشاب، وأمرته أن بلِّغ أمك يا بني أن ترد إليَّ ولدي بعد أن رددت إليها ولدها».

وجمع رئيس دير فرنسي يدعى «غولتييه ده كوانسي» أقاصيص

«مريم» في قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت، تجد فيها العذراء تشفي راهباً مريضاً بامتصاصه اللبن العذب من ثدييها.

وقُبِض على لصٍ كان على الدوام يصلي لها قبل أن يُقدم على السرقة، وعُلِّق اللص ليُشنق، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد فلمَّا تبين للناس أنها تحميه أُطلق سراحه. ولم تكن الكنيسة لترتضي كل هذه القصص وما شاكلها ولكنها كانت تُقيم احتفالاتٍ عظيمة في ذكرى الحوادث البارزة في حياة مريم، كالبشارة، وزيارة مريم لـ«إليصابات» قبل أن تلد إبنها يوحنا المعمدان، والتطهير (عيد تطهير العذراء، ودخول المسيح الهيكل) والصعود؛ وبهذا أفسحت الكنيسة في أعيادها، وفنها، وترانيمها، وصلواتها مجالاً، وأوجدت مكاناً في قلوب الناس لعبادة العذراء، واستحالت الكثلكة بفضل هذا الحب، والرحمة لمريم إلى عبادة لها، وانقسمت الكنيسة إلى شرقية وغربية، وأدَّى هذا الإنقسام إلى اختلافٍ في الشعائر الدينية، وخصوصاً القدَّاس الذي يعتبر أهم العبادات المسيحية، وبقيت الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وأساسها، وتجمَّعت حولها خلال إثني عشر قرناً مراسيم متتالية معقَّدة من الأدعية والترانيم المختلفة.

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها الصوم الذي شرعته في أوقاتٍ معينة، نهت فيه عن أكل اللحم في جميع أيام الجمعة، والبيض، والجبن، واللحم طوال أيام الصوم الكبير البالغ أربعين يوماً، وحتى الساعة الثالثة بعد الظهر بحيث لا يكون خلال هذه الفترة زواج أو

طرب أو صيد أو محاكمات قضائية أو صلات جنسية بين الرجال والنساء، وأضافت الكنيسة إلى جميع ذلك الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة كعيد الغطاس، والقيامة، والصعود، وأحد السعف، وأيام الأحاد كلها. وفي عام ١٢٤٠ حدث أن أبلغت «يوليانا» رئيسة دير قريب من «لييج» قس القرية التي تقيم فيها أن رؤياها السماوية قد نبهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه في العشاء الرباني، وذلك بإقامة عيد جميلٍ رهيب، وأقرَّ البابا إربان الرابع هذا الإحتفال عام ١٢٦٢ وعهد إلى «توماس أكوناس» أن يضع له صلاة مؤلفة من ترانيم، وأدعية تناسبه، ففعل ذلك على خير وجه.

وفي عام ١٣١١ ثُبِّت أخيراً «عيد القربان»، واحتُفل به في أول يوم خميس بعد «عيد العنصرة».

ولم تكن الكنيسة تنشر تعاليمها الأخلاقية على أساس الجدل المؤدي إلى الإقناع، بل كانت تلجأ في الوصول إلى هذا الغرض بتقريبه إلى الحواس عن طريق التمثيل، والموسيقى، والتصوير، والنحت[1]، والعمارة، والقصص، والشعر.

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج، وكان أكثرهم يحجُّون إلى «فلسطين» النائية ويزورون الأماكن المقدَّسة فيها،

---

(١) «لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن، ولا تعبدهن» سِفر الخروج: ٢٠ ـ ٤ و٥.

وفي إنكلترا كان الإنكليز يحجون إلى قبر القديس «كثبرت» في «درهام» و«إدوارد» و«إدمُند» وضريح «توماس أبكت» في «كنتربري».

وفي فرنسا إلى قبر القسيس «مارتن» في «ثور» وإلى «نوتردام» في «تشارتر» في «لي ـ بوين ـ فلاي» «Le - puyen - velay» وفي إيطاليا إلى كنيسة القديس «فرانسيس» وعظامه في «أسسي» «Assisi» وفيها أيضاً «سانتا كاستا» «Santa casta» أو البيت المقدس في «لوريتو» ويُعتقد أنه هو البيت الذي سكنت فيه «مريم» مع «عيسى» في الناصرة، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك المسلمون آخر الصليبيين منها، وطارت به في الهواء ثم أنزلته في «دلماشيا» ١٢٩١، ثم طارت فوق البحر الأدرباوي إلى غابات «أنكونا» (اللوريتوم) التي اشتق منها إسم هذه القرية المكرَّمة.

وفي النهاية: إنَّ كل طرق العالم المسيحي كانت تؤدي بالحجاج آخر الأمر إلى زيارة رومة، ليشاهدوا قبري «بطرس» و«بولس» ولينالوا الغفران بزيارة الأماكن المقدَّسة أو الكنائس القائمة في تلك المدينة أو للإحتفال بعيدٍ من الأعياد أو ذكرى سارة في التاريخ المسيحي.

القانون الكنسي

نشأ القانون الكنسي شيئاً فشيئاً من فقرات في الكتاب المقدس، وآراء آباء الكنيسة، وقوانين رومة، وقرارات مجالس الكنيسة، وقرارات البابوات وآرائهم، وأُعِدَّت مجموعات من الشرائع الدينية في البلاد الغربية في القرنين السادس، والثامن عشر، كما أعدَّ أباطرة بيزنطية من حين إلى آخر مجموعات مثلها في بلاد الشرق، وصِيغت قوانين الكنيسة الرومانية في صيغتها النهائية التي كانت عليها في العصور الوسطى على يد «غراتيان» حوالي عام ١١٤٨، وكان «غراتيان» هذا من رهبان بولونيا، وقد سمِّي كتابه الذي أصدره عن القوانين الكنسية موجزاً بـ«التوفيق بين القواعد المتعارضة» ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة إسم «القرارات».

ولم تتخذ الكنيسة في العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً نهائياً، ولكنه أصبح في الفترة التي كان قائماً فيها، نصَّاً لا غنى عنه إذا لم يكن ليصبح نصَّاً مقدَّساً.

وأضاف إليه «جريجوري» التاسع (١٢٣٤) و«بنيفاس» الثامن

(١٢٩٤) و(كلمنت) الخامس (١٣١٣) ملاحق من عندهم أُضيفت مع كتاب «غراتيان» (١٥٨٢) كمجموعة من القوانين الكنسية المقابلة لمجموعة قوانين «جستنيان» المدنية.

وكانت الكنيسة تُصدر عقوبة الحرمان الأصغر «Minor excommunication» الذي يقضي بمنع المسيحي من الإشتراك في العشاء الرباني، وفي طقوس الكنيسة، وإذا لم يُعْفَ عنه كان معناه الخلود في نار جهنم، أما العقوبة الأخرى فكان الحرمان الأكبر «Major excommunication» وهو الحرمان الوحيد الذي تستخدمه الكنيسة في هذه الأيام وهو لا يصدر إلا عن مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة، فإذا صدر هذا الحرمان أُبعد المحروم من كل اتصالٍ قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي، ويحرم على أي مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حقَّ عليه الحرمان الأصغر، وفي الحالات القصوى كانت الكنيسة تُضيف إلى «الحرمان» عقوبة اللعنة «Anathema» وهي كل ما يتصل بالعقوبة الأصلية مما يقرَّر.

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان، والتحريم سبباً في ضعف أثرهما في القرن الحادي عشر، فقد كان البابوات يُصدرون بين الفينة، والفينة قرارات لأغراض سياسية، كما أنَّ من المجتمع المسيحي مَن أغفل قرار الحرمان أو سخر منه ولم يعبأ به، وكان ما يحدث آناً بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسي على غير رجال الدين في أوروبا.

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً في آخر القرن الثاني

عشر، مضافاً إلى ما أعقب الحروب الصليبية بعد إخفاقها من شكٍ فيما يُعزى إلى الكنيسة من قداسة، ومعونة إلهية.

وجاء البوليسيون «Paulicians» إلى «إيطاليا» و«بروفانس» عن طريق بلاد البلقان فارين نحو الغرب من وجه الإضطهاد البيزنطي يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدَّسة، والعشاء الرباني، ورجال الدين، وتكوَّنت طائفة البجوميل «Bogomiles» ـ أي أصدقاء الله ـ وانتشروا في «البوسنة» بنوعٍ خاص؛ وهوجموا بالسيف والنار واستماتوا في الدفاع عن أنفسهم ثم استسلموا آخر الأمر للإسلام لا للمسيحية (١٤٦٣).

وظهرت في عامٍ واحد ألف شيعة في طولوز (طلوشة) وأورليان تُنكر المعجزات، وقدرة التعميد على غسل الذنوب، ووجود المسيح في القربان المقدس، وتأثير الصلوات للقديسين، ونشأت فرق ملحدة أخرى شبيهة بهم، ويصف أعداء الفرقة الألبجنسية ـ نسبة إلى بلدة «Albi» التي يكثرون فيها بنوعٍ خاص ـ بأنَّ هذه الفرقة لا تؤمن بالعشاء الرباني، والقدَّاس، وتعظيم الصور المقدَّسة والتثليث، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء، وعندهم أن المسيح من الملائكة، ولكنه ليس هو الله.

وأنكرت فرقة «الكاثاري» أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت إنَّ القدِّيس «بطرس» لم يأتِ قط إلى رومة، ولم يؤسس البابوية، وإنَّ البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل، وإنَّ المسيح لم يجد مكاناً يضع فيه رأسه، أما البابا فيسكن قصراً عظيماً، وإنَّ المسيح لم يكن له مِلك ولا مال ولكنَّ رجال الدين المسيحيين من ذوي الثراء العريض،

وإنَّ رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والقساوسة الدنيويين، والرهبان السِمَان، هم الفريسيُّون اليهود الزنادقة الأقدمون الذين عادوا إلى الظهور من جديد. ولم يكونوا يشكون في أنَّ الكنيسة الرومانية هي «زانية بابل» وأنَّ رجال الدين هم زمرة الشيطان، وأنَّ البابا هو المسيح الدجَّال، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران، والمخلَّفات المقدَّسة؛ وشنَّ البابا إنوسنت نهاية الأمر حرباً صليبية لا هوادة فيها عليهم وعلى أتباعهم في جميع المدن والقرى الفرنسية حتى استسلمت طولوز نفسها عام ١٢١٥ لقائد الحملة عليها وهو «سيمون ـ ده ـ مونت فورت» والذي قاد معظم الحملات، وقتل فيها ونهب ما شاء له أن يقتل وينهب، ويستولي على أراضي الملاحدة، ووقفت الحرب الصليبية ضد الألبجنسيين لمَّا مات البابا «إنوسنت».

وعُقدت معاهدة الصلح مع «الأَلْبَجَنْسيين» في باريس عام ١٢٢٩، ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها، وكانت هذه الوحدة هي ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبجنسية.

وأمر «هنري» السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤) أن يُنزَل بالضالين المسيحيين أشد أنواع العقاب، وأصدرت مدينتا فلورنس (١٢٢٧) و«ميلان» (١٢٢٨) مراسيم شبيهة بمرسوم «هنري».

وكان أشد قوانين الإضطهاد هو حكم الكنيسة على الضَّالين بالحرق أحياء، وذلك استناداً إلى إنجيل يوحنا: أن عيسى ارتضى هذا

القول: إن كان أحد لا يثبت فيَّ يُطرح خارجاً كالغص فيجف، ويجمعونه، ويطرحونه في النار فيحترق»[1].

وفي تثنية التشريع: فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم «ذهبوا وراء آلهة أخرى، أُخرج المارقون من المدينة، ورُجِمو بالحجارة حتى يموتوا»[2].

واشتركت الدولة مع الكنيسة في اضطهاد الضالين خشية التطرف السياسي الذي قد يكون الضلال الديني ستاراً له.

ولمَّا ارتقى «جريجوري» التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال في ازدياد؛ فقد كانت جميع بلاد البلقان، والجزء الأكبر من إيطاليا، وغير قليلٍ من فرنسا مرتعاً للإنحراف والزيغ. ولمَّا كان عام ١٢٣١ أُنشأت محكمة التحقيق (التفتيش) رسمياً تحت سلطان البابوات، والتي كان من حقها أن تعاقب الضَّالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم بعقوبة الإعدام.

وبعد عام ١٢٢٧ أرسل «جريجوري» ومَن خَلَفَهُ عدداً متزايداً من المفتشين المختصين بمطاردة جماعة الضلال.

وكان اختصاص محكمة التفتيش مقصوراً على المسيحيين دون اليهود والمسلمين، فلم يكونوا يُدعَون للتحقيق معهم إلا أن يكونوا مسيحيين مرتدين[3].

---

(١) يوحنا: ١٥ ـ ٦.

(٢) تثنية التشريع: ١٣: ١٠.

(٣) Haskins, Renaissance, 89.

وأجاز «إنوسنت» الرابع (١٢٥٢) قانون التعذيب عند وثوق القضاة من جرم المتهم، وتبعَهُ مَن جاء بعده على ذلك من الأحبار، وكان على مختلف أنواعه البشعة، المؤلمة، من الكوي بالنار، والجلد، والسجن الإفرادي في جب مظلم ضيّق، ونحو ذلك.

واتفقت الكنيسة والدولة بعد «جريجوري» التاسع على أن يُقتل المذنبون دون أن تُسفك دماؤهم أي أن يُحرقوا عند عمود الإحراق.

«وإذا أسقطنا من حسابنا كل ما يُطلب من المؤرخ من اعتدال في حُكمِهِ، وما يُسمح به للمسيحي من تمسك بدينه، إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أي وحشي من الوحوش»[1].

---

(١) قصة الحضارة ـ مجلد: ١٥ ـ ١٦ ـ ص: ١٠٦ من القسم الثاني.

الرهبنة

كانت الأديرة قد تضاعف عددها في أثناء العصور المظلمة وبلغت ذروتها في القرن العاشر المضطرب الذي ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد، ثم أخذ عددها يتضاءل حين أخذ النظام يسود الشؤون الزمنية، وأخذ الرخاء في الإزدياد.

وكان من السنن المتَّبعة في القرن الثالث عشر عند الآباء الأتقياء أن يهبوا أطفالهم في سن السابعة أو ما بعدها إلى الدير زلفى إلى الله.

وكانت طائفة الرهبان «البندكتين» ترى أن النذر الذي ينذره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير لا يمكن الرجوع فيه»[١].

أما القديس «برنار» وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد»[٢]. وأصبح الراهب الراشد يحتاج إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع في يمينه من غير أن يرتكب في ذلك إثماً.

---

(١) Gilson, E., Philosophy of st. Bonaventures 31.

(٢) Coulton, Life, IV, 98.

وكانت طائفة الرهبان البندكتين تخصص سنة للمبتدىء يستطيع في أثنائها أن ينسحب من الدير بكامل حريته، وإنَّ فارساً من الفرسان انسحب من الدير «متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن، وهي أنه يخشى الحشرات التي في ثياب الرهبنة، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوي الكثير من الحشرات»[1].

وكان الراهب يقضي يومه بالصلوات، والوجبات القليلة من الطعام، وحرث الأرض، وزراعتها والعيش منها أو على صدقات المتبرعين، حتى فاض ثراء المجتمع المتزايد على الأديرة مع الوقت، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان يعيشه الرهبان أحياناً من ترف. وكان رؤساء الأديرة أمثال: «سوجر» رئيس دير القديس «دنيس» و«بطرس المبجَّل» رئيس دير «كلوني» و«سامسوت» رئيس دير القديس «إدمند» في «بيوري» كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء، أصحاب ثروات مادية، وسلطان اجتماعي عظيم.

ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهي وخمره، على أننا يجب أن ندرك مقدار مللهم من الخُضَر، واشتياقهم إلى اللحوم.

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن.

وفي أواخر القرن الحادي عشر عمَّت حركة من الإصلاح الذاتي بين طوائف من الرهبان الجدد أخذت على نفسها العمل بقواعد

---

(١) In Coulton From Francis, 70.

الأوغسطيين، والبندكتيين الصارمة بعد أن كانت الكنيسة نفسها أقسى مَن وجَّه النقد إلى آثام رجالها، وأُنشأت أديرة الرهبنة المنعزلة عن الناس، وسادت روح التقشف من جديد، وامتاز «السترسيُّون»[١] عن غيرهم من طوائف الرهبان «كالكرتوزيين»[٢] بنشاطهم الزراعي، وإنشائهم لمراكز جديدة لطائفتهم في الأصقاع غير المسكونة، وبلغت حركة الإصلاح ذروتها على يد القديس «برنار» السترسي (١٠٩١)، ورُفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان «برنار» الذين درَّبهم على يده إلى مراتب الأساقفة، ورؤساء الأساقفة في الوقت الذي رفض هو أن يكون أكثر من رئيس دير، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها، ولم يكن الناس يستمعون إلى حبرٍ من الأحبار باحترام وتقدير أكثر مما يستمعون إليه ويحترمونه.

وخلال القرن الثاني عشر بدأت حركة الإصلاح في الأديرة تضعف، إذ لم يكن بالمستطاع إيجاد أناسٍ يستطيعون الصبر على نظام الرهبنة الصارم، وأُثري أتباع «برنار» نفسه في «كليرفو» مع الأيام بما انهال عليهم من هدايا، وأموال استثمروها ودرَّت عليهم أرباحاً طائلة، وضعف إيمان الناس إثر إخفاق الحملات الصليبية على بيت المقدس، فقلَّ عدد الطلاب الجدد، وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان، خصوصاً وأنَّ أوروبا أصرَّت على التخبط في تيه الثروة، والعلم، والفلسفة الملحدة، والشك حول كل شيء، فتحلَّل

---

(١) نسبة إلى مكانٍ يُسمى «سيتو» قريب من «دَيجون» «Dijon».

(٢) نسبة إلى بقعة منعزلة تسمى «كارتريز» في جبال الألب بالقرب من غرينوبل «Grenoble».

الرهبان مرة أخرى ولم يعودوا محتفظين بذلك المستوى العالي من الزهد الخارج عن المعقول.

وفي عام ١١٨٢ ظهر القديس «فرانسس» في «أسيسي» «Assisi» وهو «جيوفني ـ ده ـ برنادون» فاعتزل وزهد وتقشَّف حتى تكوَّن له أتباع، واشتهر أيما شهرة، وبلغ عدد أعضاء الطائفة التي أنشأها خمسة آلاف عضوٍ عند وفاته، وكان الروحيون يقولون: إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع، ووافقهم على ذلك القديس «بونافنتورا» وصدَّق البابا «نقولاس» الثالث على هذا الرأي عام ١٢٧٩، غير أن البابا يوحنا الثاني والعشرين أعلن عام ١٣٢٣ أنه رأي خاطىء، ومن ذلك الحين اعتُبر الروحيون أعداء الدين، ومن الضالين، وقُمعت حركتهم.

وبعد مائة عام من وفاة «فرانسس» أحرقت محاكم التحقيق أتباعه على أعمدة التحريق.

ويلوم البعض القديس «دومنيك» الذي أسس جماعة سميت بالدمنيكيين بأنه مضطهد الضالين عن العقيدة المسيحية أو المطارد لهم لأنَّ أتباعه الدومنيكيين اضطلعوا في أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن دوماً يحمل رقة في القلب، ورأفة بغير التابعين لهم، وغير المؤمنين بعقائدهم من المسيحيين، والكفار.

وانتشر الدمنيكيون، والفرنسيسيون في كل مكان، وبصورة مسرفة ساروا، وسوء سيرة بين الرهبان.

وأحدث القديس «فرانسس» إنقلاباً كبيراً في نُظم أديرة النساء كما

أحدث في نظم أديرة الرجال، وأخذت أديرة النساء تنتشر في جميع أنحاء أوروبا بعد أن كان أول مَن أنشأت أول ديرٍ للنساء هي «اسكولاستيكا» توأمة القديس «بندكت» بالقرب من جبل «كسينو» حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين. وجمعت الراهبة «كلارا» حولها بعض النساء الصالحات اللاتي عشن معها عيشة فقيرة، يغزلن، وينسجن، ويعتنين بالمرضى، ويوزِّعنَ الصَّدقات، وماتت عام ١٢٥٣، وما لبثت بعد موتها أن ضُمَّت إلى القديسين، والقديسات.

وبعد، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة من الفساد الخُلقي المألوف، فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن، ووجدن متاعب في حياة التقى والصلاح، وكتب إيفو «Ivo» أُسقف تشارلز (١٠٣٥ ـ ١١١٥) يقول: إن راهبات دير القديسة «فارا» يحترفن الدعارة، ويرسم «أبلار» (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض الأديرة الفرنسية القائمة في أيامه، ووصف «إنوسنت» الثالث دير «Agatha»، بأنه ماخور انتشرت عدوى فساد الحياة فيه، وسوء سمعته في جميع أنحاء الإقليم المجاور»[1].

ويتحدث «Rigaud» أسقف رون (١٢٤٩) عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة، وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت ثمانٍ منهن يحترفن الفسق أو يشتبه في أنهن يحترفنه، «ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الخمر ليلة واحدة»[2].

---

(١) Lea. Celibacy 264.

(٢) Taylor, Medieval Mind. I, 492.

لقد كانت دساتير الأديرة في كثيرٍ من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشرة، وكانت خليقة بالخروج عليها، اللهم إلا بعض الراهبات اللاتي ربما استطعن تحملها، من أجل الإقتراب من الكمال المسيحي.

وقد تأثرت أخيلة الناس في العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ، والصور، والتماثيل، والحفلات من قوة، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، ولهذا ظهر الصوفيون، وامتلأت بهم المسيحية اليونانية، وكان القدِّيس «أوغسطين ينبوع التصوف الذي نهل منه الغرب، وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة، وبرز الصوفي «يواقيم الفلورائي» «Joachim of Flora» أو «غيوفني ـ دي ـ يواقيمي دي فيوري» الذي تاقت نفسه إلى الزهد، والتقشف، بعد أن ادَّعى ظهور هالة عظيمة له في يوم عيد القيامة، ملأته نوراً إلهياً فهم لوقته كل ما جاء في الكتاب المقدَّس، وآوى إلى صومعته، والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين، وبعث إلى البابا «إنوسنت» عام ١٢٠٠ بمجموعة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحي من الله، لينظر فيها ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت.

وصدَّق آلاف المسيحيين ومنهم ذوو مناصب عالية في الكنيسة، ما قاله «يواقيم» عن الوحي الذي يوحَى إليه، وعن حكم المسيح الذي يستمر ١٢٦٠ سنة، والإضطرابات، وفساد الكنيسة، والحرب، والفقر الذي يعقب ذلك، ليؤذَن بقيام طائفة جديدة من الرهبان فيما بعد تُطهِّر

الكنيسة، وتحقق طوبى عالمية من السلام والعدالة، والسعادة[1].

وظهرت في عام ١٢٥٤ مجموعة مؤلفات أهمها «الإنجيل الخالد» وعليه تعليق: إنَّ بابا من البابوات ملوثاً ببيع المناصب الكهنوتية سيكون خاتم العهد الثاني، وإنَّ الحاجة إلى العشاء الرباني، وإلى القساوسة تنتهي في العهد الثالث حين يسود الحب العالمي، وحرَّمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب لكنه ظلَّ يُتدَاول سراً، وكان له أثر بالغ في التفكير الصوفي، وتفكير الطوائف الضالة في إيطاليا وفرنسا من أيام «فرانسس» إلى أيام «دانتي» الذي جعل لـ«يواقيم» مكاناً في الجنة، وخُيِّل للناس وقتاً ما أن إيماناً جديداً سيغمر أوروبا بأجمعها متجاهلاً الكنيسة. وصارت المانيا أرض التصوف المحبوبة في بلاد الغرب، ففيها عاشت «هلديغارد البنجنية» «Hildegarde of Bingen» شاعرة وطبيبة، وقدّيسة، وكانت تراسل البابوات والملوك بنغمة صاحبة السلطان الملهم، وادَّعت أنها معاونة الذات العلية كما نشرت في بعض كتبها عن الرؤى الدينية.

وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهَم كان نقداً لاذعاً لثراء الكنيسة وفسادها.

وظهرت في بلاد المجر «ملهَمة» أخرى هي «إليصابات الثورنجيانية» إبنة الملك «أندرو» (١٢٠٧ ـ ١٢٣١) وكان ضعفها الجسمي، وإسرافها في زهدها يسببان لها إغماءاتٍ عدَّة و«إلهامات» من مختلف الأولياء المتوفين.

---

(١) «Lea, Inquistion Middle Ages, III, 10 - 17».

وعلت موجة التصوف في المانيا، وكان من متصوفيها مستر «إكهارت» «Meister Eckhart» الذي ولد حوالي عام ١٢٦٠ وحوكم وتوفي عام ١٣٢٧ بسبب آراءه الصوفية المتطرفة، وواصل تلميذاه «سوسو» و«تولر» دعوته إلى وحدة الوجود الصوفية، وكانت تقاليد التقوى التي يمارسها الصوفيون بمجملها تقاليد غير كنيسة، ومنها فاضت حركة الإصلاح الديني في أوروبا.

الزواج

كانت الكنيسة تحث على العِفَّة قبل الزواج لتساعد على الإحتفاظ بالوفاء بعده، وعلى حفظ النظام الإجتماعي، والصحة العامة.

وكانت المسيحية قد أفلحت في العصور القديمة المتأخرة في مهاجمة «داء الرجال» اللواط لكنه عاد إلى الظهور أثناء الحروب الصليبية، وعزلة الرهبان والراهبات.

وكتب «هنري» رئيس دير «كليرفو» عن فرنسا عام ١١٧٧ يقول: «إنَّ سدوم القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها».

واتهم «فيليب» الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم.

ويصف «وليام المالمزبري» «William of Molmsbury» أشراف النورمان بانهماكهم في البطنة والدعارة، «وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين في جميع أنحاء العالم المسيحي، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص، وكان أولاد الزنى أبطال عددٍ من هذه القصص . . .»[١].

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت، فقد كان بعض النساء

---

(١) قصة الحضارة: مجلد: ١٥ ـ ١٦ ـ ص: ١٨٠ من القسم الثاني.

الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ـ كما يقول الأسقف «بنيفاس» ببيع أجسادهن في المدن القائمة في طريقهن.

ويحدثنا «ألبرت» من أهل «إيكس» «Aix» فيقول:

«إن الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء في ثياب الرجال، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم، ويغتنمن الفرصة التي تتاح لهن مع الرجال».

ويقول: «غرانفيل» إنَّ الأشراف الذين كانوا مع القديس «لويس» في حربه الصليبية أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك».

وكتب القديس «أوغسطين، يقول: «إذا مُنعت العاهرات والمواخير، اضطربت الدنيا من شدة الشبق»[١]. ووافقه على ذلك القديس توماس أكويناس»[٢].

وكان في لندن في القرن الثاني عشر، صف من المواخير بالقرب من جسر لندن، وقد أجاز أسقف «ونشستر» أول الأمر قيامها، ثم صدَّق البرلمان على قيامها بعد ذلك.

وكان في «رومة» كما يقول الأسقف «دوران الثاني المندي» «Bishop Durand II of Mende». (١٣١١) مواخير بالقرب من الفاتيكان، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور. وكانت الكنيسة تُظهر العطف على العاهرات، وأقامت ملاجىء للتائبات من النساء، وَوُزِّعت على الفقيرات الصدقات التي كانت تتلقاها من العاشقات التائبات

---

(١) Vacandard, 77.

(٢) Lea, Inquisition in Middle Ages, I, 103.

وكانت الكنيسة تريد أن تحمي النساء بذلك، وتمنع من الفسق، وتحذِّر منه، وحثَّت على الزواج إلا أنها حرَّمته قبل الخامسة عشرة للبنات، ولكنها كانت تسمح بكثيرٍ من الإستثناءات.

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدَّان الزواج صحيحاً إذا تمَّ بناءً على تبادل عهدٍ شفوي بين الطرفين ولو لم يصحبه أيَّ احتفالٍ قانوني أو كنسي لتحمي الكنيسة النساء بذلك من أن يهجرهن من يغوينهن، أو يحصل الفسق أو التسري، ولكنها كانت بعد القرن الثاني عشر تنكر شرعية الزواج الذي يتم دون مصادقة الكنيسة، وأخذت بعد مجلس «ترنت» (١٥٦٣) تفرض لزوم حضور قس لشرعيته، وجعلت من أمر الزواج أمراً، وميثاقاً مقدَّساً يقع بين الرجل والمرأة والله، وكان يجب ألَّا يكون كلا الزوجين مرتبطين بزواج سابقٍ أو بنذرٍ نذره أحدهما بأن يظل بلا زواج، وكان الزواج ممن لم يُعَمَّد محرَّماً، ويجب ألَّا يكون بين الطرفين صلة قرابة تصل إلى الدرجة الرابعة، أي يجب ألَّا يكون لهما جد مشترك في خلال أربعة أجيال، ولا يصبح الزواج صحيحاً حتى يتم اتصال الزوجين، وكان استخدام وسائل منع الحمل محرَّماً، وكان أكثر ما يُعتمد عليه هو وقف الجماع، وكان عقاب الزنا قاسياً، فالمرأة التي تخون زوجها يُجدَع أنفها، وتُصلم أُذنيها، وفقاً للقانون السكسوني، وأجاز لزوجها قتلها، ولكن الزنا كان منتشراً رغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها»(١).

وكانت الكنيسة تُجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا أو الإرتداد عن

(١) Lea, 554.

الدين أو القسوة الشديدة، ولكن لم يكن معناه إبطال الزواج لأن إبطاله لا يُمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد النصوص والموانع التي ينص عليها قانون الكنيسة، وكان القانون الألماني يجيز الطلاق في حالة الزنا، وإذا كان ـ في بعض الأحيان ـ قد اتفق عليه الطرفان[1].

وكان سادة الإقطاع وسيداته يُطَلِّقون بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة وفقاً للقوانين القديمة.

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها، وقد خلق الله الرجل لا المرأة على صورته، وكانت الكنيسة تحتم على الزوج ألَّا يتزوج بأكثر من واحدة.

---

(١) Ibid. 63.

أزمة الكنيسة

أعاد غريغوري الحادي عشر البابوية إلى رومة، وكان المجمع الذي انعقد لاختيار مَن يخلفه مؤلفاً من ستة عشر كاردينالاً، لم يكن منهم إيطاليون غير أربعة فقط، فقدم إليهم ولاة الأمور في مدينة رومة طلباً أو عرضاً باختيار رجلٍ من أهل رومة أو أن يكون إيطالياً على الأقل، وإلا قتلوا جميع الكرادلة غير الإيطاليين، فارتاع المجمع المقدَّس وأسرع باختيار «بارتولميو برنيانو» (١٣٧٨) كبير أساقفة «باري» وتسمَّى باسم «إربان السادس».

وحكم «إربان» السادس المدينة والكنيسة باستبدادٍ، وعنف، وروَّع الكرادلة بعزمه على إصلاح الكنيسة، وندَّد بهم بعظةٍ عامة ألقاها، بيّن فيها فساد أخلاقهم، وأخلاق كبار رجال الدين بحضورهم، ولم يترك نقيصة إلا ورماهم بها.

وأصمَّ «إربان» أذنه عن سماع أيّ نداء للتهدئة، وأعلن عن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين يكونون هم الأكثرية في مجلس الكرادلة.

وفي آب ١٣٧٩ أصدر الكرادلة الفرنسيون بياناً أعلنوا فيه عن أن انتخاب «إربان» باطل لأنه تمَّ تحت ضغط غوغاء رومة، وانضم إليهم الكرادلة الإيطاليون، وأعلن المجمع كله في عشرين أيلول أنَّ «روبرت الجنيفي» هو البابا الحق، واتخذ «روبرت» مقامه في «أفنيون، وتسَمَّى باسم «كلمنت السابع» أمَّا «إربان» فقد تمسك بمنصبه الديني الأعلى وظل مقيماً في رومة، وحَذَت نابلي، وإسبانيا، واسكتلنده حذو فرنسا، ولكن انكلترا، وفلاندرز، وألمانيا، وبولندة، وبوهيميا، وهنغاريا، والبرتغال، رضيت بـ«إربان» وأصبحت الكنيسة ألعوبة في أيدي المعسكَرَين المتنافسَيْن، وادَّعت كلتا الطائفتين أنَّ أعمال الطائفة الأخرى من القربان المقدَّس، والتعميد، والموتى الذين تمسحهم، واعترافات التائبين كلها باطلة، ولمَّا أن ائتمر كثير من كرادلة «إربان» الجدد على قتله، قبض على سبعة منهم وعذَّبهم ثم أعدمهم (١٣٨٥).

ولمَّا مات (١٣٨٩) اختار كرادلته الأربعة عشر «بيروتوماتشيلي، وتسَمَّى بعد اختياره بـ «يونيفاس التاسع»، ولمَّا مات «كلمنت السابع» (١٣٩٤) رشَّح كرادلة «أفنيون» «بيارو ـ ده ـ لونا» ليكون هو بندكت الثالث عشر.

وشبَّت نار الفتنة من جديد عندما مات «يونيفاس» واختير «إنوسنت» السابع لمنصب البابوية (١٤٠٤) وظلت نار الفتنة مشتعلة بغوغائها في الشارع إلى أن استتبت الأوضاع في الشارع وعاد «إنوسنت» إلى رومة بعد فراره إلى «فتيربو» وهدوء الفتنة، ومات فيها بعد أيام قليلة من عودته (١٤٠٦).

ودعا خَلَفُهُ «غريغوري» «Gregory» الثاني عشر «بندكت» الثالث عشر إلى الإجتماع به في مؤتمر، فعرض عليه «بندكت» الإستقالة معاً، فعارض جماعة «غريغوري» ذلك، وحث ملك فرنسا مرة أخرى «بندكت» على الإستقالة فلما رفض أعلنت فرنسا عدم ولائها له، ولما تخلى كرادلة «بندكت» عنه فرَّ إلى إسبانيا، وانضم هؤلاء الكرادلة إلى الكرادلة الذين تخلوا عن «غريغوري» ودعوا إلى مؤتمر يُعقد في «بيِّزا» في الخامس والعشرين من شهر آذار عام ١٤٠٩.

وعُقد مجلس «بيزا» واجتمع الكرادلة، والبطارقة، والأساقفة، ورؤساء الأديرة ورؤساء طوائف الرهبان، ومندبون عن الجامعات الكبيرة، ورجال القانون الكنسي، جميع الحكومات الأوروبية باستثناء هنغاريا، ونابلي، وإسبانيا، واسكنديناوه، واسكتلنده، وهي دعوة أغفلت الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية والروسية، وتمَّ خلع «بندكت» و«غريغوري» وتعيين «ميلان» بابا بإسم اسكندر الخامس (١٤٠٩). لكنه سرعان ما مات (١٤١٠) ولم يساعد موته على إصلاح ذات البين، ودرأ المشاكل والخلافات، واختار كرادلته خلفاً له «يوحنا» الثالث والعشرين.

وما كاد المجلس يضع جدول أعماله حتى فوجىء بانسحاب البابا الذي دعاه إلى الإنعقاد لمَّا علم أنَّ أعداءه كانوا يستعدون لفضحه في المجلس لما يعلمون من تاريخ حياته من جرائم، وابتذال، وفرَّ على حين غفلة من «كنستانس»، متخفياً في زي سائس (٢٠ آذار ١٤١٥).

وظلت الخلافات تتوالى تعقيداً وحَلّاً إلى أن اختير الكردينال

«أورني كوكونا» لمنصب البابوية وتسمَّى باسم البابا «مارتن الخامس» وارتضاه العالم المسيحي بعد فوضى دامت تسعاً وثلاثين سنة.

ولمَّا اقترب الأتراك العثمانيون من القسطنطينية أحسَّ البيزنطيون بالخطر، وشعروا بلزوم اتحاد الكنيستين اليونانية والرومانية المنقسمتين منذ عام ١٠٥٤ تمهيداً للحصول على معونة عسكرية من الغرب، فَعُقِد مجلس «بازل» ولكنه كان مليئاً بالغضب المتزايد، وظلَّت الخلافات حول حقوق البابا في الرياسة، واستعمال الخبز الفطير، وطبيعة الآلام التي تعاني في المطهر، وانتقال الروح القدس من الآب والإبن أو إليه، ظلَّت كلها عالقة، يجادلون فيها ثمانية أشهر دون الوصول إلى أيّ اتفاقٍ حولها.

وفي عام ١٤٣٩ تمَّ الإتفاق على صيغة يقبلها اليونان، وهي أنَّ: الروح القدس يصدر من الآب عن طريق الإبن، وهي تعني بالصيغة الرومانية تماماً أنه «يصدر من الآب والإبن» وتمَّ الإتفاق كذلك على طبيعة آلام المطهر.

وحُلَّت المشاكل الأخرى المتعلقة برياسة البابا، وقُرأ المرسوم الذي وحَّد الكنيستين في الكتدرائية الكبرى في اليوم السادس من شهر تموز ١٤٣٩.

لكن هذا الإتحاد لم يدم طويلاً، إذ لمَّا عاد الإمبراطور اليوناني وحاشيته إلى القسطنطينية، قوبلوا بالإهانات والشتائم ولم يرتضِ رجال الدين، والشعب الخضوع إلى سلطة روما، وحافظ «يوجنيوس» على نصيبه في الإتفاق الموحَّد، وأُرسل الكردينال «سيزاريني» إلى بلاد

المجر على رأس جيشٍ للإنضمام إلى قوات «لادسلاس» و«هنيادي» لقتال الأتراك، ووقعت المعركة، وانتصرت تلك القوات على الأتراك عند «نيش» «Nish» ودخلت مدينة «صوفيا» ظافرة في مساء يوم عيد الميلاد عام ١٤٤٣، إلا أن هذا النصر لم يكتمل؛ إذ إنَّ السلطان «مراد الثاني» بدَّد شملها في «وارنه» عام ١٤٤٤ الأمر الذي مهَّد السبيل للسلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح، الذي فتح القسطنطينية واتخذها عاصمة للدولة التركية (١٤٥٣) ومنح المسيحيين الحرية التامة في العبادة، وعيَّن «جناديوس» وهو من ألد أعداء الوحدة بطريقاً في القسطنطينية.

وعاد «يوجنيوس» إلى رومة عام ١٤٤٣، بعد أن قضى مبعوثه والكاردينال «فيتليسكي» على الجمهورية المضطربة، وعلى أسرة «كولنا» المشاكسة بوحشية لا تضارعها وحشية «الوندال» أو «القوط» وجاء بالراهب «أنجيلكو» إلى رومة لنقش المَظْلُمَات في معبد القدَّاس في قصر الفاتيكان، وعهد إلى «فيلاريتي» أن يصب أبواباً برنزية كبرى لكنيسة القديس بطرس القديمة (١٤٣٣) كالتي شاهدوها في كنيسة فلورنس أثناء مقامه هناك، وكلَّف بوضع تماثيل المسيح، ومريم، والرسل على أبوابها، وأضاف إليها صور المريخ، وورومة، وهيرون، وليآندر، وجوبتر، وجنميد، وليدا، والبجعة، ولم يُثر عمله هذا آنذاك أيَّ تعليق. «وهكذا جاء «بوجنيوس» في ساعة انتصاره على مجلس «بازل» بالنهضة الوثنية إلى رومة»[١].

---

(١) قصة الحضارة، مجلد: ١٩ ـ ٢٠ـ ص: ٢٣ من القسم الثاني.

وواجه البابوات في رومة بوصفهم قوة روحية، مشكلة التوفيق بين النزعة الأدبية الإنسانية وبين المسيحية، إذ كانت الكنيسة قد أخذت على عاتقها اجتثاث أصول الوثنية، وكانت شجَّعت على تدمير الهياكل، والتماثيل الوثنية أو أباحت هذا التدمير، لكنها رغم ذلك، فقد احتضنت النزعة الإنسانية تلك في أيام «نقولاس الخامس» وانحازت إلى جانب الفن الجديد متيحة لعقل إيطاليا قدراً عظيماً من الحرية الفنية التصويرية، النحتية. والآن وقد امتلأت خزائن «نقولاس الخامس» (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) بإيرادات البابوية، فقد شرع يبعث العمال إلى أثينا والقسطنطينية للبحث عن المخطوطات اليونانية واللاتينية، وثنية كانت أو مسيحية ليشتروها أو ينسخوها، وأجاب بعضهم لطلبه، وأجاب بعضهم من تلقاء نفسه، ونظم المكتبة البابوية، وجلب إليها آلاف الكتب المسيحية والمخطوطات حتى بلغ عددها أخيراً ٨٢٤ مخطوطة لاتينية و٣٥٢ مخطوطة يونانية، وجدَّد بناء الكنائس، والجسور، والميادين العامة، وجمع الأموال، والتبرعات، وجاءت الهدايا من الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي اللاتيني بشكلٍ لم يسبق له مثيل.

واشتد تذمّر البلاد الواقعة وراء جبال الألب من انصباب الذهب على إيطاليا، وأمام هذا الرخاء الطارىء، حيكت مؤامرة لإغتيال «نقولاس» بزعامة «استفانو بوركارو» الذي نادى بـ«روما» جمهورية مع جماعة من أهل المدينة، إلا أنها فشلت بعد علم البابا بالأمر، وإلقاء القبض عليه، وقُطع رأسه في اليوم التاسع من كانون الثاني ١٤٥٢. وندَّد الكُتَّاب الإنسانيون بالمؤامرة، وعدُّوها خيانة مروعة للبابا الخيّر

الصالح، وتبدَّلت الحال لمَّا تبيَّن أنَّ قسماً كبيراً من أهل المدينة يرونه طاغية مهما تكن فعالة خيّرة، وأخذ ينحدر انحداراً سريعاً نحو الشيخوخة، والمرض ولمَّا جاءته الأنباء بأنَّ الأتراك استولوا على القسطنطينية على خمسين ألف جثة من المدافعين عنها، وأنهم اتخذوا كنيسة «أيا صوفيا» مسجداً (١٤٥٣) أهاب بالدول الأوروبية أن تضم صفوفها لتقوم بحملة صليبية تستعيد بها حصن المسيحية الشرقية الحصين لكن أوروبا أصمَّت أُذنيها عن سماع النداء، واعتبر الناس أن الأموال التي جمعها البابوات السابقون لتمويل حروبٍ صليبية استخدمت في أغراضٍ أُخرى.

وأحنى «نقولاس» رأسه أمام الحقيقة الواقعة، وأنهكته المساعي الدبلوماسية غير المجدية، وتوفي عام ١٤٥٥ في الثامنة والخمسين من عمره.

بعد موت «نقولاس» تمَّ اختيار «كَلَكْستِس» الثالث (١٤٥٥ ـ ١٤٦٨) باباً جديداً لكن عهده بدأ بمحاباة الأقارب «وهي الخطة التي اتبعها البابوات، واحداً بعد واحد فوهبوا المناصب البابوية لأبناء أخوتهم، وأخواتهم وغيرهم من أقاربهم، وكانوا في كثيرٍ من الأحيان أبناء البابا نفسه»[1] وأخذ الأعيان والجمهوريون في رومة يحيكون المؤامرات ضده، وأجهض «كلتكستس» كثيراً من المحاولات، وأنهك نفسه بمحاولته غير المجدية لإثارة أوروبا والإهابة بها لمقاومة الأتراك.

ولمَّا مات احتفلت رومة بانتهاء حكم البرابرة لها، وعُيِّن مكانه من

---

(١) قصة الحضارة، مجلد: ١٩ ـ ٢٠ ـ ص: ٤٢ من القسم الثاني.

قِبل كرادلة روما «إنيا سلفيو ـ ده ـ بكولوميني» المعروف بـ«بيوس الثاني» (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) الذي كان معروفاً بالعفَّة، والطهارة، والتقى، وأصبح باباً نموذجياً، ساعياً إلى إصلاح الكنيسة، محتفظاً بأموال البابوية ليجهز بها حملة صليبية على الأتراك.

وأخفقت بعثته إلى المانيا لتحصيل العشور لتمويل حملة صليبية في الوقت الذي أخذت فيه مراجل الثورة على الكنيسة الرومانية تغلي في المانيا، مع صعوباتٍ في بوهيميا، وفرنسا، لذلك قنع بأن يلوم الكرادلة على حياتهم الشهوانية، وسعيهم وراء الثروة، واللذة، وحب الدنيا، وأصدر في عام ١٤٦٣ آخر نداءٍ للكرادلة قال فيه: «. . . وإذا شئتم الحقيقة قلت لكم إنَّ الترف، والأبهة الكاذبة زادا في بلاطنا عن الحد؛ وهذا هو الذي جعل الناس يمقتوننا مقتاً يمنعهم من أن يستمعوا لنا، حتى حين ننطق بما هو حق ومعقول. وماذا تظنون أنَّنا فاعلون في مثل هذه الحال التي تجللنا فيها العار. . .»[١].

وتجهَّز للقيام بحملة صليبية يقودها بنفسه، وأقلع بأسطوله إلى أنكونا (١٨ حزيران ١٤٦٤) ولمَّا وصل إليها وجد أن معظم الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا فيها قد غادروها سأماً من الإنتظار ويأساً من الحصول على الطعام، وفشا الطاعون في أسطول البندقية واشتدت عليه علته وهو ينتظر انضمام الأسطولين البابوي والبندقي إليه، ولمَّا اقترب الأسطولان المتحدان بحيث يمكن أن تراهما العين توفي البابا (١٤ آب ١٤٦٤) واستعادت «البندقية» أسطولها، وتفرق مَن كان باقياً من

---

(١) Symonds, 125.

الجند، وأخفقت حملته الصليبية. واختير بولس الثاني (١٤٦٤ ـ ١٤٧١) باباً لروما ولما تمَّ له الأمر نبذ كل ما أخذه على نفسه من مواثيق، وانغمس في الثراء، وكان يلبس تاجاً بابوياً تزيد قيمته على قيمة قصرٍ من القصور، ويشغل أوقات الصائغين بصنع الجواهر والحلي المنقوشة. وقد جمع هذه كلها مع مخلَّفات الفن القديم غالية الثمن في قصر «سان ماركو» الفخم الذي بناه لنفسه عند قاعدة الكابيتول.

وشر ما يذكره عنه الخَلْق هو نزاعه مع الإنسانيين الرومان الذين كان يتزعمّهم في رومة «يوليو بُمبُونيو ليتو» الذي كان يلقي محاضراتٍ يحتقر فيها الدين المسيحي ويدعو إلى عباده عبقرية رومة وحضارتها، ويدرب تلاميذه على آداب الرواقيين لا على آداب المسيحيين، بهدف إعادة الجمهورية الرومانية.

وخلف «بولس» الثاني «سكستس» الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤) وكانت تحيط به الفوضى من كل جانب، وكان قليل الثقة بالغرباء، شديد التأثر بصلات القربى، لذا حبا أبناء إخوته الجشعين بمناصب تدر عليهم المال والسلطان، وموَّل حروبه ببيع المناصب الكهنوتية لمن يدفع لها أغلى الثمن، وكان له نصيب في انحلال إيطاليا الأخلاقي لأنه استجاب لدواعي هذا الإنحلال عدا عن القصف الفاحش الذي كان سُنَّة يجري عليها أقارب البابا. وبعد وفاته انْتُخب «جيوفني باتستا تشيبو» الجنوي وتسمَّى باسم «إنوسنت» الثامن، وجرى على السُّنَّة التي جرى عليها «سكستس» الرابع، ومعظم حكام أوروبا، فملأ خزائنه بالأموال التي كان يتقاضاها من طُلاب المناصب الكبيرة، ولم يكن

القساوسة في وقته مبرئين من الشكوك الدينية، من ذلك أن أحدهم اتُّهم بأنه استبدل عبارة التجسد الواردة في القداس بعبارة أخرى من عنده تقول: «أيها المسيحيون البلهاء، يا مَن تعبدون الطعام والشراب وتتخذونهما إلهين من دون الله»(١).

وقبيل موت «إنوسنت» الثامن أوصى بثمانية وأربعين ألف دوقة (٦٠٠.٠٠٠ دولار) ومات ودُفن في كنيسة القديس «بطرس» بضريحٍ فخم. ولمَّا ولي الكاردينال «بورجيا» (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) سُئل بأي إسم يريد أن يُسمّي نفسه به وهو بابا، فأجاب: «بإسم الإسكندر الذي لا يقهر» وكانت هذه بداية وثنية لولاية دينية وثنية، وكانت المناصب الإدارية التي تولاها خلال حكم خمسة من البابوات قد جعلته أغنى الكرادلة الذين شهدتهم رومة إذا استثنينا «دستوفيل» من هذا التعميم.

وتُوِّج بعده «إسكندر» السادس أفخم تتويجٍ بابوي، ولامته رومة لوماً خفيفاً على مغامرات حبه، ولوماً عنيفاً على سعيه لتوفيرالثراء لأبنائه، وحقدت عليه لتعيينه في مناصب الدولة حشداً كبيراً من الأسبان كونهم أجانب من غير الإيطاليين. وقضى لحاجته إلى المال بكثيرٍ من الأحكام المخالفة لقوانين الكنيسة، وباع المناصب، واستغل عيد سنة ١٥٠٠ أتمَّ استغلال، وأخذ يُرجىء الإصلاح من يوم إلى يوم ثم نسيه آخر الأمر وسط الإنتصارات المثيرة التي نالها، حتى ولد له ولد يفتخر به وقد أصبح الآن أكبر أبنائه.

وما من شكٍ أنه (سيزارى بورجيا) إبن الإسكندر السادس لم يُخلق

---

(١) Creighton, III, 153; Cambridge Modern History, I, 225.

ليكون رجل دين ولكن الإسكندر الذي كانت له أسقفيات تحت تصرفه عيَّنه كبيراً لأساقفة «بلنسية» (١٤٩٢) ثم كردينالاً (١٤٩٣) ولم يكن أحد من الناس يرى أن هذه مناصب دينية بحق، بل كانت في نظرهم مجرد وسائل تدر دخلاً على الشبان الذين لهم أقارب ذوو نفوذ، والذين يُستطاع تدريبهم لتصريف شؤون أملاك الكنيسة، والإشراف على موظفيها.

ولم يكن هناك وسيلة لتخلي «سيزارى» عن منصبه الكنسي الكاردينالي إلا باعتراف الإسكندر صراحة أمام الكرادلة بأنه إبن غير شرعي له، الأمر الذي أتاح لـ«سيزارى» تتويجه ملكاً من الملوك عندما سافر إلى «نابلي» عام ١٤٩٧ مندوباً من قِبل البابا، وأعقبه ـ بعد إعلان البنوَّة غير الشرعية إعلان أن تعيين هذا الشاب النغل كردينالاً مخالف للقانون (١٧ آب عام ١٤٩٨).

وعرض ملك فرنسا «لويس الثاني عشر» على «سيزاري» يد «شارلوت دالبرت» أخت ملك «نبره» الحسناء، الثرية، فتزوجها في شهر أيار عام ١٤٩٩ وتسمَّى هذا الدوق الجديد بإسم «فلنتينو» ووجد الإسكندر أخيراً في هذا الشاب الجريء، القائد الذي ظلَّ يبحث عنه زمناً طويلاً ليقود قوات الكنيسة المسلحة، ويستعيد بها الولايات البابوية، وأمدَّه «لويس» بالسلاح والجند، وزحف «سيزارى» على رأس جيشٍ في شهر تشرين الأول عام ١٥٠٠ لإسترداد ولايات الكنيسة التي يحكمها الإقطاع المغتصبين لأراضيها، فحرَّرها وقضى على المتآمرين ضده والخونة، وبسط سلطانه على رومة كحاكمٍ لها، وتُروى عن

«سيزارى» قصص شر، ومكر، وخداع، وتسلية قتل ونحوها، وأن آل بورجيا في حالة أو حالتين قد سمَّمُوا بعض الكرادلة الأغنياء، وأحبَّ «سيزارى» أخته «لكريدسيا» حبّاً جمّاً، وكذا والدها حتى أنَّ الفكهين من أهل «نابلي» المعادين، كانوا يتهمونها على الدوام بمضاجعة أبيها وأخيها، في حين وصفها أحد الكتاب ذلك الوصف الجامح بأنها إبنة البابا، وزوجته، وزوجة إبنه»[١].

وأمضى الإسكندر البابا الأسباني الأصل، وولده غير الشرعي حياة سعيدة، مطمئنة، وتزوجت ابنته من أسرة من الأدواق بعد قَتلِ «ألفنسو» زوجها الذي من المرَّجح أن يكون «سيزارى» قد قتله ليزوجها زواجاً أكثر نفعاً من الناحية السياسية. وحدث في الخامس من شهر آب من عام ١٥٠٣ أن كان الإسكندر، وسيزارى، وجماعة آخرين معهم يتناولون العشاء في الهواء الطلق في بيت الكاردينال «أدريانو داكرنيتو» الخلوى غير البعيدة عن الفاتيكان، فلمَّا كان اليوم الحادي عشر أُصيب الكاردينال بحمَّى شديدة دامت ثلاثة أيام ثم زالت، وفي اليوم الثاني عشر أصيب الإسكندر البابا، و«سيزار» بحمَّى وقيء اضطرا على أثرها بملازمة الفراش، وتحدثت رومة كعادتها عن السم، وأن الضيوف كلهم تقريباً أكلوا خطأ من الطعام المسموم، لكن الأطباء ادَّعوا أن الحمَّى سببها عدوى من الملاريا سببها طول التعرض لهواء الليل في رومة في منتصف الصيف، وظل الإسكندر ثلاثة عشر يوماً بين الحياة والموت، وتوفي في الثامن عشر من آب عام ١٥٠١ وقد بلغ سن

(١) Carwright, Isabella, I, 205.

السبعين، وما لبث أن أصبحت جثته سوداءة اللون كريهة الرائحة، تؤيد زعم مَن يشيعون أنه ماتَ مسموماً.

«وابتهج أهل رومة لموت البابا الأسباني، وانتشر الشغب في المدينة، «وتجمعوا بسرعة لا يكاد يصدقها إنسان، متزاحمين حول جثة البابا في كنيسة القديس بطرس، ولم يكن في مقدورهم أن يشبعوا عيونهم من منظر ذلك الأفعوان الهالك الذي طمس على قلوب العالم كله، وأعمى بصائره بمطامعه التي تجاوزت كل حد، وغدره البغيض، وما ارتكبه من أعمال القسوة الرهيبة التي لا يُحصى لها عدد، وفجوره الوحشي، وعرضه للبيع كل ما هو مقدَّس وغير مقدَّس دون تفرقة بين هذا وذاك»(١).

أمَّا «سيزارى بورجيا» فقد شفي شفاءً بطيئاً، وأصرَّ الكرادلة على إجلاء جنود «سيزارى» وآل أرسيني، وكولنا عن رومة كي يستطيعوا أن يختاروا البابا الجديد في جو خالٍ من الإرهاب، ووافق الأطراف الثلاثة على ذلك، واختير في مجمع الكرادلة الكاردينال «فرانتشيسكو بكولوميني» (١٥٠٣) وتسمَّى بإسم «بيوس» الثالث وكان وقتئذٍ في الرابعة والستين من عمره وكان مصاباً بخرَّاج في ساقه إلا أنه مات في الثامن عشر من شهر أكتوبر، وكان من أصدقاء «سيزارى».

واختير بعده في ٣١ تشرين الأول عام ١٥٠٣ «جوليونو ـ دلا ـ روفيرى ـ باباً، واتخذ لنفسه إسم «يوليوس» الثاني كأنه يريد أن يكون قيصراً، وأن يفوق الإسكندر، وأمر «يوليوس» «سيزارى» بالتوجه إلى

---

(١) «Guisciardni» III, 228 غوتشيارديني.

«إمولا» وتجييش جيشٍ جديد لحماية الولايات البابوية، فلبى الطلب، وبينا هو في «بيزا» جاءته رسالة من البابا أيضاً تأمره بأن يُسلم ما في يديه من حصون رومانيا فرفض، ولمَّا عاد إلى رومة، وانصاع لأوامر البابا بالعودة، أُلقي القبض عليه في منزله، وأُطلق سراحه بعد أن طلب من مؤيديه في رومانيا تسليم الحصبون للبابا، وفر «سيزارى» إلى «نابلي»، وقبض عليه هناك جند «سالو ـ ده ـ كردوبا» بأمر من «فرديناند» ملك إسبانيا، وإيعازٍ من البابا، وظل يعاني من مرارة السجن عامين كاملين، ودبّرت له زوجته خطة للهروب من السجن، ونجحت، وتولى «سيزارى» قيادة جزء من جيش «جان دالبرت» أخو زوجته، وملك «نبره» وهاجم به حصن الكونت «لرين» في «فيانا» وخرج الكونت على رأس الحامية من الحصن، والتقيا في معركة انهزم فيها «الكونت» لكن المدد جاء إلى الكونت، وفرَّ جنود «سيزارى» القلائل، ولم يثبت إلا هو نفسه ورفيق له واحد، وقاتل حتى قُتل (١٢ آذار ١٥٠٧) وهو في سن الحادية والثلاثين.

وتخلَّصت البابوية منه، وارتكب البابا «يوليوس الثاني (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) من أول الأمر خطأ بأن استعان بفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، على أعدائه الإيطاليين لأجل استعادة السيطرة على ولايات الكنيسة التي تصدعت، واضطربت، فأمدته فرنسا بإمدادات صغيرة، وفي عام ١٥٠٦ خرج البابا على رأس قوة صغيرة بنفسه ودخل «بروجيا» دون قتال، ثم خرج منها إلى «بولونيا» التي كانت هدفه الحقيقي، وانقض عليها من الشرق بينا كان الفرنسيون يهاجمونها من الغرب، ودخل

يوليوس المدينة في هودجٍ محمولٍ على الأكتاف وحيَّاه أهلها تحية المحرر لهم من الظلم والإستبداد (١١ تشرين الثاني ١٥٠٦) وعاد إلى رومة يسير في شوارعها بعربة النصر ويُحيًّا تحية قيصرالمنتصر. وجازف «يوليوس» بإيطاليا في سبيل الإستيلاء على رومانيا، فاستنجد بفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا لإخضاع البندقية ملكة البحر «الأدرياوي» فأنجدوه وكان له ما أراد، وكُتب له النصر، وردَّت البندقية المدن المحتلة إلى الكنيسة، وقبلت أشد الشروط إذلالاً لها، ورغم الإنتصارات التي حققها «يوليوس» في سبيل استرداد ولايات الكنيسة، وكسب معركته مع الأساقفة الذين عارضوا سياسته فإنه لم يكن يحسن حكم الولايات التي استردها إذ بقيت الولايات البابوية موالية للكنيسة إلى أن قضت ثورة عام ١٨٧٠ على سلطة البابوات الزمنية، وقد شهَّر به «غوتشيارديني» لأنه: «جاء إلى الكرسي الرسولي بدولة استخدم فيها قوة السلاح، وسفك فيها دماء المسيحيين، بدل أن يعنى بضرب المثل للناس في الحياة الصالحة»[١].

(١) Guisciardini, V, 90 «غوتشياردين».

مزعجو الكنيسة

فرَّ «بطرس أبلار» من منصبه العالي في رياسة الدير في «فرنسا» ثائراً على آراء الكنيسة، معتبراً ألَّا أسرار في الدين، وأن العقائد يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل، ومن اليسير أن تجد في كتابه عن فلسفة الأخلاق «إعرف نفسك» فقراتٍ تثير غضب رجال الدين.

وكان ثمة معلمون غيره «وليام الكنشسي» «William of Conches» و«غلبرت ـ ده ـ لابريه» «Gilbert de La Porree» و«برنغر الشوري» «Berenger of Tours» وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل.

لقد كان «أبلار» شبيهاً بـ«أريوس» حين يتحدث عن التثليث الذي يقول عنه: أنه القدرة، والحكمة، والحب، التي هي من صفات الإله الواحد، وشبيهاً بـ«نسطوريوس» حين يتحدث عن شخص المسيح.

وسافر «أبلار» إلى رومة ليعرض قضيته على البابا ليحكم هو نفسه عليه من خلال المجلس الذي سينعقد لأجله، ولمَّا وصل إلى دير «كلوني» في «برغنديه» استراح في الدير، وفي هذه الأثناء أصدر «أنوسنت» الثاني قراراً بالتصديق على حكم المجلس الذي قرر إدانته،

وحجزه في أحد الأديرة، وصار راهباً في دير «كلوني» وظلَّ مترهبناً فيه حتى اختفى في ظلام أسواره، وأصابه المرض، ومات وهو في السادسة والثلاثين من عمره في نيسان ١١٤٢ ودُفن في كنيسة الدير.

وحوالي عام ١٢١٤ ولد أشهر علماء العصور الوسطى «روجر بيكون» الذي كتب في الطبيعيات، والفلسفة، والدين، والأخلاق وغير ذلك من العلوم، ووضع آراءً، وأفكاراً منهجية عن الدين والأخلاق تصبُّ في صالح الدين المسيحي، حيث كان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم، واللغات، والفلسفة ليمكنها من أن تحكم العالم روحياً خيراً من حكمها الحاضر لكن البابوات لم يستجيبوا له وإلى دعواته المتكررة التي أظلمت روحه وأمرَّت قلمه، ذلك أنه في كتابه «موجز الدراسات الفلسفية» ألهب بسوطه جميع نواحي الحياة في القرن الثالث عشر من اضطراب نظام المحاكم البابوية، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة، وجهل رجال الدين، وفساد أخلاق طلاب العلم، وتسربل البلاط البابوي كله بالفجور والعار، وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تقوم به سائر الأعضاء؟ فلننظر إلى كبار رجال الدين كيف يسعون وراء المال، ويهملون العناية بالروح... انظروا في أية هاوية تردوا.. وها هم أولاء «الرهبان الإخوان» الجدد قد فسدوا فساداً مروعاً وتخلوا عن تقواهم الأولى.

وملاك القول: إنَّ هجومه هذا، ربما كان تنفيساً لغضبه عن إخفاق أحلامه النبيلة، لكن الذي يُذكر أنَّ جيروم «الأسكولي» «Jerome of Ascoli» رئيس الرهبان الفرنسيس ـ عملاً بمشورة كثيرين من «الرهبان

الإخوان» ـ عارض، واستقبح تعاليم الأخ «روجر بيكن» مُدرٍّ علم اللاهوت المقدَّس، لأنها تحتوي على بِدَعٍ تثير الشك، ومن أجل ذلك حُكم على «روجر» المذكور بالسجن»[1].

ولـمَّا أنْ مات دُفن في كنيسة «غريسي فريرز» «Grecy Friars» (كنيسة الرهبان الفرنسيس) في «أُكسفورد» عام ١٢٩٢.

«لقد جمع تراث العصور الوسطى بين الشر والخير... وإنَّ العقائد التحكمية القائمة على غير أساس العقل، والتي أدَّت إلى التعصب، ومحاكم التفتيش لا تزال تنتهز الفرص أو الإذن لكي تظلم، وتقتل، وتدمر، وتخرب... ولقد خلقت محاكم التفتيش آثارها السيئة في المجتمع الأوروبي: فقد جعلت التعذيب جزءاً مقرَّراً معترفاً به في الإجراءات القضائية، وردَّت الناس من مغامرات العقل إلى الإتفاق الراكد المنبعث من الخوف»[2].

---

(١) Ibid.

(٢) قصة الحضارة، مجلد: ١٧ ـ ١٨ ـ ص: ٣٤٧ ـ ٣٤٨. وِل ديورانت.

أخلاق رجال الدين

لقد زال الحياء من العالم، وإذا كانت الرذيلة والشذوذ حال الطبقات العليا من رجال الدين، فلا عجب إذا نزلت وأصابت مَن دونهم من الطبقات. «وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي، والإنهماك في ملاذ المأكل والمشرب فإنَّا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محاكم التفتيش، وإن كانت هذه المحاكم قد اضمحلَّ شأنها في إيطاليا اضمحلالاً كبيراً أثناء القرن الخامس عشر»[1].

ولكي لا نظلم فقد كان وسط هذا الإنحلال الكنسي عدة مراكز للإصلاح الطيب. وفي عام ١٥١٧ أنشأ «سادوليتو» و«غيبرتي» و«كارفا» وغيرهم من رجال الكنيسة «محراب الحب القدسي» ليكون مركزاً لأتقياء الرجال الذين يريدون ملجأ غير مما في روما من انهماكٍ وثني في مفاتن الدنيا.

وفي عام ١٥٢٣ أنشأ «كارفا» طائفة «الثياتين» «Theatines» التي يعيش فيها القساوسة غير المنتمين إلى طوائف الرهبان، عيشةً

---

(١) قصة الحضارة، مجلد: ٢١ ـ ٢٢ ـ ص: ٨٦.

يستمسكون فيها بقواعد الرهبنة الصحيحة من العِفَّة، والعبادة، والزهد.

وأنشأ «أنطونيو ماريا زكريا» «Antonio Maria Zaccaria» طائفة مماثلة من القساوسة في «ميلان» سمَّى أفرادها أنفسهم بإسم «البرنابيين» نسبة إلى كنيسة القدِّيس «برنابا».

ووضع «كارفا» برنامجاً طيِّباً لإصلاح رجال الدين في «البندقية» وكان أكبر ما بُذل من الجهود لإصلاح الأديرة في ذلك العصر هو تأسيس طائفة «الكابوتشيين» «Capuchin Order» «ولم يكن عدد أفراد هذه الطائفة الجديدة كبيراً ولكنها كانت حافزاً للإصلاح الواسع الذي تسرب إلى طوائف رهبان الأديرة، والرهبان المتسولين في القرنين السادس والسابع عشر»[١].

---

(١) Lanciani, Golden Days, 87.

الضعف

كانت الكنيسة في القرن الرابع عشر تعاني الأمرَّين من الذل السياسي، والإنهيار الخلقي، وقد استطاع الملك الفرنسي «فيليب» الرابع أن يعمل على اختيار رجل فرنسي للبابوية، ونقل الكرسي البابوي إلى مدينة «اثنيون» على نهر «الرون» وظلَّ البابوات بعد ذلك ثمانية وستين عاماً بيادق، وسجناء في أيدي فرنسا، وبدأ احترامهم يقلُّ، ومواردهم تنضب حتى شرعوا من ضيقهم يملأون خزائنهم بالأموال من خلال فرض الضرائب التي لا عداد لها على رجال الدين، والأديرة، والأبرشيات. وفي خلال الفترة الواقعة بين موت أحد رجال الدين، وتعيين خلفه كان البابوات يستولون على إيراد منصبه، وكانوا يهتمون بإطالة هذه الفترة عامدين كي يحصلوا على المال أكثر ما يستطيعون، وكان بعض هذا المال يذهب ليتخم البطون ويملأ جيوب بعض الحظايا اللاتي كانت تزدحم بهن حجرات بيوت البابوات في «أفنيون».

على أن فرار البابوات من «رومة» وخضوعهم لفرنسا قد قوَّض

سلطانهم وحطَّ من منزلتهم، وكأنما أراد بابوات «أفنيون» أن يعلنوا على الملأ خضوعهم لسلطان فرنسا، فاختاروا من بين ١٢٤ كردينالاً ١١٣ كردينالاً فرنسياً.

وعمدت فلورنس عام ١٣٧٦ إلى مصادرة كل ما للكنيسة من أملاك في أراضيها عندما نشب النزاع بينها وبين البابا «غريغوري» الحادي عشر بابا روما.

وأخذت رذائل البلاط البابوي تزداد كلما قرب القرن الخامس عشر من نهايته، فجعل «سكتس»الرابع إبن أخيه من أصحاب الملايين، وأقحم نفسه في ميدان السياسة، بغية الحصول على المال اللازم لحروبه ببيع المناصب الدينية لمَن يدفع أكثر، واحتفل «أنوسنت» الثامن بزواج أبنائه في قصر الفاتيكان، وكان اسكندر السادس يرى أن بقاء رجال الدين بلا زواج خطأ يجب الإقلاع عنه، ولم يرَ رجال عصره فيما كان يتصف به من مرح وعدم استعفاف ما يؤخذ عليه كما قد يظن الناس، وكان كل ما تأخذه أوروبا على اسكندر السادس هو سياسته الخارجية التي لا يراعي فيها إلَّا (قرابة) ولا ذمَّة. وهال أوروبا أن ترى البابوية قد أصبحت سلطة زمنية، وقوة عسكرية تقود الحروب والجيوش كما كان يفعل «يوليوس» الثاني، ولم يعد حاكم في أوروبا يرى أن البابوية حكومة أخلاقية فوق الحكومات تؤلف من الأمم كلها دولة مسيحية واحدة، ذلك لأنها صارت دولة دنيوية اصطبغت بالصبغة القومية، واستحالت جميع تصرفات البابوية السلبية إلى ثورة ضدها، وأخذ رجال الأعمال يحطمون القيود التي يفرضها عليهم رجال الدين.

عليهم رجال الدين. وما وافى عام ١٥٠٠ حتى أصبح الناس يتجاهلون أوامر الكنيسة، وزادت سلطة المحاكم الزمنية، واضمحلت سلطة محاكم الأبرشيات، وأخذ الملوك يتحررون شيئاً فشيئاً من سيطرة الكنيسة، فضيَّقت القوانين التي صدرت في «أنكلترا» عام ١٣٥١ و١٣٥٣ أشد تضييق على سلطات رجال الدين في شؤون الإقتصاد والقضاء، وفي فرنسا احتفظ الملوك بحقهم في ترشيح كبار الأساقفة، ورؤساء الأديرة، وكبار رهبانها، وغلبوا البابوات على أمرهم فانتزعوا منهم حق تعيين مَن يشغلون كثيراً من المناصب الدينية الشاغرة في إسبانيا. وكان كلما ازداد الثراء، اضمحلَّ التمسك بالدين لدى جميع الطبقات. يُضاف إلى هذا أن إخفاق الحملات الصليبية، واستيلاء الأتراك على القسطنطينية قد خلَّف دهشة واستغراباً في نفوس المسيحيين، وجعلهم يتساءلون كيف سمح ربُّ المسيحية بأن ينتصر المسلمون «الكفار» عليهم.

فاعتمر الشك نفوس المسيحيين، وازداد كفرهم برجال الدين، والكنيسة عدا ما رأوه من فساد، ورشوة، واغتصاب للأموال وهم في أحضانها.

وها هو ذا راهب من «الدمنيك» يدعى «جون برومبارد» من رهبان القرن الرابع عشر؛ يقول عن إخوانه الرهبان:

«إنَّ أُولئك الذين من واجبهم أن يكونوا آباءً للفقراء... يشتهون ألذَّ الطعام، ويستمتعون بنوم الضحى... ويمنُّون على الناس بحضورهم صلاة الصباح أو القداس... وتراهم منهمكين في الطعام

والشراب إذا لم نقل في الدَّنس، والأقذار، حتى لقد أصبحت مجامع رجال الدين مواخير للفجار، ومجتمعات من المهرجين»[١].

وكان من نتيجة الفوضى مضطردة الإزدياد في الأديرة أن أهمل كثيرون أعمال الصدقات، والخدمات في المستشفيات، والقيام بشؤون التعليم، وهي الأعمال العظيمة الخليقة بالإعجاب والتي استحقوا لأجلها ثقة الناس وتأييدهم.

ولا غرابة والحالة هذه أن تنتشر الرذيلة، وينتشر الشذوذ باختلاف أنواعه، ويزداد هذا الإنتشار يوماً بعد يوم. وإذا كان الفساد الأخلاقي قد انتشر بين الرهبان، والقساوسة في كل بلدٍ مسيحي تقريباً، فإنَّ هذا الإنتشار بلغ حدًّاً جعل البعض يقترح السماح للقساوسة بالزواج.

«ويجدر بنا أن نقول إنصافاً لهؤلاء القساوسة غير المتعففين أن التَّسرِّي (الإستمتاع الجنسي) الشائع بينهم لم يكن دعارة بل يكاد يكون تمرداً عاماً على قانون العزوبة الذي فرضه البابا «غريغوري» السابع (١٠٧٤) على رجال الدين، وأرغمهم عليه إرغاماً. ولقد أخذ كهنة الكنيسة الرومانية يطالبون بأن يُسمح للقساوسة بالزواج شأنهم في ذلك شأن أمثالهم من كهنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، والروسية فقد ظلت هذه الكنيسة تسمح لقساوستها بالزواج بعد الإنشقاق الذي حدث عام ١٠٥٤، وإذا كان قانون الكنيسة الكاثوليكية لم يسمح لهم بهذا فقد لجأوا إلى عادة التَّسرِّي..»[٢].

---

(١) Ibid, 26

(٢) قصة الحضارة، مجلد: ٢١ ـ ٢٢ ص: ٤٧ ـ ٤٨ ـ القسم الثاني.

وبالجملة فإنَّ عدم الزواج لهم سُنَّة تحمل شذوذاً، ولا يمكن أن تطيقها الطبيعة البشرية، كما أنها لم تكن عند الحواريين الأولين، ولا تجري عليها الكنيسة الشرقية.

هذا على صعيد عدم الزواج، أمَّا على صعيد بيع صكوك الغفران التي أشعلت نار الإصلاح الديني، فإنَّ الذين يستطيعون أن يصدِّقوا أو يثقوا بذلك هم قلة صغيرة من الناس؛ وقد خلَّف المسيح وراءه قدراً لا يحصى من الفضائل، وهذه الفضائل كما تقول الكنيسة، هي بمثابة كنز يستمد منه البابا ما يشاء ليمحو جزءاً من الآثام التي ارتكبها الناس في الدنيا، ولم يكفروا عنها كل التكفير، وكانت الكفارة التي تضعها الكنيسة تتخذ في العادة صورة تكرار بعض الأدعية أو إخراج الصدقات أو الحج إلى بعض الأضرحة المقدَّسة أو الإشتراك في حربٍ صليبية ضد الأتراك أو غيرهم من «الكفرة» أو التبرع بالمال لبعض المشروعات الخيرية ونحو ذلك، ومن ثمَّ فإن تطبيق هذه الفكرة على صكوك الغفران لم يُغضب المسيحيين بادىء الأمر، وكان التائب المعترف إذا أخرج بعض المال، ودفعه لنفقات الكنيسة يُسلَّم إليه صك غفران جزئي أو كلي، ولم يكن هذا الصك ليجيز له أن يرتكب ذنوباً جديدة، بل لِيُمَكِّنَهُ أن ينجو يوماً أو شهراً أو عاماً من عذاب المُطهِّر، ولم يكن الصك ليعفي من جريمة الإثم لأنَّ الصك دوره العفو عن مدة العقاب التي لا بد لها أن يقضيها في عذاب المطهر عقاباً على ذنوبه، أما الجريمة فهي تُعفى حين يغفر القس ذنب التائب النادم أثناء الإعتراف قبل الموت.

فصك الغفران معناه، والحالة هذه، أن تمحو الكنيسة بعض

العقوبات الدنيوية التي يتعرض لها صاحب الخطايا في الدنيا. وسرعان ما انتشرت هذه الفكرة بفعل سذاجة الناس أو طمع «الغافرين» الذين عُهد إليهم توزيع صكوك الغفران أو ادَّعوا لأنفسهم حق توزيعها، وتركوا للناس حريتهم الكاملة في أن يفسروا الصكوك بأنها تعفيهم من التوبة، والإعتراف، والغفران على يد القساوسة، فأصبح بمقدور المرء أن يتخلص من كل ذنوبه الدنيوية، وما يترتب عليها من العقاب من خلال بالمغفرة، وصكوك الغفران التي يبتاعها من البابا أو عبر وسائطه ببعض النقود أو مقابل أمرٍ من الأمور، وقد ندَّد بعض البابوات ـ بونيفاس التاسع عام ١٣٩٢، ومارتن الخامس عام ١٤٢٠، وسكستس عام ١٤٧٨م ـ أكثر من مرة بهذه المساوىء لكن حاجتهم المالية يبدو أنها سيطرت، وفاقت تلك المساوىء، وبذلك أصبح المال الذي يُؤدَّى للأعمال الخيرية، الشرط الأساسي لمغفرة الذنوب لا الإعتراف، والندم، والأعمال الصالحة المنصوص عليها في عقائد الكنيسة. وهو «مما يُسربل الكنيسة بالعار ويجعلها مضغة في الأفواه، فقد اتَّخِذَت صكوك الغفران شيئاً فشيئاً صورة الصفقات المالية، وأدَّى هذا إلى كثيرٍ من النزاع بين السلطات الزمنية التي كانت تطلب على الدوام حظها من هذه الموارد»[١].

ولهذا أخذ الفقراء يشكُّون في أن عجزهم عن ابتياع أو شراء صكوك الغفران يجعل الأغنياء وحدهم هم الذين يرثون ملكوت السماوات، وترسيخ مبادئ معيَّنة بدلاً من ترسيخ المسلك الطيب،

---

(١) Ibid, 209.

وجعل الدين مقصوراً على المراسم والطقوس، وإثارة فكرة العقم المظنون بين الرهبان كي لا تكون هناك فضائح، وسوء استخدام الحرمان الديني في حق مَن يعصي، واللعنة الدينية، والرقابة التي كانت تُفرض على مطبوعات المؤلفين والكُتَّاب، والتجاء محكمة التفتيش إلى القوة، والتجسس على الناس، وسوء استخدام الأموال، كل هذه الأمور تجمَّعت فأصبحت سبباً في ابتعاد أوروبا عن الكنيسة الكاثوليكية في بداية القرن السادس.

يقول «باستور»: «إنَّ احتقار الغير لرجال الدين وكراهيتهم للكهنة الفاسدين، كان من أقوى العوامل في مروق الكثيرين عن الدين»[١].

لقد كان جميع هذا سبباً أيضاً في إلهاب الناس، والثورة على الكنيسة، ولطالما حاولت الكنيسة مخلصة في أن تُطهِّر صفوفها، وأديرتها والعودة إلى نُسكها القديم، ولكن الطبيعة البشرية بغرائزها أبت.

ولربما حقَّق البعض بعض الإصلاحات لكنها كانت قصيرة الأجل، حتى ثارت ثائرة المدارس الفكرية، والجامعات، واستثير غضب الناس على المنابر، وفي الخُطب حتى قُضي على مكانة الكنيسة في القلوب، وقلَّ الإحترام لرجال الدين، واكتسحت أوروبا ثورة دينية عارمة لم يسبق لها مثيل.

---

(١) Pastor. X, 235.

الإصلاح الديني

لم تكن أخلاق رجال الدين الفاسدة وحدها التي شجَّعت على الدعوة لإصلاحٍ ديني في إنكلترا، بل الزيادة المطردة في ثروة الكنيسة الإنكليزية، وتداولها بين أيدي رجال الدين، وانتقال الثروة إلى البابوات في فرنسا «أفنيون». وتألف في بلاط الملك الإنكليزي «إدوارد» الثالث حزب مناهض لرجال الدين، وكان زعيم الحزب المناهض إسمه «جون جونت» وكانت الحماية التي بسطها «جون» هذا على «جون وِيْكِلْف» (١٣٢٠ ـ ١٣٨٤) زعيم الإصلاح الثائر، هي التي جعلته يموت ميتة طبيعية.

كان «وِيْكِلْف» أستاذاً للاهوت في جامعة «أكسفورد» ورسم قسيساً، وشغل عدة مناصب في كنائس الأبروشيات، وكتب في الأدب، والفلسفة، والمنطق، واللاهوت، وما وراء الطبيعة، وأنكر علاقة الإنسان مع الله من خلال الوسيط القس أو الراهب، وعارض نقل أموال الدولة إلى البابا إلا على سبيل الصدقة، فأهل البلد أحق بها، وكان يرى أن بعض الأديرة إن هي إلا مأوى للصوص، وعششاً

للأفاعي، وبيوتاً للأحياء من الشياطين، وقال إنَّ المسيح والقديسين لم يأتوا إلى الناس بشيء من صكوك الغفران لينهبوا بذلك أموال الناس، وإنَّ كثيراً من رجال الدين يدنسون أعراض الزوجات، والعذارى، والأرامل، والراهبات، بكل ضروب الفسق والفجور، وطالب بمحاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية غير الدينية. أمَّا أحبار إنكلترا فبد اتهمهم بأنهم يسرقون أموال الفقراء، ولا يقاومون الظلم، مترفون، نهَّابون، ثعالب ماكرة.. ذئاب ناهشة.. نهمون شرهون.. شياطين.. قردة».

«إنَّ المسيح لم يكن له مكان يريح فيه رأسه أمَّا هذا البابا فيقول الناس عنه إنه يمتلك نصف الأمبراطورية.. كان المسيح وديعاً.. أمَّا البابا فيجلس على عرشه، ويجعل الأعيان يقبلون قدميه».

وإذ كان يحث على العودة إلى المسيحية كما جاءت في «العهد الجديد» للإنجيل فقد شرع هو ومساعدوه إلى ترجمة الكتاب المقدَّس، ولم يكن تُرجم آنذاك (١٣٨١) إلا جزء قليل منه إلى الإنكليزية، وإن كانت هناك ترجمة فرنسية كانت معروفة آنذاك لدى الطبقات المتعلمة، وترجمة من اللغة الأنجليسكسونية[١] لا تفهمها إنكلترا أيامه.

ثم يشير «ويكلف» إلى أن المشكلة مع رجال الدين لا تُحلُّ إلا

(١) أوقف الغزو النورماندي (الفرنسي) لإنكلترا عام ١٠٦٦ تطور اللغة الأنجلوساكسونية إلى الإنجليزية، وظلت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للمملكة فترة من الزمن، ونشأت بالتدريج مفردات أصلها ألماني، يخالطها كلمات، وعبارات عالية النطق والمعنى، إلى أن تخلَّصت إنكلترا من حربها الطويلة مع فرنسا، وتمردت على السيطرة اللغوية لعدوها.

بتجريد الكنيسة من كل الأملاك، والسلطات المادية، ومن واجب الملك حين يخالف القساوسة ألَّا يخشى لعنة البابا لأن لعنة الآدمي ليس لها قوة، بل لعنة الله نفسه، وأنكر ضرورة الإعتراف أمام القس ذلك أن المسيح لم يكن يعمل به كما لم يكن يعمل به أحد من الحواريين من بعده، وبه استحال الناس عبيداً لرجال الدين، وهو يُستخدم الآن للأغراض الإقتصادية، والسياسية، كما أنَّ القس صالحاً كان أم طالحاً لا يستطيع أن يحيل الخبز المقدَّس إلى جسم المسيح ودمه، وكان ينكر مبدأ التجسد كما كان ينكره «لوثر». وأثار إنكاره لاتحاد الجوهر بالإبن مخاوف بعض أنصاره، وألحَّ عليه صديقه «جون جونت» ألَّا يذكر شيئاً عن العشاء الرباني فرفض. وأكَّد على آراءه في اعترافٍ له أصدره بتاريخ ١٠ أيار ١٣٨١، واندلعت نيران ثورة اجتماعية في «إنكلترا» بعد شهرٍ من ذلك التاريخ، ارتاع لها كل ذوي الأملاك، فثارت ثائرة رجال الدين عليه، وأصدر الملك «رتشارد» الثاني أمراً إلى مدير الجامعة بطرد «ويكلف» منها وطرد جميع مؤيديه، درأً للفتنة التي كادت أن تطيح بعرشه.

ولمَّا كان عام ١٣٨٤ دعا البابا «إربان» السادس «ويكلف» للمثول بين يديه في رومة، إلا أنه أصابه شلل في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول عندما كان يقوم بالقدَّاس، ثمَّ وافته المنية بعد ثلاثة أيام من تلك الإصابة، ودُفن في «لِترُوُرث» لكن عظامه أُخرجت من قبره بناءً على قرار من مجلس كنستانس (٤ أيار ١٤١٥) وأُلقيت في مجرى ماء قريب من القبر، وأُبيد كل كتابٍ عُثر عليه من كتبه.

لقد غرس القرنان الرابع والخامس عشر بذور الإصلاح الديني،

ففي «سويسرا» كان الإستقلال الأشم للولايات، تمهيداً لظهور «زونجلي» و«كالفن». وفي عام ١٤٣٣ طردت «مجد يبرج» كبير أساقفتها وكهانها، وانتشرت أصداء من ثورة الهوسيين ـ أتباع جون هس ـ في «بوهيميا» المجاورة لألمانيا بأسرها، وحاصرت «باسو» أسقفها في قلعته، وعلى العموم فقد كان المسيحيون المحافظون ضد الكهنوت ورجاله، وظهر المتصوفة الذين تجاهلوا، وأهملوا تعاليم الكنيسة وشعائرها وزعموا الوصول إلى الله بلا استعانة من القصص أو الأسرار المقدَّسة.

وفي عام ١٢٩١ أُقيمت في «براغ» كنيسة خاصة سميت بكنيسة «بيت لحم» لتقود حركة الإصلاح. وفي عام ١٤٠٢ عُيِّن «جون هس» واعظاً لهذه الكنيسة، فحارب «هس» صكوك الغفران، ووصف البابا «يوحنا» الثالث والعشرين بأنه «جامع الأموال» وضد المسيح، فوجَّه البابا حرمانه إليه، وأصدر قراراً بحرمانه من أي مدينة يأوي إليها (١٤١١) ورحل «هس» عن «براغ» وظلَّ معتزلاً في الريف لمدة عامين، ثم عاد واعتقل وقضى في السجن سبعة أشهر أمام المجلس الكنسي يُحاكم، ويُطلب منه العدول عن آراءه الموافقة لـ«ويكلف» فلم يعدل وكانت إجابته دائماً واحدة وهي أنه لا يتنازل عن أي رأي من آرائه لا يؤيده الكتاب المقدَّس. وفي عام ١٤١٥ اجتمع المجلس وأمر بإحراق كتبه، وأُعِدَّت أكداس الخطب، وطُلب منه للمرة الأخيرة أن ينقذ نفسه بالتفوه بكلمة تُنبىء عن تنازله عن آرائه، لكنه أبى وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد.

وفي ٣٠ تموز ١٤٩١ قام جمهور «هس» بموكب في المدينة الجديدة

وسار حتى بلغ قاعة المجلس، وألقى بأعضائه المجتمعين من النوافذ إلى الطريق، حيث قضى عليهم جمهور آخر، ونُظِّم اجتماع شعبي انتخب على أثره أعضاء المجلس الهِسِّي، وأقرَّ ملك تشيكوسلوفاكيا «ونسسلوس» المجلس الجديد، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩).

وفي عام ١٥١٧ أصدر البابا «ليو» العاشر أشهر صكوك الغفران، وكان ورث خزائن بابوية مليئة بالأموال من «يوليوس» الثاني وأفرغها قبل أن يموت، وكان أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء، وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضي «فريدريك» الأمير المختار لـ«سكسونيا» إذ لم يكن لدى «فريدريك» اعتراض على صكوك الغفران من الناحية النظرية. ومهما يكن من أمر فقد أمسك المبلغ الذي جُمع في إمارة «سكسونيا» عن البابا الكسندر السادس (١٥٠١) بموجب صك غفران يُمنح مقابل التبرعات الصليبية ضد الأتراك، وقال للبابا: إنه سوف يرفع يده عن هذا المال عندما تتجسد الحرب بصورتها المادية، ولمَّا لم يتحقق ذلك احتفظ به، واستخدمه في بناء جامعة في «فيتنبرغ» وحرَّم وقتذاك التبشير في أرضه بصك غفران، وجاء عدد من المشترين لهذه الصكوك البابوية إلى «مارتن لوثر» أستاذ اللاهوت في الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها، فرفض، وترامى رفضه إلى الراهب الدومينيكاني «جوهان تيتزل» وكيل جمع المال، وتوزيع صكوك الغفران، فتوعَّد «لوثر» وهكذا اشتهر إسم «لوثر» في التاريخ.

كان «لوثر (١٥١٧ ـ ١٥٢٤) راهباً مغموراً في مدينة لا يقل عددها

عن ثلاثة آلاف نسمة، فقد ولد في «أيسليبين» في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني عام ١٤٨٣، ونتيجة للحياة الخشنة القاسية التي عاشها مع والديه التجأ إلى الدير وأصبح راهباً.

وفي أيار عام ١٥١٨ كتب رسائل ضد الكنيسة بدافعٍ من الغضب المتسم بالإخلاص، ولاقت رضا الطبقة المثقفة في المانيا، وكان الآلاف ينتظرون رسائل احتجاج كهذه، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقالها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها، وقلَّ الإقبال على شراء صكوك الغفران.

وقابل «لوثر» في «أوغسبورغ» مبعوث البابا الرسولي «كاجيتان» عند الإمبراطور «فريدريك» الثالث، ملك المانيا ليناقشه في آراءه حول الكنيسة، لكن المبعوث البابوي رفض مناقشته، وطلب من «لوثر» أن يسحب أقواله، وأن يتعهد بألا يعكر صفو الكنيسة، ورفض أن يناقش صحة آراء «لوثر» أو خطأها. وعاد «لوثر» إلى «فيتنبرغ» دون أن يتوب، وكتب بياناً شائقاً عن المقابلات التي جرت معه مع مبعوث البابا، نُشر في جميع أرجاء المانيا، وكانت الكلمة التي أضفت على ثورتها إسمها التاريخي.

وتشجَّع «لوثر» الذي سمَّاه البابا «ليو» العاشر بـ«إبن الشيطان» بتأييد «ميلانكتون» و«كارلشتات» و«هوتن» و«سيكنجن» ـ من معارضي الكنيسة الألمان ـ فكتب: «... وإذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق، ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف، ونُلقي بالهراطقة في النار، فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء، أعني

الكرادلة، وهؤلاء البابوات، وكل هذه البالوعة من «سدوم» الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ونغسل أيدينا في دمائهم»[1].

ومن جملة ما دعا إليه، وكتب:

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية في روما بدلاً من التخلص منها، وإنشاء كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة «ماينز»؟

يجب أن نتخلص من الهراطقة بالكتب لا بالحرق كما فعلوا بـ«هس» ويجب أن يكون هناك قانون كنسي واحد يطبَّق على رجال الدين والعلمانيين سواء. ورفض الفكرة التي تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه في القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر. ودعا إلى زواج القساوسة، والرهبان، وإلى التزوج من أية امرأة سواء أكانت مسيحية أم غير مسيحية.

وفي أيلول عام ١٥٢٠ أصدر مندوبا البابا «إيك» و«جيروم إلياندر» منشور حرمان «لوثر» من غفران الكنيسة في المانيا، فردَّ عليهم «لوثر» الطعنة بإصدار بيانٍ ثانٍ بإسم «الأسر البابلي للكنيسة» وأعلن موافقته الكاملة على آراء «هس». وعندما علم أنَّ مبعوثي البابا يحرقون كتبه قرَّر أن يرد عليهم بالمثل، فأحرق نشرة البابا، وقذف بها في النار مع بعض المراسيم الكنسية، ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية، وكتباً أخرى من نفس النوع.

وعندما سأل الأمير «فريدريك» ـ الذي كان متوجهاً إلى «آخن»

---

(١) Schapiro, 86; Smith, Luther, 146.

لحضور حفل تتويج «شارل الخامس» ملكاً على المانيا ـ «إرازموس» ـ طلباً للنصيحة ـ عن الأخطاء الرئيسة التي ارتكبها «لوثر» بحق البابوية ـ أجاب إرازموس:

لقد ارتكب «لوثر» خطأين: هاجم البابا في تاجه، والرهبان في بطونهم»[1].

وكان مفهوم الله عند «لوثر» يهودياً (توحيدياً)وكان يُذَكِّر نفسه دائماً بأننا لا نعلم عن الله شيئاً سوى أنه قوة مدركة كونية موجودة. وعندما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت: «أين كان الله قبل خلق العالم؟ أجاب: كان يبني جهنم لهذه الأرواح الفضولية القلقة، المغرورة من أمثالك»[2].

وآمن بأنَّ الله أغرق كل البشر بالطوفان تقريباً، وأنه أحرق «سدوم» وأهلك الناس والإمبراطوريات لغضبه عليهم، وأنه سلَّط الوحوش المفترسة، والديدان، والنساء الخبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم، وسلَّم بوجود الجنة والجحيم وآمن بنهاية مبكرة للعالم[3].

ويقول إنَّ: «الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء على الأعمال، وإنَّ مَن يقول إنَّ الإنجيل نصَّ على أنَّ الأعمال هي وسيلة الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب»[4].

واتفق في الرأي مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا

---

(١) Smithson, 181.

(٢) Ibid. 67.

(٣) Ibid. 15.

(٤) T.T. 283.

أنه أضاف بطريقته المرحة، إن الربا بدعة من عمل الشيطان. . . ووصف التجارة بأنها مهنة مرذولة»[١].

واستمر نجم «لوثر» بالصعود رغم محاكمته في المانيا من قِبل مندوبي البابا، وعدم قدرة المندوبين على إقناع الإمبراطور «شارل السادس» بإدانته واعتقاله، وسجنه.

وفي عام ١٥٢٢ أرسل «أدريان» السادس ـ البابا الذي كان أُستاذاً قديماً لشارل ـ إلى مجلس النواب في «نورمبرغ» طلباً بإلقاء القبض على «لوثر» ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير «فريدريك» كبح جماح «لوثر» ولكنه لم يقتنع إذ إنَّ إدانته لرجال الدين صحيحة ومُثْبَتَة، وقد أيدتها السلطات آنذاك، وأُحيل علاج المسألة إلى مجلس وطني يُعقد في المانيا برئاسة الإمبراطور.

وأرسل كليمنت السابع، البابا الجديد إلى المجلس النيابي الألماني في كانون الثاني ١٥٢٤، رسالة جديدة تتضمن مطالب من ضمنها إلقاء القبض على «لوثر» إلا أنها باءت بالفشل، وكان حظ المبعوث الرسولي في «نورمبرغ» السخرية والإذلال من بعض الجماهير.

في هذه الأثناء كانت ثورة الفلاحين تثير الشغب في كل أرجاء المانيا تقريباً، وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفون المشارب، الأمر الذي مع ثورة «لوثر» على الكنيسة، زاد في الطين بلة. ووسط هذا السيل الجارف من الأحداث أصدر «لوثر» عام ١٥٢٥ كُتيِّباً يعارض فيه جموع الفلاحين التي تقوم بالسلب، والقتل، وتسعى إلى قلب السلطة

---

(١) Works, Iv, 25.

والحكومة في ألمانيا، ووصف أعمالهم بأنها من عمل الشيطان.

وفسَّر «شارل الخامس» الثورة بأنها «حركة لوثرية» وقُضي عليها بوحشية من قِبل الدولة، وأُعدم مَن كان من أتباع اللوثرية من طبقة المُلَّاك، وانقلب الفلاحون على «لوثر» ووصموه بـ«الدكتور الكذاب» و«المنافق صنيعة الأمراء» وظلَّ سنواتٍ بعد الثورة لا يحظى بأي شعبية، ولا يجرؤ على مغادرة «فيتنبرغ» خوفاً من قتله.

لقد أحسَّ الفلاحون بأن دين «لوثر» الجديد أثار فيهم الأمل، ودفعهم إلى العمل والثورة ثم تخلى عنهم زعيمه في ساعة العسرة، فانقلبوا بين غاضبٍ ملحدٍ ساخرٍ، وعودةٍ إلى الشيوعية، وبين عائدٍ إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ولو خوفاً ورهبة من السلطة الزمنية.

ونشأت بعد ذلك حركة اللامعمدانيين (١٥٣٤ ـ ١٥٣٦) أشد الطوائف الجديدة تطرفاً، وأصرَّت على أن تعميد الطفولة يجب أن تُعاد مراسيمه عند البلوغ، بل إنَّ الخير تأجيله كما فعل يوحنا المعمدان، إلى أن يتمكن المكلف الراشد من اعتناق المسيحية بعلمه واختياره، ودعت الحركة إلى شيوعية في الأمتعة دون إجبار، والعون الإختياري المتبادل، وتوقع عودة المسيح المبكرة يقيناً إلى الأرض لحكم الألف عام.

وعلى الرغم من المذابح، والإعدامات، والحرق، والشنق، وقطع الرؤوس، والنكبات التي نزلت بهم في عدة مناطق من ألمانيا، فقد ازداد عدد أتباع هذه الطائفة، وانتقلت إلى سويسرة وشمال ألمانيا، والأراضي المنخفضة، وكانوا يحرِّمون السكر، والمقامرة، والبغاء، ويستحق فاعله عندهم أقصى العقاب.

وقامت هذه الجماعة (اللامعمدانيون) بثورة في «مُنْستر» على ملكها «جون» ولكنها غُلبت على أمرها، وقُضي عليها، وعاد وحكمها «جون» بعنفٍ وقسوة بعد إعادته إلى عرشه، وجنحوا في سائر المناطق التي انتشروا فيها إلى السلم، وأجَّلُوا الشيوعية إلى العصر الألفي للسيد المسيح وأسلموا أنفسهم إلى الحياة، الرصينة البسيطة التي لا تُغضب الدولة.

وها هو «لوثر» الذي كان قد أشار عام ١٥٢٨ إلى الرفق بالهراطقة الجدد، ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم، لا لاعتبارهم «كفاراً بل بوصفهم من كبار مثيري الشغب» (١).

إضافة إلى هذا، فقد أوصى بتخفيف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفي، وطلب من الأمير «فريدريك» الذي كان قد احتبسه مرَّة في قلعته حفظاً له وخوفاً من اغتياله أثناء محنته مع البابويه، بالتسامح مع أعدائه من الناحية الفكرية أو العقائدية وإطلاق الحرية لصدام العقول. وعندما كان الآخرون يدافعون عن فكرة الإعدام للامعمدانيين، أشار إلى أنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يُكتفى بنفيهم.

وشنَّ في سنواته الأخيرة حملة غضب شديدة على السامية، وندَّد باليهود، ووصفهم بأنهم «أمة من أُناس متكبرين، خبثاء ممقوتين» وطالب بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم؛ وقال: وأَدْعُوا كل مَن يستطيع أن يُلقي عليهم كبريتاً وزفتاً، وإذا كان في وسع أحدٍ أن يقذفهم

---

(١) Fosdick, Great, Voices of the Reformation, 285.

بوابلٍ من نار جهنم فإنه يُحسن صنعاً لو فعل هذا، وهذا ما يجب فعله كرامة لربنا وللمسيحية حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً. . وليُحرَّم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعليمهم من الآن فصاعداً وإلا عوقبوا بالإعدام، ولتُغلق في وجوههم الشوارع والطرق العامة، وليُحَرَّم عليهم الإشتغال بالربا، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة، ولتوضع في الحفظ والصون، وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة»[١].

وفي عام ١٥٤٦ من شهر شباط سقط «لوثر» مريضاً من معدته، ثم أصيب بنوبة فالج أفقدته النطق، ومات على أثرها، ودُفن في كنيسة قصر مدينة «فيتنبرغ».

وضارع «لوثر» مصلحون آخرون وإن لم يكونوا ضارعوه في جرأته وشجاعته، وقوة كتاباته الإصلاحية، أمثال «إرازموس» (١٥١٧ ـ ١٥٣٦) الذي عاش معظم حياته في «لوفان»، وكان يراوده الأمل في استعادة السلام للعالم المسيحي المنقسم إلى شطرين متحاربين، وكان يشترك مع «لوثر» في مجمل آرائه الإصلاحية لكنه كان يريد حلَّ ذلك بالطرق الكلامية الهادئة البعيدة عن التعنيف، والقسوة، وحرب الكلام وما يجرُّ وراءه من سلبيات، ولم يسلم «إرازموس» من مهاجمة المشتغلين باللاهوت له، واعتُبر محرِّضاً سرَّياً على الثورة ضد البابا والكنيسة، وأُقصي من كلية «لوفان» عام ١٥٢٠ وانتقل إلى «بازيل» عام ١٥٢١ مستاءً من اتهامه بالنصير السري للوثر.

---

(١) Ibid, 293.

وفي عام ١٥٢٢ من شهر كانون الأول بعث البابا الجديد «أدريان» السابع إلى «إرازموس» رسالة يحثه فيها على الوقوف إلى جانبه، ونصرته، وتأييده له ضد «لوثر» وهجمته على الكنيسة ومركز البابوية في روما، إلا أنه ردَّ عليه بأنه في «روما» و«برابانت» يتهمونني بأنني هرطيق، وداعية إلى الإنشقاق، وأنني أتفق مع «لوثر» والحق أنني لا أتفق معه بتاتاً، وانتهى الجواب على الرسالة بلزوم المبادلة في الرأي مبادلة عقلائية حسنة، ولزوم المصالحة.

ولم يرق هذا الكلام لـ«كليمنت» السابع الذي خلف «أدريان» بعد وفاته عام ١٥٢٣ إذ إنه أراد من «إرازموس» شنَّ حربٍ شعواء على «لوثر» بدلاً من ردودٍ وكلمات حوارية هادئة تهدف إلى حلِّ المشاكل بسلام.

ورغم دعوة «إرازموس» الإصلاحية الهادئة، فإن جميع الطوائف تقريباً وصفته بأنه مذبذب جبان، واتهمه أنصار الإصلاح الديني بأنه أغراهم بالفقر، ثم لاذ بالفرار.

ووُصِفَ في مجلس «ترنت» بأنه هرطيق فاسق، وحرِّمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك.

وعندما حضرته الوفاة لم يطلب قسيساً أو راهباً يعترف له، ومات دون أن تجري له الطقوس الدينية التي فرضتها الكنيسة.

* * *

وفي «سويسرة» ظهر المصلح الديني «هولدرايخ» أو «أولريخ زونجلي» (١٤٧٧ ـ ١٥٣١) حيث كانت الكنيسة في «سويسرة» فاسدة كما كانت في إيطاليا.

درس «زونجلي» اللاهوت على يد «توماس فيتنباخ» ورُسِمَ قِسَّاً عام ١٥٠٦ واستثارته ثورة «لوثر» ورسائله، ورسالة «هس» عن الكنيسة فما أن حلَّ عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر، والتوسّل بالقديسين، فانتقد تحريم الزواج الشرعي على القساوسة، بينما يُباح لهم اتخاذ الحظايا شريطة دفع غرامة، يا للعار!

والكتاب المقدَّس لا يعرف شيئاً عن المطهر، ولا أساس للسلطة الكنسية في الكتب المقدَّسة، وتعاليم المسيح، وعلى جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا إلى التوبة وإلا هلكوا. «إنَّ البلطة موضوعة على الجذر»[1].

وفي تشرين الثاني عام ١٥٢٤ شكَّلت «زوريخ» مجلساً خاصَّاً لحلّ المشاكل العالقة، وتمَّ بين «زونجلي» وهذا المجلس نوعاً من التفاهم أدَّى إلى أن أصبحت الكنيسة والدولة في «زوريخ» منظمة واحدة على رأسها «زونجلي» ولكن بصفة غير رسمية.

واجتمع في ١٥ أيار عام ١٥٣١ مجلس من «زوريخ» وحلفائها وصوَّت للضغط على المقاطعات الكاثوليكية بالسماح بحرية الوعظ على أرضها، وعندما رفضت المقاطعات اقترح «زونجلي» إعلان الحرب عليها، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات، وأعلنت الحرب، وسار جيشان متناظران ـ كما سارا سابقاً والتقيا في حرب سابقة ـ وتقدَّم «زونجلي» مرة أخرى وحمل العلم، وتقابل الجيشان (١١ تشرين الأول ١٥٣١) الكاثوليك والبروتستانت

---

(١) Shaff, 523.

واشتبكا، وكان «زونجلي» البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين خمسماية رجلٍ قُتلوا من أهل «زوريخ» ومُزِّق جسده إلى أربعة أجزاء ثم أُحرق على محرقة نُصبت فوق الروث[1].

وكان من نتيجة هذه الحرب أن اعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات، وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية.

وفي المقابل، فما أن حلَّ عام ١٥٢٧ حتى كانت «اللوثرية» مذهباً للمحافظين في نصف المانيا، ووجدت المدن الألمانية أنَّ البروتستانتية تعود عليها بالفائدة، فالأملاك بين أيديهم، وقد تحرروا من أشراف الأساقفة، ومن الضرائب، ومحاكم التفتيش، واسترجعوا أجزاء لا بأس بها من الكنيسة، وما حلَّ عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد انتشر في معظم أنحاء المانيا، وشبَّت ثورات في بعض المدن الألمانية لتحطيم الأصنام، والتماثيل والصور الزيتية التي كان يستغلها رجال الدين للضحك على عقول الناس.

وأبلغ الأرشيدوق «فرديناند» بأن الرغبة في الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكثالكة من غير الرهبان، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القساوسة لم يتزوج علناً أو سراً.

وساعدت الأسلحة، والظروف على رجحان كفَّة البروتستانت فطالبوا بكل شيء، وبتحريم طقوس الكاثوليك في الأرض التي تسود فيها العقيدة اللوثرية.

---

(١) En. Brit, III, 998.

جون كالفن

(١٥٠٩ ــــ ١٥٦٤)

ولد «جون كالفن» في فرنسا في اليوم العاشر من تموز عام ١٥٠٩ وفي ظل حكومة ودولة يسيطر عليها رجال الدين، ويحكمونها بإسم الرب.

كان أبوه «جيرار شوفان» سكرتيراً للأسقف، ووكيل أعمال في إدارة الكاتدرائية، ووكيلاً للمقاطعة يُشرف على الأعمال المالية.

ونذر «جيرار» أولاده الثلاثة للّاهوت، بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس.

وحُرِم «جيران» نفسه من الغفران بعد خلاف مالي مع الكاتدرائية. أُرسل «جون» إلى كلية «دي مارش» في جامعة باريس، ثم التحق بكلية «دي مونتيجو» وفي أواخر عام ١٥٢٨ ذهب إلى «أورليانز» على توجيه من أبيه لدراسة القانون، وبعدها انتقل إلى «جنيف» التي كانت شهدت ثورة قبل وصول «كالفن» بشهرين، وكان البطل العقيدي لهذه الثورة «وليام فاريل» الذي لم يجد أي أثر في نصوص الكتاب المقدَّس للبابوات، والأساقفة، وصكوك الغفران، والمطهر، والشعائر السبع،

والقدّاس، والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت، وعبادة مريم أو القديسين، وندَّد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية، كما تردَّد بالقدَّاس، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان التي يجب أن تُحطَّم، ونال الكثير من التأييد الشعبي مما دفع كل رجال الدين الكثالكة تقريباً إلى الرحيل، وفي عام ١٥٣٦ من شهر أيار واحد وعشرين، أصدر المجلس الصغير الذي كسبه إلى صفه مرسوماً بإلغاء القدَّاس، وإزالة كل التماثيل ومخلَّفات القديسين من الكنائس، وسيطر نظام أخلاقي صارم كسيطرة حكم القانون.

تلك هي «جنيف» التي أقبل إليها «كالفن».

ولمَّا التقى «فاريل» بـ«كالفن» أقنعه بالخدمة الدينية للعقيدة المسيحية، وهدَّده بأن يصب عليه لعنة الله إذا آثر دراسته الخاصة، وبُعْدَهُ عن الناس، على التبشير بكلمة الله.

وأذعن «كالفن» وبدأ خدمته الدينية، وفي تشرين الأول سافر «كالفن» برفقة «فاريل» و«فيريه» إلى «لوزان» واضطلع بدور صغير في الجدل الشهير الذي كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتي. ولبَّى «فاريل» دعوة إلى «نويشاتل» وبقي فيها ممارساً عظاته إلى أن توفي عام ١٥٦٥ وأُقيم له هناك نصب تذكاري تخليداً لذكراه.

وذهب «كالفن» إلى «شتراسبورغ» وأراد الزواج، وبعد محاولتين فاشلتين تزوج عام ١٥٤٠ من أرملة فقيرة لها سبعة أطفال هي« إيديليت دي بور» أنجب منها إبناً واحداً مات في سن الطفولة، وماتت هي عام ١٥٤٩ وعاش وحيداً باقي عمره.

كان سلوك «كالفن» في السنوات الأولى من دعوته، يتسم بالإعتدال، فكسب إلى صفه أكثر الناس إلا قليلاً منهم. كان واعظاً، ومديراً، وأستاذاً للاهوت، ومشرفاً على الكنائس، والمدارس، ومستشاراً للمجالس البلدية، وضابطاً للأخلاق العامة، ومنظِّماً للطقوس الدينية في الكنيسة، وألَّف كتاب «القوانين» وكتب تعليقات على الكتاب المقدس، وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة، وأعمال العبادات، والوعظ، وكان يرى العار في الكاثوليكية التي أثمرت حياة الإنحلال والترف في «روما» أو تسامحت فيها، وأنَّ من حق رجال الدين أن يتزوجوا، وأن يُنجبوا، وأن يمتنعوا عن الصيد، والمقامرة، واللهو، والتجارة، ولعب الورق، والسكر، وأيَّد عدد كبير من المواطنين في «جنيف» من ذوي النفوذ رسالته، ونظريته العامة الأخلاقية في السلوك لأن الآخرين كانوا بحاجة إليها، لأجل الفساد الكبير الذي كان متفشياً في المدينة، وساعد تدفق «الهوجنوت» الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت إلى «جنيف» على إطلاق يد «كالفن» وتحرّكه بقوة أكبر، وعمَّ الخير والوئام المدينة بشكلٍ كبير، ولم يعد فيها روح حزبية أو آلات أرغن أو أجراس تُدق أو أغانٍ استعراضية أو مخلَّفات مقدَّسة أو صور أو تماثيل في الكنائس.

ثم ما لبث أن واجه كالفن» جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى «سويسرة» من «إيطاليا المعارضة لها في الإصلاح الديني، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل واجهه أيضاً الوطنيون من أصله الفرنسي، والمتحررون، وكرهوا لاهوته، وأطلقوا على كلابهم إسم «كالفن»

وسبُّوه في الطرقات، وَوُجِّه إليه إعلان انتقامي كبير كان ملصقاً على منبره، يُنذره بالموت أو الرحيل والهرب.

ومرَّت الأيام وواجههم «كالفن» وهدأت العاصفة.

والتقى «كالفن» بـ «ميكائيل سرفيتوس» (١٥١١ ـ ١٥٥٣) وكانت له مراسلات معه في العقيدة، وكان «سرفيتوس» رجلاً موحِّداً لا يؤمن بالتثليث، وكانت نتيجة المراسلات، واللقاء بعدها إلقاء القبض عليه بتهمة الهرطقة، واتفق الكاثوليك والبروتستانت عليه هذه المرة، وحاول تبرئة نفسه بالأدلة والبراهين، والتماسات العفو، ولكن كله لم يُجْدِ نفعاً، وأصرَّ كالفن على إصدار حكم عليه بالإعدام، وتوسَّل إليه «سرفيتوس» ليساعد على تبرأته، فرفض إلا أن يتراجع عن هرطقته، وصدر أمر المحكمة، وأُوثق إلى سارية بسلاسل حديدية على تل «تشامبل» جنوب مدينة «جنيف» ورُبط إلى جانبه كتابه الأخير، وأُحرق حيَّاً، ومات بعد نصف ساعة من حرقه.

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات من اللامعمدانيين تدافع عن «سرفيتوس» حتى في أيام «كالفن» وأُخرجت جثة مُوقِّع حكم الإعدام بعد موته ودفنه، وأُحرقت علناً عام ١٥٦٦.

وأدان خصوم «كالفن» السياسيون معاملة «كالفن» لـ«سرفيتوس» واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً للكاثوليك في فرنسا الذين أرادوا أيضاً إرسال «سرفيتوس» إليهم وتطبيق حكم الإعدام عليه.

واشترك «كاستيلو» في الجدال مع «كالفن» كما فعل غيره، وكتب

إليه: «. . . وفضلاً عن هذا، فإنَّ اضطهاد العقائد لا طائل تحته، والإستشهاد في سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكثر مما كان في وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . . . أية مأساة بعد، في أن نرى مَن حرروا أنفسهم وأخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدونها سريعاً في طغيانها، وأن يُكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمري بعد فجرٍ واعدٍ مثل هذا»[1].

ومات «كاستيلو» وله من العمر ثمانية وأربعون عاماً، وقال «كالفن» لما عرف بذلك: إن وفاته المبكره كانت حكماً عادلاً من إلهٍ عادل.

ولعلَّ «كالفن» كان يعرف ميل «كاستيلو» الخفي إلى مذهب الموحدين بالله غير القائلين بإلهٍ في ثلاثة أقانيم، ومن ثمَّ رفض التسليم بألوهية المسيح، وخشي من هذه «الهرطقة» أكثر من أي شيء آخر لأنه وجدها متفشية في مدينة جنيف ذاتها، وقد هاجمت الدعوى الأساسية للمسيحية، وهي أن المسيح ابن الله.

ونُفي «ماتيوجريبالدي» الأستاذ في فقه القانون في «بادوا» حين دافع عن حرية العبادة، واشتبه في أنه يؤيد مذهب الموحدين وأرسل «كالفن» كلمة إلى الجامعة التي عُين «فيها جريبالدي» ـ جامعة «تيبنجن» أثار فيها الشكوك حوله، فألزمته التوقيع على اعترافٍ يقرُّ فيه بالتثليث، ففر إلى «برن» حيث مات بالطاعون عام ١٥٦٤.

واستُدعيَ «جيورجيو بلاندرانا» وهو طبيب إيطالي بقيم في مدينة

---

(١) Bainton, Here Istand, 186.

«جنيف» للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح، ففرَّ إلى بولندة.

وأعرب «فالنتينو جنتيلي» من «كالابريا»، عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين في مدينة «جنيف» فألقي في السجن، وحُكم عليه بالإعدام عام ١٥٥٧ ولمَّا تراجع عن أقواله، أُطلق سراحه وذهب إلى «ليون» فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية، بيد أنه أُطلق سراحه عندما أكَّد لهم أنه يريد دعم مزاعم كالفن، وأن مصلحته فقط في ذلك، ثم غادر إلى بولندة، ولمَّا عاد إلى «سويسرة» اعتقله حكَّام «برن» وأُدين بتهمة الحنث بقسمه والهرطقة، وقُطعت رأسه عام ١٥٦٦.

ووسط هذه الإضطهادات، والمعارك الدينية المذهبية، مرض «كالفن» وشكا الألم في الرأس، والربو، وسوء الهضم، والحصوة والنقرس، وهصرت الحمَّى جسده، وأبرزت أعضاءه، واستمر مرضه طويلاً، وتركه واهناً مصاباً بنزيفٍ متكرر من الرئتين إلى أن مات في الصلاة والعذاب (٢٧ أيار ١٥٦٤).

وقلَّ الخوف وأُسْلِمَت القسوة المرعبة إلى رؤية أكثر رحمة، ألزمت بإعادة النظر في مفهوم الألوهية، وعقداً بعد عقدٍ نبذت الكنائس التي تسلمت زمام القيادة من «كالفن» عناصر عقيدته القاسية.

و«سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذي أظلم الروح البشرية بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً، وكفراً في تاريخ السخف الطويل المبجَّل بأسره»[(١)].

---

(١) قصة الحضارة، مجلد: ٢٣ ـ ٢٤ ـ ص٢٥٨ من القسم الثاني ـ وِل ديورانت.

«تندال» والكنيسة

لطالما كانت الدولة مسؤولة عن الفساد إلى حدٍّ ما لأن الملوك كانوا يعيِّنون الأساقفة في «انكلترا»، وكان الأساقفة فاسدين نتيجة ما تهيئه لهم الأسقفية من حياة وادعة، ولم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرِّي بين رجال الدين، والزنى، والسكر، والجريمة في الأبرشيات، وارتاب القساوسة بالأبرشيات مادياً، فأخذوا غصباً يأخذون ضرائب العشور أكثر من أي وقتٍ مضى، مما يملكه الفلاح من الدجاج، والبيض، واللبن، والجبن، والفاكهة، وكل امرىءٍ كان لا يترك في وصيته ميراثاً للكنيسة يتعرض لخطرٍ عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية.

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة مكفهرة عن الرهبان الذين يحيون حياة داعرة، وتدنيس كنائس الرب بمضاجعة الراهبات، وتحويل الأديرة إلى مواخير عامة.

وبالجملة فإن الأديرة الستماية في «إنكلترا» أظهرت طبقاً لتقدير مؤرخ كاثوليكي، سوء سلوك على نطاقٍ واسعٍ، وكسلاً مُهلكاً،

وإهمالاً يُكلِّف غالياً في رعاية أملاك الكنيسة»[1].

«وأخذت الهرطقة، والكراهية لرجال الدين تشتد أكثر فأكثر. وفي عام ١٥٠٦ اتُّهم خمسة وأربعون رجلاً بالهرطقة، **أُحرق منهم اثنان** بعد تراجع الباقين عما قالوا. وفي عام ١٥١٠ **أُحرق اثنان** أيضاً لأجل الهرطقة، وفي عام ١٥٢١ **أُحرق خمسة**، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه خلال خمسة عشر عاماً»[2].

ومما كان يُعَدُّ من الهرطقة زعم أنَّ القساوسة لا حول لهم ولا قوة عن غيرهم في التكريس أو الحل، وأنَّ القرابين المقدسة ليست ضرورية للخلاص، وأنَّ رحلات الحج إلى المزارات المقدسة، والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها، وأن الصلوات يجب أن توجَّه إلى الله وحده، وأنّ في وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده، بغض النظر عمَّا يُقَدِّم من صالح الأعمال، وأنَّ المسيحي المخلص فوق كل القوانين عدا شريعة المسيح، وأنَّ الرهبان والراهبات يجب أن يلتزموا بالعفَّة.

وتأتي الأهمية الزمنية «للعهد الجديد» الإنكليزي، الذي ترجمه ونشره «تندال» (١٥٢٥ ـ ١٥٢٦) عن النسخة العبرية واليونانية، لا النسخة اللاتينية كما فعل «ويكلف». وذهب «تندال» إلى «فيتنبرغ» عام ١٥٢٤ وعمل تحت إرشاد «لوثر» وطبع في «كولونيا» نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليوناني كما حققه «إرازموس» وأثار وكيل إنكليزي السلطات عليه ففرَّ من «كولونيا» الكاثوليكية إلى «ورمز»

---

(١) Hughew, 1, 50. 66

(٢) Ibid, 127, 9

البروتستانتية، وهناك طبع ستة آلاف نسخة، أضاف لكل منها مجلداً منفصلاً ضمَّنهُ تعليقات، ومقدمات عدوانية، اعتمد فيها على مقدمات «إرازموس» و«لوثر»، وهُرِّبت كل هذه النسخ إلى إنكلترا، وكانت بمثابة الوقود الذي أشعل نار البروتستانتية الأولى هناك.

ورأى الملك إخماد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنكليزية وسقط «تندال» في أيدي الموظفين الإمبراطوريين في لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته، وسُجن لمدة ستة عشر شهراً في «فلفورد» قرب «بروكسل» وأُعدم في المحرقة (١٥٣٦) رغم التشفعات له من قِبل «توماس كروميل» وزير «هنري» الثامن ملك إنكلترا.

وأمام أجواء الصراع هذه بين الكثالكة والبروتستانت، وحركات التآمر من المواطنين، والسفراء، والحكام الكاثوليك، رأى «هنري» أنَّ النظام لا يمكن أن يستتب إلا بتحديدٍللعقيدة الدينية، وتولِّ للشؤون الكنسية، فأمر «كروميل» أولاً بتفويض «مايلز كوفردال» بإعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس.

وظهرت أول نسخة كاملة بالإنكليزية في «زوريخ» عام ١٥٣٥. وأمر «كروميل» بوضع هذا الكتاب المقدس في كل كنيسة إنكليزية وتجادل المتعصبون حوله في الكنائس، وتعرضوا لضربات بشأنه في الحانات، واستمر إرسال الكثالكة إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادة الملك على الشؤون الملكية، والبروتستانت بسبب جدالهم في اللاهوت الكاثوليكي، **وعُلِّق «فورست» رئيس فرقة المتشددين الفرنسِسْكان في «غرينوتش» على نار وهو مكبل بالأغلال،**

لرفضه أن يُنكر سلطة البابا، **وشُويَ ببطء حتى مات (٣١ أيار سنة ١٥٣٧)**[١].

وأُحرق «جون لامبرت» (١٦ تشرين الثاني ١٥٢٨) وهو بروتستانتي لإنكاره وجود المسيح حقيقة في القربان المقدس، وحكم عليه «هنري» بنفسه.

وفي عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابي، والمجمع الإكليروسي أن كل مَن يُنكر شفاهاً أو كتابة الحضور الحقيقي للمسيح، يتعرض للموت حرقاً دون أية فرصة للتراجع أو الإعتراف أو الغفران، وكل مَن ينكر أية مادة أخرى من قانون «المواد الستة» المسنَّة ـ عزوبة رجال الإكليروس، والقداسات لأجل الموتى، والإعتراف أمام القسيس، وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد، والحضور الحقيقي للمسيح ـ تُصادر أملاكه أول الأمر، وتُزهق روحه إن عاد مرة أخرى، وأعلن أن كل الزيجات السابقة للقساوسة حتى ذاك الحين باطلة، وأنَّ أي قسيس يحتفظ بزوجته بعد ذلك، يُعَدُّ مرتكباً لجريمة الخيانة العظمىٰ[٢].

ولم تنقطع مشاعل «هنري» الإحراقية اللاهوتية حتى نهاية حكمه، فأحرق ستة وعشرين شخصاً بتهمة الهرطقة في الثماني سنوات الأخيرة من عهده، وفي عام ١٥٤٣ أُحرق «هنري فيلمر» بتهمة ـ حسب نقل جواسيسه له ـ أنه قال: «إذا كان الرب موجوداً حقاً في القربان

---

(١) Froude, I, 350.

(٢) Hughes,I, 50. 66.

المقدس، فإني أكون قد أكلت في حياتي عشرين ربّاً».

وأُحرق «روبرت تستوود» بتهمة أنه حذّر القسيس عند رفع القربان المقدس، من أن يترك الرب يسقط.

وفي عام ١٥٤٦ أدان «غاردنر» الأسقف أربعة أشخاصٍ آخرين وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً في القربان المقدَّس، وكانت امرأة شابة من بينهم، وقالت في محاكمتها: «إنَّ ما تسمونه ربكم قطعة من الخبز، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها في صندوق لمدة ثلاثة شهور لتعفَّنت»، وعُذِّبت حتى أشرفت على الموت لكي تكشف عن أسماء هراطقة آخرين، وظلت صامتة لم تنطق بكلمة واحدة، وهي تتألم، وسارت إلى حتفها، وهي تقول: «إنني سعيدة كواحدة كُتب عليها أن تتجه إلى السماء»[١].

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٥٤٧ مات الملك «هنري» عن عمر الخامسة والخمسين، وقد دام عهده الرهيب سبعة وثلاثين عاماً، وكل ما أفاد من ثمرة حكمه هو انتصار الدولة على الكنيسة. وارتقى من بعده إبنه «إدوارد» السادس عرش إنكلترا، وتعلم على يد «كرانمر» الرأس المفكر للإصلاح البروتستانتي، فأصبح بروتستانتياً متحمساً، ولم يكن من أنصار توقيع أي عقوبة قاسية على مَن يُتَّهم بالهرطقة، إلا أن «كرانمر» أعدَّ بياناً بالهرطقات التي يُعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها، **وذهبت «جوان بوشر» الكنتيسة إلى المحرقة (١٥٥٠) لشكها في تجسد الأقنوم الثاني**، وقالت

(١) Froude, I, 81

لـ«ريدلي» أسقف لندن البروتستانتي الذي توسل إليها أن تتراجع عما تقول: «لقد أحرقتم «آن أسكيو» منذ عهدٍ غير بعيد من أجل قطعة من الخبز، وأنتم سوف تحرقونني الآن من أجل قطعة من اللحم «لقد صُنعت الكلمة لحماً، وسوف تؤمنون بهذا آخر الأمر»[١].

ولم يُحرق في عهد «إدوارد» إلا هرطيقان، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكثالكة سُجنوا لعدم حضورهم القداس أو لانتقادهم علناً العقيدة المحافظة المقبولة، وأُقيل القساوسة الكاثوليك المتشبثون بآرائهم من مناصبهم، وأُرسل بعضهم إلى سجن البرج»[٢].

وأوشك الملك الشاب على نهايته، فسعل، وبصق دماً، وتوَّرمت ساقاه توِرماً مؤلماً ثم سقطت أظافره، وعانى كثيراً ثم مات (٦ تموز ١٥٥٣) ولم يتعدَّ الخامسة عشرة من عمره.

ونودي بـ«ماري تيودور» ملكة وأعلن المجلس النيابي في عهد حماية «سومرست» أنها وليَّة العهد، وكانت تتلهف إلى إعادة حق الكثلكة في ممارسة العبادة طبقاً لشعيرتهم.

وبمقتضى السلطة المخوَّلة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد أُقصوا من مناصبهم، وأُعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت عليه تماماً بمقتضى مرسوم صدر في ٤ آذار ١٥٥٤ وحُرِّم كل وعظٍ بروتستانتي أو نشرة بروتستانتية.

وافتتح الأسقف «غاردنر» «Gardner»، عهد الإرهاب، **وأحرق**

---

(١) Froude, I, 176.

(٢) Camb. Mod. Hy, II, 301.

أربعة من رجال الإكليروس، وأدان «بونر» ستة وحكم عليهم بالحرق ونُفِّذ فيهم الحكم بعد خمسة أسابيع لأجل انتقاد وتنديد البعض بحكمه، **وكان معظم المحروقين أو المعدومين عمّالاً بسطاء تعلموا الكتاب المقدس تلاوة وتفسيراً وشجّعوا على العمل بالتفسير البروتستانتي له.**

وفي عام ١٥٥٥ أُحضر «**كرانمر**» (٦٠ عاماً) الرأس المفكر للإصلاح الديني البروتستانتي في إنكلترا، و«**ريدلي**» (٥٠ عاماً) و«لاتيمر» (٨٠ عاماً) من سجن البرج للمحاكمة في أكسفورد، وكان هؤلاء الرجال يتوقعون الموت وهم في البرج منذ عامين لأجل لأفعالهم وتأثيرهم البروتستانتي، وحوكموا **وأُحرقوا بالنار على** الخازوق، رغم إنكار «كرانمر» لمعتقده البروتستانتي، إلا أن «ماري» كانت تعتقد أن «كرانمر» ليس مخلصاً في إنكاره، وكان موته دليلاً على بلوغ الإضطهاد ذروته، إذ بلغ عدد المقتولين في السنوات الأربع الأخيرة إلى حين قتله (٣١ آذار ١٥٥٦) حوالي ٣٠٠ شخصٍ.

وسارت «ماري» بعد ذلك إلى نهايتها المحتومة الكئيبة بعد أن أدركت أنها محاطة بالمؤامرات ضدها، خصوصاً بعد قمعها لمؤامرة كان يتزعمها «هنري ددلي» لخلعها وتولية «إليزابث» على العرش مكانها، وبعد معرفتها بتشجيع الملك الفرنسي «هنري» الثاني على تدبير المؤامرات ضدها باعتبار زواجها من الملك الإسباني «فيليب» الذي كان يخوض حرباً معه.

وفي أيام الصيف الأخير من حياة «ماري» انتشر وباء حمّى

«البرداء» في «إنكلترا» وأُصيبت به الملكة في أيلول عام ١٥٥٨، وزيادة الحمَّى الصفراء السوداء، والإستسقاء، وتوفيت في ١٧ تشرين الثاني قبل الفجر، ومات معها حلمها بالحمل والولادة مرتين، بانتفاخ البطن والحمل الكاذب.

وفي نفس اليوم مات الكاردينال «بول» كمليكته المهزومة، وكان قد أدان في مستهل شهره الأخير ثلاثة رجال وامرأتين، وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة، **ولم يحدث في أي مكانٍ في العالم المسيحي المعاصر أن أُحرق هذا العدد الكبير من الرجال والنساء بسبب معتقداتهم وآرائهم الدينية، كما حدث في عهد تولي «ريجينالد بول» هذا، رئاسة الكنيسة الإنكليزية.**

* * *

وسرعان ما دخلت رسائل «لوثر» إلى اسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣، وانتشرت ترجمة للعهد الجديد باللغة الإسكُتلندية من إعداد «ويكلف» وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدَّس وحده، ورفض الإعتراف السري أمام القسيس، والتجسد، والمطهر، وصكوك الغفران، ورهبانية رجال الدين، والقداديس من أجل الموتى، والمخلَّفات من القدِّيسين، والصور الدينية، والسلطة البابوية.

وأعلن «جورج ويشارت» العقيدة الجديدة في «إدنبره» في وقتٍ كان فيه «دافيد بيتون» يعقد اجتماعاً إكليروسياً مع الإسكُتلنديين هناك، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة، وحُكم عليه بالإدانة، وقُتل خنقاً وأُحرق (١٥٤٦) وكان أول حادثٍ له أثره في الإصلاح

الديني الإسكُتلندي، وكان من بين الذين تحوَّلوا عن مذهبهم على يديه شخصية من أبرز الشخصيات التاريخية، وأعظمها تأثيراً، وهي شخصية «جون نوكس» الذي كان قِسَّاً بروتستانتياً إسكُتلندياً، عمل في إنكلترا، وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع، وربما أبرشية في «جنيف» وكانت العقيدة الكالفنية مصدراً من مصادر قوته، ولم يختلف في حكمه في إعدام المهرطقين عن غيره ممَّن يصدرون حكم الإعدام على الهراطقة من الكاثوليكيين، واعتبر أن الإصحاح الثالث عشر من سِفْر التثنية لا يزال ساري المفعول «فكل هرطيقٍ يجب أن يُعدم، والمدن التي تغلب عليها الهرطقة، يجب أن يقتص منها بالسيف وتُدمَّر تماماً، ويُقضى على ما فيها من ماشية، وكل بيتٍ فيها يجب أن يُحرق حتى ينهدم». ويعترف «نوكس» أنَّ هذه الأوامر خالية من الرحمة «.. وأيُّ مدينة.. لا يوجد فيها أبرياء مثل الرضع، والأطفال، وبعض السُّذَّج والجهال لا يقترفون إثم الكفر أو يستسلمون له، ومع ذلك فإننا لا نجد استثناءً بل إنَّ الجميع مكتوب عليهم الموت القاسي، بيد أنه في مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحني جميع المخلوقات، وتغطي وجوهها، وتكف عن التفكير المنطقي، إذا كان هناك أمر منه تعالى بتنفيذ إرادته»[١].

وألقى في ٣ أيار ١٥٥٩ في «برث» عظةً أطلقت الثورة من عقالها، ويقول: إنها كانت عظة عنيفة ضد عبادة الأوثان، وقد فسَّرت ما في القداس من عبادة للأوثان، وما فيه من أمور بغيضة، والوصية التي أمر

(١) In Muir, 142.

بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب. . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديرة ونهبوها، وحطموا التماثيل، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله. . وما هي إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضيع الثلاثة الكبيرة. . . قد دُمِّرت، ولم يبق منها قائم سوى الجدران»[1].

وعانى الكثالكة بصمت، وهرب أساقفتهم، وقبل قساوسة الأبرشيات التغيير رغماً عنهم، والأمل لعله يراودهم، وساعدت حركة الإصلاح الديني الإسكُتلندي على وضع حدٍّ للحروب المريرة بين الإسكتلنديين والإنكليز، لإلتقاء المواقف العقيدية، ومنحت بريطانيا قوة، ومملكة موحَّدة.

❊ ❊ ❊

وهاجر الإصلاح الديني إلى الدانمارك والسويد، وبولندة، وهنغاريا، وبوهيميا.

وقُطِّعَت رؤوس، وسُفِكت دماء، وتغيَّرت حُكَّام، وكان الإصلاح الديني في السويد أكثر منه في أي مكانٍ آخر، تأميماً للدين، وانتصاراً للدولة على الكنيسة، أما في الدانمارك فقد فازت البروتستانتية وأُنشأ رسمياً كنيسة الدولة اللوثرية، ورئيسها الأعلى «كريستيان الثالث»، وصودرت جميع أملاك الأسقفيات لصالح الملك، وقبلت النرويج، وأيسلندة «كريستيان الثالث» وتشريعه، وكُتب النصر التام للوثرية في اسكنديناوه (١٥٥٤).

---

(١) Ibid, 163.

وأما «بوهيميا» التي ما أن حلَّ عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكانها من البروتستانت، فإنَّ «فرديناند» أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة.

وفي القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة أحد الكالفنيين، «هنغاريا» التي عرفت الإصلاح الديني عن طريق المهاجرين الألمان، وأعادوها إلى حظيرة الكاثوليكية.

وتعقَّد الموقف في «بولندة» ففي أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات «سرفيتوس» المنكرة للقول بالتثليث، وفي عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة التي تقصر الألوهية الكاملة على الرب الآب، والمولد المعجز للمسيح، والوحي إليه، ومعجزاته، وبعثه، وصعوده، ورفضوا التسليم بالإبنية، وتكفير المسيح عن خطايا البشر، وسلَّموا بالتعميد، والقربان المقدس كرمزين فحسب، ولقنُّوا الناس أن الخلاص يتوقف قبل كل شيء على العمل الواعي بتعاليم المسيح، وبلغت هذه الطائفة أوج ازدهارها على يد «فاوستوس سوكينوس» إبن أخي «لايليوس» الذي وصل إلى «بولندة» عام ١٥٧٩.

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالإضطهادات، والدبلوماسيات. وفي عام ١٥٣٩ **أرسل أسقف «كراكو» إلى المحرقة امرأة في الثمانين من عمرها** بتهمة أنها رفضت شعيرة القربان المقدَّس[١].

---

(١) Ibid, 329.

وفي عام ١٥٦٤ جاء «هوزيوس» و«كمندوفي» باليسوعيين إلى بولندة، واستمالوا الشخصيات البارزة، وأعادوا الشعب البولندي إلى اعتناق العقيدة التقليدية.

وانتشرت في «هولندا» ترجمة «لوثر» للعهد الجديد على الرغم من الرقابة المفروضة، وتداولها الناس بحماسة، وتكوَّنت جماعات تُنكر التعميد، وظهرت نظريات شيوعية عن المساواة، وتبادل العون، **والحب الحر**، وتحولت الأراضي المنخفضة إلى ساحة قتالٍ بين الشكلين القديم والجديد للمسيحية، وقدَّر سفير البندقية في بلاط الإمبراطور الألماني «شارل الخامس» الذي حكم إسبانيا، أنَّ ٣٠.٠٠٠ شخصٍ، وهم من المنكرين للتعميد قُتلوا تقريباً عام ١٥٤٦ في هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة التي قُتل فيها الآمنون من المواطنين، وخفَّض تقدير آخر عدد الضحايا إلى ١٠.٠٠٠ شخص، وظل بقية منهم لم يبدوا أية مقاومة، بينما فرَّ بعضهم إلى إنكلترا وأصبحوا من أنصار البروتستانتية النشطين في عهد «إدوارد» السادس و«إليزابت» وانهارت الحركة الناهضة في الأراضي المنخفضة بعد أن روَّعها الإضطهاد.

وفي «إسبانيا» مدَّت محكمة التفتيش صلاحياتها القضائية في عهد «شارل» فراقبت، وفتشت كل مخزن للكتب، وأحرقت ما كان منها متصفاً بالهرطقة، وأنزلت أقسى عقوباتها ضد البروتستانت الموجودين في إسبانيا، فحكمت على «فلمنكي» (من المتكلمين بالفلمنكية في الحاشية الملكية) بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ لتشككه في المطهر، وصكوك الغفران، وأحرق في المحرقة «فرانسيسكو ـ دي ـ سان ـ

رومان، أول مَن عُرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم، **وسُجن «جوان جيل»** أو «أجيدو» ـ وهو كبير أساقفة «أشبيلية» لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور، والصلاة للقديسين، وفاعلية الأعمال الصالحة في الفوز بالخلاص، **ونُبشت عظامه بعد وفاته وأُحرقت**، وواصل رفيقه كبير القساوسة «كونستانتينو ـ بونس ـ ديلافوينتي» دعايته فمات في سجون محكمة التفتيش، **وأُحرق أربعة من زملائه، ومعهم أربعة رهبان وثلاثة نساء**، وحُكم على عددٍ كبير بعقوبات مختلفة، **ودُكَّ البيت الذي اجتمعوا فيه حتى سُوِّي بالأرض**، وحاول البعض الفرار من إسبانيا فقُبض عليهم **وأُعيدوا، وقُطع رأس التائبين**، وأُحرق مَن رفض التوبة. وفي يوم أحد الثالوث ٢١ أيار سنة ١٥٥٩ أُعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع غفير، وتراجع الجميع عمَّا قالوا إلا واحداً، وعوملوا برفقٍ، وقُطعت رؤوسهم، أمَّا «**أنطوليو ـ دي ـ هرزويلو**» الذي رفض التوبة **فقد أُحرق حيَّاً**، وسُجنت زوجته مدى الحياة، وبعد أن أمضت عشر سنواتٍ في السجن، عدلت عن إنكارها لما قالت، وجاهرت بهرطقتها، وطلبت أن تُحرق حيَّة مثل زوجها فأُجيبت إلى طلبها(١).

وعُرِض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء في اليوم الثامن من تشرين الأول عام ١٥٥٩ أمام ٢٠٠.٠٠٠ شخصٍ يرأسهم فيليب الثاني، **وحُرقت ضحيتان وهما حيَّتان، وخُنق عشرة.**

---

(١) Ibid, 441.

وحدث أن أُعدم حوالي مائتي شخص بين عامي ١٥٥١ و١٦٠٠، لما نُسب إليهم من هرطقات بروتستانتية.

وبموت «بارتلومي ـ دي ـ كارانزا» رئيس أساقفة «طليطلة» ورئيس أساقفة إسبانيا ـ الذي اشتبه فيه بدعمه للعقيدة اللوثرية سرًّاً، فسُجن ومات إذلالاً في السجن (١٥٧٦) ـ زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا.

أمَّا في روسيا فكانت الكنيسة هي الحاكم الحقيقي لها، لأنَّ خشيةً كانت سائدة في كل مكان، وكانت قواعد الطقوس الدينية تقيّد الجميع حتى القيصر نفسه، وكان الكهنة يراقبون القيصر إذا كان يغسل يديه بعد مقابلته لسفراء الدول من خارج نطاق الأرثوذوكسية، وكانت الصلاة وفق الطقوس الرومانية الكاثوليكية غير مرخص بها، أمَّا البروتستانتية فقد تسامحوا معها لأجل المشاركة في العداء مع بابا روما.

الإصلاح الإيطالي

في «ميلانو» عام ١٥١٩، و«البندقية» عام ١٥٢٠ ظهرت في أكشاك الكتب بعض كتاباتٍ لـ«لوثر» وأخذ الناس يناقشون الأفكار اللوثرية في الحوانيت، والكنائس، وشتى المدن والقرى.

وكان راهب سابق يدعى «باولو ريتشي» يندد بالبابوية صراحة في عظاته فقُبض عليه وعلى آخرين، وأُعدم لوثري عنيد في «فرارا» (١٥٥٠) **وفي عام ١٥٦٧، أُحرق ثلاثة عشر رجلاً وامرأة في «مودينا» بتهمة الهرطقة.**

وفي «لوتشا» ندَّد «بييترو ـ مارتيري ـ فرميلي» رئيس دير الكهنة الأوغسطينيين بأخطاء الكاثوليكية، ومفاسدها، ولمَّا استُدعي للمثول بين يدي مجلس رهبنته في «جنوة» لاستجوابه هرب من إيطاليا إلى إنكلترا، وعمل أستاذاً للاهوت في أكسفورد (١٥٤٨) ثم غادر إنكلترا حين استعادت الكاثوليكية سلطانها فيها، ومات أستاذاً للعبرية في «زوريخ» عام ١٥٦٢، وقد حذا حذوه ثمانية عشر كاهناً من ديره في «لوتشا» وهجروا رهبنتهم، ورحلوا عن إيطاليا.

وفي «نابلي» انتهت جماعة الإصلاح النابلوية بقطع رؤوس ثلاثة

من صغار تلاميذ **«جوان فالديس»** (١٥٤١) ـ الذي كان على ولائه للكنيسة ولكنه كان يُحبِّذ عقيدة «لوثر» في التبرير بالإيمان، وأنَّ للتصوف قدراً يسمو على أي طقسٍ خارجي من طقوس العبادة ـ **وإحراقهم** في «نابلي» عام ١٥٦٤.

أمَّا «جوليا جونزاجا» فقد أنقذها موت البابا بولس الرابع، وكان رجلاً قاسياً لا يرحم، ودخلت ديراً للراهبات. أمَّا «برناردينو أوكينو» فقد ضاقت الكنائس بسامعيه على رحابتها في شتى المناطق في إيطاليا، وفي عام ١٥٤٢ دُعي للمثول أمام السفير البابوي في البندقية، ومُنع من الوعظ بسبب آراءه الدينية الكبوشية، فخاف «أوكينو» من ذراع محكمة التفتيش الطويلة، وفرَّ إلى «زوريخ» ومنها إلى «جنيف». ولـمَّا كانت ألمانيته أقوى من فرنسيته انتقل إلى «بازل» ثم إلى «ستراسبورغ» ثم إلى «أوغزبورغ» طلباً للقمة العيش.

ولما نُمي إلى شارل الخامس أنَّ الراهب الكبوشي الذي كان قد سمعه في «نابلي» يعظ في حشدٍ كبير، يعيش هناك رجلاً متزوجاً، أمر بالقبض عليه، إلا أنه تُسِتِّر على فراره، ولما أوشك زاده على النفاد، تلقى دعوة من رئيس الأساقفة «كرامر» للذهاب إلى «انكلترا» وهناك عكف على العمل بوصفه كاهناً فخرياً يتقاضى معاش تقاعد في «تنتربري» ست سنوات (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) ثم عاد إلى سويسرة بسرعة لـمَّا اعتلت «ماري تيودور» العرش، وهي المعروفة بحرصها على كاثوليكيتها.

وحصل في «زوريخ» على وظيفة راعٍ للكنيسة، **ولكن الناس سئموا من آرائه التوحيدية، وطُرد حين نشر حواراً بدا فيه المدافع عن تعدد**

الزوجات، والأقوى حجة من نصير الزواج بزوجة واحدة، ثم أُمر في كانون الأول ١٥٦٣ بمغادرة المدينة خلال ثلاثة أسابيع، ورفضت «بازل» الإذن له بالإقامة فيها، ومكث فترة وجيزة في «نورمبرغ» ثم خرج بأسرته إلى «بولندة» وكانت وقتذاك ملاذ المريبين من المفكرين، واشتغل بالوعظ زمناً إلا أنه طُرد بعد ذلك حين أجلى الملك جميع الأجانب غير الكاثوليك (١٥٦٤).

وفي الطريق من «بولندة» إلى «مورافيا» قضى الطاعون على ثلاثة من أبنائه الأربعة، ولم يعش بعدهم سوى شهرين. ومات «أوكينو» في «شاكاو» في كانون الأول ١٥٦٤، وكانت آخر كلماته تقريباً «لست أريد أن أكون «بولنجرياً» ولا «كالفيناً» ولا بابوياً، بل مسيحياً فقط»[١].

لقد كان تحوُّل إيطاليا إلى البروتستانتية ضرباً من المحال، فقد أعان خضوع إيطاليا السياسي لإسبانيا المغالية في الدين، على إبقاء شبهي الجزيرة كاثوليكيتين، وكانت البابوية ميراثاً إيطالياً لا يمكن التخلي عنه، ومصلحة إيطالية راسخة لا يُسمح بذهابها، كيف وهي المنظمة الجابية للأموال، والجزية من شتى الأقطار!

«كان كالفن يطالب الدنيا بأن تكبل نفسها بأغلال بيورتانية تهدد بتجريد الحياة من كل فرح وتلقائية، وأنَّى للبهجة والفن الإيطاليين أن يدوما إذا كفَّ التيوتون، والإنكليز الهمج عن إرسال نقودهم أو جلبها إلى إيطاليا»[٢].

---

(١) Schaff, Swiss Reformation, 651.

(٢) قصة الحضارة، مجلد: ٢٧ ـ ٢٨ ـ ص: ١٩٢ ـ وِل ديورانت.

إليزابث والإصلاح

في عهد الملكة إليزابث جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الإضطهاد، فقد كان محرم عليهم إقامة الصلوات الكاثوليكية أو يكون لهم أدب كاثوليكي، وحُطّمت الصور المقدَّسة في الكنائس بأمر الحكومة، وأُزيلت المذابح، وأُرسل ستة طلبة من «أكسفورد» إلى «البرج» لمقاومتهم إزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كُلِّيَّتهم، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة، ولكن عدداً كبيراً منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الأنجليكانية، وجمع المجلس الملكي نحو خمسين ألفاً من هؤلاء المعتبرين عصاة متمردين في إنكلترا (١٥٨٠) وفُتشت البيوت في لندن، وأُجبر الأجانب الذين وُجدوا فيها على الإدلاء ببيان عن ديانتهم، وطُلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الروماني الكاثوليكي (١٥٦٧)[١].

وأصدر البرلمان (١٥٨١) قانوناً ينص على أنَّ مَن يرتد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى، وأنَّ أيَّ قسيس يقيم

(١) Ibid, II, 345; Hughes III, 159.

قداساً يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام، وأن مَن يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيهاً في الشهر»[1].

وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك، وصودرت الأملاك، وساد التوتر جميع المناطق، وثأر البرلمان الإنكليزي بمزيدٍ من تشريعات القمع بعدما علم بمؤامرة تُحاك ضد إنكلترا بغزو إسبانيا لها، وشحذ همَّة الكاثوليك بالثورة من الداخل، والتحريض على الإطاحة بالملكة واتهامها بأنها هرطيقة، وابنة زنا، وملعونة محرومة من الكنيسة، باعت جسدها ولوثته مع «ليستر» وكثيرين غيره، وفقاً لما جاء في منشور أصدره الكاردينال «ألن (١٥٨٨) يحث من خلاله الكاثوليك الإنكليز على التحرك لمساندة هجوم إسبانيا الوشيك على إنكلترا.

فما كان الجواب إلا قتال الكاثوليك ببسالة، إلا أنهم انهزموا وأُجِّل الغزو الإسباني، بعد الإجراءات والترتيبات الإنكليزية المضادة التي تمَّ اتخاذها، وفقاً للمعلومات التي وصلت إلى الجواسيس الإنكليز بأنَّ إسبانيا تستعد لغزو إنكلترا.

واستمر الإضطهاد، وشُنق واحد وستون قسيساً، وتسعة وأربعون علمانياً فيما بين عامي ١٥٨٨ ـ ١٦٠٣، **واقتُلع كثير من هؤلاء من المشنقة، وسُحبوا، ونُزعت أحشاؤهم وقُطّعوا إرباً وهم إحياء**[2].

وحوالي عام ١٥٦٤ بدأت بالظهور في إنكلترا جماعة دينية سمَّت

---

(١) Lngard, VI, 165; Froude, IV, 297.

(٢) Hllam, I, 169; Lingard, VI, 257.

نفسها بإسم «البيوريتانز» (المتطهرون) وكانت تطالب بتطهير المذهب البروتستانتي الإنكليزي من كل الطقوس والعبادات غير الواردة في العهد الجديد، والتمسك بنظرية القضاء والقدر تمسكاً تاماً، واللعنة الأبدية، ورفض أية رقابة عليهم من الدولة، وأن يكون لهم الحق في حرمان المتمردين من الكنيسة، والحكم بإعدام الهراطقة، وألَّا يكون للدولة أي سلطان قضائي روحي بأي شكلٍ من الأشكال.

وساهم «توماس كارتريت» أستاذ اللاهوت في «كمبردج» مع «والتر ترافوس» وآخرين في صياغة فكرة البيوريتانز عن الكنيسة واستحسن الحرفيون في لندن هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفي وعلى الطقوس، ونظر رجال الأعمال في العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع ضد الكاثوليكية، وحتى المقرَّبون من الملكة وجدوا بعض الخير لهم في البيوريتانية، وراودهم الأمل في أن يستخدموها سيفاً يشهرونه في وجه الكاثوليكية.

وازدادت حِدَّة الحركة البيوريتانية، وانشقت أقلية ذات عزم وشدّة عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية، حتى إن بعضهم وصف كتاب الصلوات بأنه «نفاية مأخوذة من الأقذار البابوية، هو وكتاب «القدَّاس» ومحكمة اللجنة العليا بأنها «خندق بغيض صغير»[١].

وهكذا انتشرت الحركة، وتشكَّلت عقيدتها على أساس الكتاب

---

(١) Neale, 178.

المقدَّس، جاعلة لها الحق في أن تحيا حياتها الدينية حياة متحررة من أي تدخل أجنبي، وعدم الإعتراف إلا بحكم الكتاب المقدس، وسلطان المسيح.

ولمَّا خاب ظن البيوريتانز بالفوز في البرلمان الإنكليزي، أغرقوا إنكلترا (١٥٨٨ ـ ١٥٨٩) بوابل من الكراسات المطبوعة سراً، وهاجموا فيها سلطة الأساقفة، وخُلُقهم الشخصي، وساروا في طريقهم قُدُماً واضطروا إلى الإختيار بين وطنهم وبين عقيدتهم، فهاجر كثير منهم مؤلِّبين الحركة البروتستانتية في القارة على إنكلترا، ورحَّبت هولندة بهم وأقامت لهم مجامع فيها للوعظ، والكتابة، ومهدوا بذلك الطريق لإنتشار عقيدتهم في أميركا.

أضف إلى ذلك؛ فإن تعدد المعتقدات الدينية وحِدَّتها تزايدت مع انتشار الكتاب المقدس، والإجتهادات في تفسيره، وفضلاً عن الإنقسام بين الكاثوليك والبروتستانت، كان هناك الإنقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكان، وبيورتان اللذين أشرنا إليهما، وانقسام البيورتان إلى «المستقلين» الذين كانوا يحلمون بالجمهورية، و«الكويكرز» الذين يعارضون الحرب، والعنف، وحَلْفَ الأَيمان، و«المؤمنين» بالعصر الألفي السعيد الذين يعتقدون بأن المسيح سوف يعود سريعاً ليقيم حكمه على الأرض، و«الأنتينومين» الذين يعتقدون أن الإيمان وحده ـ لا الإمتثال للقانون الأخلاقي ـ ضروري للخلاص، وأنَّ المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية، و«الإنفصاليين» أتباع «براون» و«الباحثين» «Seekers» و«المشاغبين»

«Ranters». وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط «Anabaptists» والمعمدانيين الذين انشقوا عن الإنفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٣) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية في القضاء والقدر، وإلى معمدانيين خاصّين قبلوها.

لقد أدَّى تعدد الفِرَق، والطوائف هذا، إلى الشك في جميع صيغ المسيحية وأشكالها، وفقدت الكتب المقدَّسة تأثيرها على كثيرٍ من الناس، وظُنَّ أنها لا تصلح إلا للجهلة والحمقى منهم.

وكان البرلمان الإنكليزي أشدَّ انشغالاً بالكاثوليكية منه بالهرطقة، وطالب الكاثوليك بالتسامح الديني ولكن البرلمان الذي يعني بذاكرته تعصب الكاثوليك، ومذبحة «سانت برتلميو» ومؤامرة البارود بتفجير البرلمان بمن فيه، طالب بدلاً من ذلك بالتطبيق الكامل للقوانين التي صدرت ضد الكاثوليكية، وساد شعور قوي شعاره «لا كثلكة» يقاوم تدفق القساوسة الكاثوليك إلى إنكلترا، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية، وشرع كبير أساقفة إنكلترا من قصره في «لامبث» في إعادة تشكيل الطقوس، والأخلاقيات الإنكليزية، وخلق مائة عدو جديد حين فرض عن طريق «محكمة اللجنة العليا» ـ هيئة قضائية أقامتها إليزابت ـ غرامات فادحة على المتهمين بالزنا، وحُرِم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم، أمَّا الذين نقدوا العقيدة المسيحية أو ارتابوا بها أو عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يُحرمون من الكنيسة ويوضعون في آلة تعذيب خشبية ذات ثقوب تُقيِّدُ فيها رِجلاً المذنب ويداه، أو تُقطع أذناه.

ونتخيل بشاعة ووحشية العقوبات في عهد «لود» بمحاكمة الكاهن البيوريتاني «اسكندر ليتون» الذي حوكم لتأليفه كتاباً يقول فيه: إنَّ نظام الأساقفة نظام شيطاني معادٍ للمسيحية، فَقُيِّدَ في الأغلال، وسُجن في مكانٍ موحش لمدة خمسة أسابيع في زنزانة شديدة البرد «مليئة بالجرذان، والفئران، معرِّضة للثلوج والأمطار، فتساقط شعر رأسه، وتقشَّر جلده، ورُبط إلى خازوق، وتلقى ستاً وثلاثين جلدة بحبلٍ سميك على ظهره العاري، ووُضِع في المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين في صقيع تشرين الثاني وجليده، ودُمغ بِسِمَةِ العار في وجهه، وشُقَّ أنفه، وقُطعِت أذناه، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة.

وفي عام ١٦٣٣ فُرِض على «لودويك بوير» ـ الذي كان قد اتهم «لود» بأنه كاثوليكي ضمناً ـ غرامة ودُمغ بِسِمة العار، وبُترت أطرافه، وشُوِّه جسمه، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، **وسُجنت امرأة لمدة أحد عشر عاماً لمَّا أصرَّت على اعتبار يوم السبت يوم راحة وعبادة.**

وناشد المشيخيون البرلمان (١٦٤٨) أن يُشَرَّع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون بنشر تعاليم الكاثوليك، والمعمدانيين، والأرمينيين، والكويكرز، وعقوبة الإعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس، أو التجسد، ولكن المستقلين أتباع «كرومويل» عرضوا التسامح مع كل مَن يقبل أساسيات المسيحية، إلا أنهم استبعدوا الكاثوليك، والموحدين، والمدافعين عن حكومة الأساقفة.

وكان في البيوريتانيين فرق كثيرة، تمسك معظمهم «بكالفنية» صارمة، وبحرية سياسية فردية، وبعباده غير موسومة بالمراسم

والشعائر، والفن الديني الذي يلهي المصلين، ويشتت أفكارهم، ورفضٍ لإشراف الأساقفة على الكنائس، وأصرُّوا على تفسير حرفي للكتب المقدسة، وكانوا يُجلَّون العهد القديم والعهد الجديد بقدرٍ سواء، وطبَّقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية «شعب الله المختار» واعتقدوا بالرب «يهوه» الصارم القاسي، وذهب بعضهم إلى أنه كلَّم الله، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهاموا في الشوارع يئنون، ويتأوهون، استباقاً لخلودهم في العذاب، وبدا لهم أنَّ الله يُسلط الصواعق دوماً على رؤوس الناس، وكانت الموسيقى، والزجاج الملون، والصور الدينية، والأردية الكهنوتية البيضاء، والكهنة الممسوحون بالزيت كانت كلها في نظرهم أمور تحول دون الإتصال بالله، والتوجه إليه، وحطوا بالإسم المستعار «ذوو الرؤوس المستديرة» «Round heads» لأنهم قصوا شعورهم بشكلٍ قصيرٍ جداً، وندَّدوا بالمسرح على أنه فخرٍ، وبمطاردة الدببة، والثيران على أنها عمل وحشي، **واستنكروا الإحتفالات الصاخبة، ودق النواقيس، وشرب الأنخاب، ولعب الورق، وتشددوا في تحريم الألعاب، والملاهي، والإحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص، إذ نسبوا معظم التقاليد هذه إلى أصول وثنية.**

مصير الهيجونوت في فرنسا

في عام ١٥٦٤ دخل اليسوعيون فرنسا، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك، وحوَّلوا في باريس خاصة جماعة من الهيجونوت أتباع «كالفن» إلى مذهبهم، ولم يكن بالشيء الذي يُذكر، وكان «كالفن» قد حذَّر أتباعه من المقاومة العنيفة للحكومة الفرنسية، إلا أن صبرهم تحت وطأة الإضطهاد كان قد نفد فأفرخت الهمجية نيران حربٍ عُدَّت مألوفة في المذهبين، فَشَنْقُ مواطنين في أقاليم لا لسبب سوى أنهم من هيجونات أصبح أمراً عادياً، ففي «نيم» ذبح البروتستانت ثمانين كاثوليكياً، وبين عام ١٥٦١ و١٥٧٢ ارتكبت ثماني عشرة مذبحة في البروتستانت، وخمس في الكاثوليك، ووقع أكثر من ثلاثين اغتيالاً[١].

وأمر هنري الثاني (١٥٥٩) جميع القضاة بأن يحكموا بالإعدام على جميع البروتستانت المستمسكين بعقيدتهم ثم جدَّد فرنسيس الثاني هذا الأمر، وأمر بهدم جميع الأماكن التي تُعقد فيها اجتماعات دعاة الإصلاح البروتستانتي، وإعدام كل مَن يؤوي مهرطقاً.

---

(١) Guizot, III, 331.

وفي الشهور الخمسة الأخيرة من عام ١٥٥٩ أُحرق ثمانية عشر شخصاً أحياء لتماديهم في الهرطقة أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكي، وفرَّ مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث أواهم «كالفن».

وجاء في سجِّل أخبار معاصر أنه: «لا شيء غير شنق الناس أو إغراقهم كان طوال شهر بأكمله حتى غطت الجثث نهر اللوار»[١] (آذار عام ١٥٦٠). وأزعجت «كاترين دي مديتشي» فتنة «أمبواز» ووحشية قمع الحركة، وحمى الثأر التي أججَّت سخط الهيجونوت، لكنها لم تفعل شيئاً. وفي سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزويج ابنتها «مارغريت» إلى «هنري نافار» الهيجونوتي، وإبنها «هنري» إلى «إليزابت» المحرومة من الكنيسة، وكان عليها أن تحمي وطنها المقسَّم من تحالف إسبانيا والنمسا الهابسبورغي، ضد «فرنسا»، وسيطرة القوة الإسبانية على «الفلاندزر» من القسم الشمالي الشرقي لفرنسا، فالخطر من الخارج يتطلب السلام من الداخل.

وافتتح «لوبينال» الدورة (١٣ كانون الأول) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين، لكن الإستجابة لم تكن حارة، ونصح مندوب البابا «كاترين» بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت، لكن البابا «بيوس» الرابع حضَّ على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، ومناولة الأسرار المقدسة بالخمر كما تُنَاول بالخبز، وأفرجت «كاترين» عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لجرائم دينية،

---

(١) Guizot, france, III, 303.

وهدَّأت من ثائرة الهيجونوت بالإفراج عن «كونديه» الهيجوني السجين.

وفي ظل القرارات المتسامحة المهدِّئة، راح القساوسة البروتستانت يعظون دون أي تحرّج، وحُظِّرت الخدمات الكاثوليكية وحُكم على الصور، والتماثيل الدينية رسمياً بالإتلاف والتحطيم، لكن الشعب تفجَّر في باريس، وروان، وبوفيه، وغيرها من المدن، وتجاهل الهيجونوت مرسوم حظر العنف، الصادر عن الملكة (١٥٦١) وهاجموا المواكب الكاثوليكية في مختلف المدن، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار، والرفات المقدسة، وحطموا التماثيل، ولم يعد يرى أحد من الطرفين أي معنى للتسامح الديني.

وفي هذه الأثناء كان «لوبينال» قد دعا ـ رغم احتجاج البابا وموافقة كاترين ـ رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت للإجتماع، وإيجاد صيغة لتهدئة الخواطر، وقام بخدمة دينية بروتستانتية، ووعظ في قصر كاترين معتدلاً بكلامه لكنه حين قال: إنَّ جسد المسيح في القربان بعيد عن الخبز المكرّس بُعد السماء عن الأرض، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجاً وعقب ذلك هياج كبير، وألحَّ الأساقفة على نفي كل الوعَّاظ الذين يشككون في الوجود الحقيقي»[(١)] للمسيح، وانفضَّت الندوة، وعاد الصراع أشدَّ مرارة من ذي قبل، فكان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم في ميدان عام مواجه لكنيسة كاثوليكية، ويشوشون على القداس بترتيل صاخب لمزاميرهم، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليحجبوا صوت الترتيل عن

(١) Pastor, XVI, 172.

السماع، وأثارت مذبحة «فاسي» بالبروتستانت حمى القتال في البروتستانت الفرنسيين، وأمرت كاترين «جيز» زعيم المذبحة بأن يحضر إليها، فرفض ومضى إلى باريس، وانضم إليه «مورغورنسي» و«سانت أندريه» في القريق ومعهم ألف رجل، وزحف الثلاثة إلى «فونتنيلو» واعتقلوا الملكة الأم، والأسرة المالكة، وقاد «كونديه» محاربيه البالغين ٦٠٠.١ إلى «أورليان» وناشد كل الجماعات البروتستانتية بدعمه، وطلب الفريقان المعونة من الخارج، الكاثوليك من إسبانيا، والبروتستانت من إنكلترا، وألمانيا، وحصلا عليها، وكانت أولى الحروب الدينية على هذا المستوى (نيسان ١٥٦٢) واشتعلت حرب المدن والمقاطعات، ودارت المعارك بين الفريقين على أشدها، وأخذت القوات المتحاربة تتجهز لحربٍ فاصلة. وفي ٣ آذار ١٥٦٩ التحمت القوتان في «جارناك» قرب «أنجوليم» وهُزم «الهيجونوت» وقُتل «كونديه» من المؤخرة رغم استسلامه، وفي ظل الإنتصارات الكاثوليكية، وبينما كان الظلام مخيماً قاد «جيز» نفسه ثلاثمائة جندي إلى المبنى الذي ينام فيه الأميرال «كولني» فوجدوه راكعاً يصلي، فطُعن، وشُق وجهه، ورُمي من النافذة وهو حي، وسقط ميتاً عند قدمي «جيز» وفُصل رأس الأميرال عن جسده، وأُرسل به إلى «اللوفر» وقيل إلى «روما» أما الجسد فسُلِّم إلى الجماهير التي مثَّلَت به تمثيلاً وحشياً، وقُطِّع من عرقوبيه[١].

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر إلى دوق «جيز» بوقف

---

(١) Michelet, III, Roeder, 473.

المذبحة، وكان الجواب أنَّ الأوان قد فات، أمَّا وقد مات «كوليني» فلا بد من قتل «الهيجونوت» وإلا فهم لا محالة ثائرون.

وخضعت «كاترين» وأمرت بقرع ناقوس الخطر، وتلت المذبحة تلو المذبحة، واغتبطت الجماهير، وذُبح من الهيجونوت وغيرهم عدد يتفاوت بين الألفين، وخمسة آلاف، وذبح التجار منافسيهم، واقتُحم كل بيتٍ اشتبه في إيوائه اليهجونوت، وفُتِّش، **وجُرَّ الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع، وذُبحوا كالأنعام، وانتُزعت الأجنَّة من بطون القتيلات وهُشِّموا**[١].

وذكر السفير الإسباني في تقريره: «**إنهم يقتلونهم جميعاً وأنا أكتب هذا، وإنهم يعرونهم.. ولا يعفون أحداً حتى الأطفال. تبارك الله!**»[٢].

وبما أن **القانون نفسه أصبح خارجاً عن القانون**، فقد انطلق السلب والنهب من غير قيد، وشُهِدَ لبرلمان باريس بفخرٍ أنه أمر بالمذبحة عندما سار الملك شارل التاسع هو وحاشيته إلى قصر العدل مخترقاً الجثث المبعثرة في الشوارع. وفي اليوم الثامن والعشرين زار الملك والملكة الأم والحاشية عدة كنائس في احتفالٍ ديني للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة، ونجاة الأسرة المالكة من الموت.

وحذت الأقاليم الأخرى في فرنسا حذو باريس في مذابحها وقدَّر «جاك دتو» ٨٠٠ ضحية في «ليون» و١٠٠٠ ضحية في «أورليان» ويقدِّر

---

(١) Ibid.

(٢) Acton, 160; Roeder 463.

بعضهم عدد الضحايا في الأقاليم التي جرت فيها المذابح بين خمسة آلاف والثلاثين ألف ضحية[1].

وحين وصل النبأ إلى روما أعطى كردينال اللورين حامله ألف كروان. وهو يهتز طرباً، وسرعان ما أُضيئت روما كلها، وأُطلقت المدفعية من قلعة «سانت أنجلو» وقُرعت الأجراس ابتهاجاً، وحضر غريغوري الثالث عشر وكرادلته قداساً مهيباً لشكر الله على هذا العمل الرائع الذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم، وأمر البابا بضرب ميدالية خاصة تذكاراً لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم، وعهد إلى «فازاري» بأن يرسم في الصالة الملكية في الفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة: «البابا يوافق على قتل كوليني»[2].

أما أوروبا البروتستانتية فقد وصفت المذبحة بأنها همجية، وجبن ونذالة.

وخرجت كاترين من مقتلة الهيجونوت مبتهجة، وبدا أن مشكلتهم قد انحلت، ولكنها أخطأت التقدير، إذ ما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح اليجونوت حربهم الدينية الرابعة، وأفلحت «لاروشيل» في مقاومة حصار الملك لها، ووقَّع شارل صلح «لاروشيل» الذي منح الهيجونوت حريتهم الدينية.

ومات الملك شارل السادس نادماً مليماً لأمه على تحريضها لما فعل، وتولى هنري الرابع الحكم (١٥٥٣ ـ ١٦١٠) وكانت كاترين

(١) Michelet; III. 483.

(٢) Pastor, XIX. 507; Froude, Elizabeth, III, 411.

تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر، ولكن الهيجونوت ما زالوا ثائرين.

واستمرت الحروب الدينية لخامسة وسادسة وسابعة وثامنة إلى أن وضع الملك «هنري» الرابع حدًّا نهائياً لها، وعلَّم الكاثوليك والبروتستانت أن يعيشوا بسلام من خلال مرسوم تاريخي صدر في ١٣ نيسان عام ١٥٩٨ أباح فيه الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستانتية، وتولي الهيجونوت للمناصب العامة، ومعاملة البروتستانت والكاثوليك سواء بسواء.

ولكن صراع العقائد واصل طريقه بمرارة بعد وفاة «هنري» فلا الكاثوليك ولا الهيجونوت البروتستانت كانوا يميلون إلى التسامح، وحيث كانت الغلبة للكاثوليك فإنهم راحوا يشوِّشون على البروتستانت ويدمرون كنائسهم وبيوتهم، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم في اعتناق الكاثوليكية[١].

وحيث كان البروتستانت أصحاب الكلمة العليا ردُّوا على هذا بمثله، فحظَّروا ترتيل القداس في نحو مائتي وخمسين مدينة خاضعة لهم، وسخروا من مواكب الكاثوليك، وهاجموها وشوَّشوا عليها، وحين زار لويس الثالث عشر الملك الشاب، خليفة «هنري» «بو» (١٦٢٠) صَدَمَهُ ألَّا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلي فيها، فنظر باستياء وفزع إلى مذهبٍ يهدد روح فرنسا وكيانها، فلجأ إلى وزيره

(١) Barine, Grande mademoiselle, 279.

الكاردينال «ريشيلو» صاحب الذكاء والصلابة، والسلطة المطلقة في فرنسا لمساعدته في تحجيم، وإخضاع الهيجونوت له، فنظَّم «ريشيلو» جيشاً، ورافق الملك في حصاره لقلعة «لاروشيل» إحدى أكبر معاقل الهيجونوت، وحوصرت القلعة، ومات نصف أهل «لاروشيل» جوعاً، واستسلمت المدينة بعد ثلاثة عشر شهراً من المجاعة والمرض (٣٠ تشرين الأول ١٦٢٨) وعاملهم «ريشيلو» بالحسنى، وثبَّت مرسوم «نانت» الذي كان أصدره «هنري» أبان حكمه، في كل نصوصه الجوهرية رغم تصايح نصف فرنسا باستئصال الهيجونوت.

الإمبراطورية المنقسمة

في عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المسيحية المؤلفة من: المانيا، لكسمبورغ، فرافس، كونتيه، اللورين، سويسرا، النمسا، بوهيميا، مورافيا، وجزء من المجر، تدين بالولاء لسليل بيت «هابسبرغ» الأمبراطور مكسمليان الذي حكم الإمبراطورية منذ عام ١٤٣٨، وبعد أن اعتزل الملك شارل الخامس (١٥٥٥ ـ ١٥٥٦) الرئاسة اقتسمت الأسرة نصف أوروبا، فحكم الهابسبرغ النمساويون الإمبراطورية أما الهابسبرغ الإسبان فحكموا إسبانيا وولاياتها، ولم تكن سويسرا جزءاً من الامبراطورية الرومانية المسيحية المقدَّسة ـ برغم أنها ـ كما قال «فولتير» ـ لم تكن إمبراطورية، ولا رومانية، ولا مقدسة إلا صورياً، ـ فكانت حرة في التناحر فيما بينها على صعيد الولايات والكانتونات، وبدأ اليسوعيون من كليِّتهم بـ«لوسرن» عام ١٥٧٧ حملة من التعاليم والوعظ والدَّس، وأصلح ممثلو البابا في سويسرة الفساد في رجال الدين الكاثوليك، وقضوا على التسري بين الكهنة، وصدُّوا التأثيرات البروتستانتية المنبعثة من «زوريخ» و«جنيف» و«برن».

وكانت «جنيف» قد بدأت تتخلص ببطء من سلطان «كالفن» أما النمسا فكان دورها في الإمبراطورية مركزياً، ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة، وحصن الحضارة الغربية للإصلاح الكاثوليكي، ومقر القوة الكاثوليكية في حرب الثلاثين، ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستانتية، بل بين المسيحية والكفر؛ ففي عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ ـ ١٥٦٤) قررت معظم الأبرشيات النمساوية كتاب التعليم المسيحي اللوثري، وكانت اللوثرية المذهب السائد في جامعة فيينا، وفي مقابل ذلك كان الإلحاد يستشري في نفوس الناس، وبدأت موجة الشك تعم المدن والقرى النمساوية، وفي تقدير أحد الوعاظ في عام ١٥٦٧ «أنَّ الألوف وعشرات الألوف في المدن ـ أجل بل في القرى ـ لم يعودوا يؤمنون بالله»[١].

وطرأ مثل هذا التغيير على «المجر» المسيحية، فقد دان ثلثا «المجر» للحكم التركي منذ ١٥٢٦، ولم يقوَ الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلاطين الأتراك حتى عام ١٦٠٦.

وفي ظل الحرية الدينية ظفرت البروتستانتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة، ولكن سرعان ما انقسمت فِرقاً لوثرية، وكلفنية، وتوحيدية، وتفرَّق التوحيديون مللاً أصغر لإختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح؛ ولم يرَ النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر في ممتلكاتهم مبرراً بعد ذلك للبروتستانتية، فرحبوا باليسوعيين، وقبلوا

---

(١) History of the German people. VIII, 297 - 9.

التحول «المثالي» إلى الكاثوليكية وطردوا «الرعاة» البروتستانت[1].

أما بوهيميا والأقاليم التابعة لها ـ مورافيا، سيليزيا، لوزانيا ـ فكانت تغلب عليها البروتستانتية عام ١٥٦٠، وكان معظم النبلاء لوثريين، ومعظم الفلاحين كاثوليكاً، وقلة منهم «أو تراكية» تخلُّوا عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسيَّة (جون هس ١٣٦٩ ـ ١٤١٥) وتصالحوا أخيراً مع روما.

وفي ألمانيا هاجم الكاتب «يوهان فيشارت» الكاثوليكية بشكلٍ ساخر وتعرَّض في كتابه «خلية النحل الرومانية المقدَّسة الواسعة» إلى تاريخ الكنيسة، وعقيدتها، واحتفالاتها بكاريكاتور عنيف، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور، والإجهاض، والكنيسة في زعمه قضت بأن للكهنة أن يستعملوا زوجات غيرهم من غير حرج. **وقد وُجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال في بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك**[2].

واستولى الأمراء على معظم الثروة الكنسية في المانيا البروتستانتية، وتمتع البروتستانت بقسطٍ أوفر من حرية العقيدة من الكاثوليك، وانقسموا إلى لوثريين، وكلفنيين، وقائلين بتجديد العماد، وموحدين، لكن الموحِّدين قُمعوا بشدة.

وفي عام ١٥٧٠ تناقش رجلان في ربوبية المسيح وضيَّقا حدودها، فأُعدما. وكان الصراع بين اللوثريين والكلفنيين لا يقل مرارة عن

---

(١) Campbell, the Jesuits, 69.

(٢) Ibid, 23, 45.

البروتستانت والكاثوليك، ففي بروسيا الشرقية أُعدم «يوهان فونك» المتهم بميوله الكلفنية في سوق «كونيزبز» وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦)[١].

وفي «درسدن» (١٦٠١) أُعدم المستشار «نيقولا كربل» لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية، ولتأييده الهيجونوت الفرنسيين[٢].

ونُفي الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثري إلى الكلفني. وهزم جنود «موريس» حاكم «هيس ـ كاسل» حشداً من اللوثريين المقاومين، وحطموا الصور الدينية في الكنائس.

وهكذا احتدم السعار اللاهوتي احتداماً لم يعرفه التاريخ من قبل، وراح الكُتَّاب من كلا الجانبين يتبادلون الإفتراءات، والإتهامات على نحو ما يُفعل في حرب العقائد السياسية، ونشبت حرب الثلاثين سنة الدينية بين الدول: المانيا، بوهيميا، النمسا، فرنسا، السويد، إسبانيا، المجر، وجرَّت وراءها الخراب والدمار، والسلب، والنهب والموت، والقصص البطولية لـ«فلنيشتين» (١٦٢٣ ـ ١٦٣٠) «وغوستاف» (١٦٣٠ ـ ١٦٣٢) إلى حين صلح و«ستفاليا» الذي دُعي إليه، وافتُتح شكلياً في ٤ كانون الأول ١٦٤٤.

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٨ أعلن البابا «إنوسنت» العاشر «أنَّها (الإتفاقية أو الصلح) غير ذات قوة شرعية ملزمة، ملعونة بغيضه، ليس لها أي أثر أو نتيجة على الماضي أو الحاضر أو المستقبل»[٣].

---

(١) Camb. Modern History, III, 153.

(٢) Schaff, The German Reformation, I, 64.

(٣) Camb, Mod, History, 688.

وتجاهلت أوروبا هذا الإحتجاج، ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظمى، وانحط شأن الدين في أوروبا، وكانت المعاهدة نصراً للبروتستانتية التي أُنقذت في المانيا، وبقيت خطوط التقسيم الديني التي أُقرَّت عام ١٦٤٨ دون تغيير جوهري حتى القرن العشرين وعلى الرغم من الإصلاح الديني الذي قد أُنقذ بصلح و«ستفاليا» وأنهى سيطرة اللاهوت على العقل في أوروبا، فإنَّ المسيحيين لأجل وحشية الحرب، وقساوتها بدأوا يشككون في المذاهب التي تبشِّر بالمسيح، وترتكب قتل الأخوة بالجملة.

* * *

وثارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لا يُكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس إلا أن علماء اللاهوت أوضحوا أن «الروح القدس» استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه، وأصاب الناس غم جديد عندما خلص «لويس كابل» الأستاذ البروتستانتي للعبرية واللاهوت في «سومور» إلى أن الحروف سهلة المخارج وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمدته الكنيسة للعهد القديم إن هي إلا إضافات أضافتها الكنيسة إلى النصوص الأقدم عهداً زمن يهود طبرية «المازوريون» في القرن الخامس ق.م أو بعده، وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية.

وتوسل «جوهانس بوكستورف» الأكبر أعظم علماء عصره، إلى «كابل» ألّا يعلن عن هذه الآراء أمام الجمهور، ويحتفظ بها لنفسه حتى

لا تُسيء إلى إيمان الناس الذين يعتقدون بالإيحاء اللفظي للكتاب المقدس ومع ذلك فقد نشر «كابل» آراءه عام ١٦٢٤، وحاول «يوهانس بوكستورف» الأصغر دحضها، وتفنيدها، واستمر الخلاف طوال القرن، وتخلَّت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس كتاباً ينطوي على أعظم أسلوبٍ أو تعبيرٍ مهابة، وجلالاً لدى الناس[١].

(١) قصة الحضارة ـ مجلد: ٢٩ ـ ٣٠ ـ القسم الثاني: ص٢٣١.

غاليليو والكنيسة

في ١٦ شباط ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال «بللارمين» بأن يستدعي مَن يُدعى «غاليليو» للتخلي عن آرائه المزعومة بثبات الشمس، ودوران الأرض حول نفسها كل يوم، وعدم مركزية الأرض للكون.

وفي اليوم ذاته مَثُلَ «غاليليو» العالم الفلكي الإيطالي أمام الكاردينال «بللارمين» وأصدرت المحكمة في الخامس من آذار قرارها التاريخي بهذا الشأن:

«إنَّ الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة، وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها، لأنها تناقض النصوص المقدَّسة، والفكرة التي تقول بأن الأرض ليست مركزاً للكون بل حتى أن لها دورة يومية، زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطىء»[١].

وعاد «غاليليو» أدراجه إلى فلورنسه، وخلا إلى الدروس في داره وكف عن الجدل حتى عام ١٦٢٢.

---

(١) Wolf, 36.

وفي آب عام ١٦٣٢ حظرت المحكمة الإستمرار في بيع كتاب «المحاورات» الذي صدر لـ«غاليلو» لأنه يعرض فيه آراء «كوبرينكس» حول الأرض والشمس، وباعتبار كونه يشكل خطراً على الكنيسة بل أشد خطراً من هرطقات «لوثر» و«كالفن» وذلك بعد فحص الكتاب من قِبل لجنة كنسية بإيعاز من البابا نفسه. وفي ٢٣ كانون الأول دعت المحكمة «غاليليو» للمثول أمام مندوب الحكومة في روما، وكان له من العمر ثمانية وستون عاماً، وحثوه على الإعتراف بذنبه، فرفض محتجاً بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أساس أنها مجرد فرضية، وظلَّ سجيناً في قصر المحكمة حتى ٣٠ نيسان، وهناك انتابه المرض ولم يعذبوه.

وفي التحقيق معه للمرة الرابعة أكَّد أنه بعد قرار عام ١٦١٦ «لم يعد يخامرني أي شك، وآمنت، ولا زلت أؤمن برأي «بطليموس» أن الأرض لا تدور، وأنَّ الشمس هي التي تدور، على أنه حق كل الحق ولا يقبل الجدل»[١].

فاعترضت المحكمة بأن محاورات «غاليليو» أوضحت بما لا يقبل الشك أنه يُقر آراء كوبرنيكس، وأصرَّ هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ عام ١٦١٦.

وفي ٢٢ حزيران أصدرت المحكمة قرارها بإدانته بالهرطقة، والتمرد، والعصيان، وسجنته لعدة شهور بعد أن أذلَّته وجعلته يجثو ويبرأ من نظرية «كوبرنيكس».

---

(١) Kesten, 388.

وفي كانون الأول ١٦٢٢ سمح له بالإنتقال إلى داره الخاصة في «أرستري» بالقرب من «فلورنسه» مع الحظر عليه من مغادرة مسكنة، وجاءت ابنته الراهبة لتقيم معه، واحتملت معه عقوبة تلاوة المزامير السبعة التي فرضتها عليه المحكمة تكفيراً عن ذنبه طيلة سنواتٍ ثلاث متتالية.

وفيما كان يعاني من اعتلال صحته أواخر أيام حياته، كان عقله دوماً مشغولاً بالمسائل الميكانيكية والرياضية، ثم فقد بصره، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك.

وفي الثامن من كانون الثاني ١٦٤٢ توفي وله من العمر ٨٧ سنة. وفي عام ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات «غاليليو» من قائمة الكتب المحظورة، وانتصر رجل العلم على عقل التخلف.

«جيورد أنو برونو»

(١٥٤٨ ـــ ١٦٠٠)

ولد «برونو» في «نولا» إيطاليا، دخل دير الدومنيكان في «نابلي» وفي عام ١٥٧٢ رُسِم كاهناً ولكن الشكوك ظلَّت تلهبه، كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى؟

كيف يتسنى لكاهن مهما كانت رتبته أن يحوِّل الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه؟

وفي عام ١٥٧٦ بعد أن قضى أحد عشر عاماً في الرهبنة، فرَّ فجأة من الدير، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في روما، وخلع رداء الرهبنة، وعاد إلى إسمه الأول الذي عُمِّد به «فلبو» بدل «جيورد» الإسم الذي كان ثانياً بعد الأول، والتمس الأمان، والتستر بالإشتغال بالتعليم في مدرسة «نولي» بالقرب من «جنوه» ثم عاد فارتدى ثوب الرهبنة ظاهراً كي لا يُمس بأذى، ويحظى بكرم الأديار، فسار إلى «برسكيا» و«برجامو» و«ليون» و«جنيف» وفي «جنيف». معقل الكلفنية قضى شهرين يكسب قوته بتصحيح المخطوطات، وتجارب الطبع، ومن بين

هذه التجارب والأعمال كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين في جامعة «جنيف». وأشار «برونو» إلى عشرين خطأ في هذه المحاضرة، وأُلقي القبض على طابع النقد، وحُكم عليه بغرامة، أمَّا «برونو» فاستُدعي للمحكمة أمام محكمة الكنيسة، فقدَّم اعتذاراً وصفحوا عنه، فغادر «جنيف» وعاد إلى «ليون» ومنها إلى «تولوز» وحاضر «برونو» في رسالة «الروح» لـ«أرسطو» ثمانية عشر شهراً ثم رحل إلى باريس.

وكان «برونو» قد أحرز شهرة لا بوصفه فيلسوفاً بحسب، بل بوصفه خبيراً أيضاً في فن تقوية الذاكرة، وأرسل هنري الثالث في طلبه، وسُرَّ من دروسه، وعيَّنَهُ مدرِّساً في «الكوليج دي فرانس»، وصبر «برونو» بهدوء لمدة عامين إلى أن نشر عام ١٥٨٢ رواية هزلية تحت عنوان «حامل المشعل» يهجو فيها الرهبان، والأساتذة، والمتحذلقين هجاءً لاذعاً.

وفي عام ١٥٨٣ طلب من جامعة «أكسفورد» أن تأذن له بإلقاء المحاضرات في قاعاتها، فتحدث عن خلود الروح، ونظرية «كوبرنيكوس» في الكواكب، والكرة السماوية المُكَبَّرة إلى خمسة أمثالها، وضايقه بالأسئلة كثير من الحاضرين من بينهم رئيس كلية «لنكولن» الذي ضيَّق عليه «برونو» الخناق في أجوبته، حتى جعله يقف حائراً كعصفورٍ في قفص كما يروي «برونو»[(١)].

وأطلق «برونو» على «أكسفورد» فيما بعد إسم «أرملة التعليم

---

(١) Bruno, La Cena de le ceneri, Dialogue IV, in Singer, D.W., 33.

الصحيح» «مجموعة من الجهل المتحذلق، العنيد، والوقاحة، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب».

وكان يتمتع بخيال متقد وفصاحة مثيرة، يرهق نفسه، ويعذبها، ويقهرها حبّاً في الحكمة الحقة، وغيرةً على التأمل الصادق[1].

وفي أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس وحاضر في «السوربون» واختبر الجامعات الألمانية فتسجَّل في جامعة «ماربرغ»، وقصد إلى «وتنبرغ» وقضى عامين يحاضر في جامعة «لوتر» لكن لاهوت رجال الإصلاح في المانيا لم يرقه، فالتمس رعاية «رودلف» الثاني في براغ، وأذِن له بالتدريس في جامعة «هلمستد» في «برنزويك» وبقي سعيداً في عمله هذا لعدة أشهر اتهمه بعدها رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة، فرحل «برونو» إلى «فرانكفورت» فـ«زوريخ» ثم عاد إلى «فرانكفورت» (١٥٩٠ ـ ١٥٩١) حيث استقر به المقام هناك لينشر مؤلفاته اللاتينية.

وفي تلك الأثناء كانت فلسفته قد اكتملت؛ رؤية هادئة للأشياء، رؤية جمالية للكون، عميقة تتسم بالتعجب والدهشة. إنَّ الأرض ليست مركز العالم ولا الشمس كذلك، وفيما وراء العالم الذي نراه عوالم أخرى، وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضاً، وهكذا إلى ما لا نهاية. إننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية. وبدلاً من النجوم الثابتة التي ظن «كوبرنيكوس» أنها ثابتة، فإنها تغير مواقعها على الدوام، وكل ما في السماوات يجري.

---

(١) Owen, 125.

والفضاء، والزمن، والحركة كلها أمور نسبية. وليس هناك مركز ولا محيط، ولا ارتفاع وانخفاض. وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن ونجوم مختلفة. ولمَّا كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حيَّة ذكية، فهل مات المسيح من أجلها كذلك؟ على أنه في هذا الإتساع الذي لا نهاية له، هناك بقاء ثابت للمادة، وولاء دائم لا محيد عنه للقانون.

وإذا كان الكون لا نهائياً، فإنه لا يمكن أن يكون هناك لا نهائيان. لأنه يكون «الله» اللانهائي، والكون اللانهائي شيئاً واحداً! ولا يكون هناك «مدبر أول» بل حركة أو طاقة متأصلة في كل جزء من هذا الكل.

وليس الله عقلاً خارجياً. . . والأجدر أن يكون القاعدة الداخلية للحركة، وهي طبيعته وروحه، والطبيعة هي العقل الخارجي الإلهي، على أن هذا العقل ليس موجوداً في «سماء عليا» بل في كل جزء من جزئيات الواقع.

وهناك في الطبيعة أضداد، وقوى متعارضة، ومتناقضات، ولكن عمل الكون بأسره بمشيئة الله تتوافق فيه كل المتضادات وتختفي. كذلك فإن الحركات المتباينة للكواكب هي التي تُحدث الإنسجام في السموات، ووراء التنوع المحير الساحر في الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشد عجباً، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء في كائن واحد.

«إنها تسحرني، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً، سعيد في غمرة الحزن، غني في حمأة الفقر، حي حتى في الموت»[١].

---

(١) Bruno, Dedication to de La Causa, Perncipio et uno, in linger,mBruno, 103.

«إني، ولو أنني خاضع للقانون، أعبر عن طبيعتي الخاصة، وبالرغم من أنني أقاسي فإنني أجد العزاء فيما هو ثابت في أنَّ شرَّ الجزء يصبح غير ذي معنى في المشهد العام للكل».

وفي أواخر عام ١٥٩١ سارع «برونو» إلى مغادرة «فرانكفورت» وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا، وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن «برونو» خارج عن القانون، ويجب القبض عليه في أول فرصة، ولكن «البندقية» اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين عن القانون، وأعدَّ له «موسنيجو» ـ وهو سليل أسرة من ألمع أُسر «البندقية» ـ مسكناً، وتلقى وأخذ عنه دروساً في تقوية الذاكرة، ولكنه فزع من الهرطقات الصادرة عن هذا الفيلسوف «الثرثار» قليل الحذر، وسأل «موسنيجو» كاهن الإعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن «برونو» فنصحه الكاهن بالتريث حتى يُتَثبت من حقيقة «برونو» بشكلٍ أدق، ولكن عندما باح «برونو» عن عزمه على العودة إلى «فرانكفورت» أبلغ «موسنيجو» المحكمة.

وفي ٢٣ أيار ١٥٩٢ وجد «برونو» نفسه نزيلاً في سجن المحكمة في «البندقية».

وحققت المحكمة مع السجين على مهل، من أيار ١٥٩٢ إلى ١٦٠٠ بعد أن تمَّ ترحيله في ٢٧ شباط ١٥٩٣ إلى رومة ليلاقي الإذلال، والمحاكمة تلو الأخرى وهو قابع في السجن بين التسويف والتجويع، وتُليت عليه ثمان مسائل «هرطيقية» مأخوذة من كتبه وطلبوا إليه أن يشجبها علناً حيث إنَّ الهرطقة انصبَّت على التجسيد والتثليث.

وفي ٢١ كانون الأول أعلن أنه لن يتراجع عن آرائه، ووافق على حكم البابا في أمره، لكن البابا قرر أنه مارق عن الدين، مهرطق، ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية في روما لتقرر العقوبة التي يستحقها، ووقَّع على الحكم ثمانية كرادلة، ونُقل «برونو» على الفور إلى سجن مدني.

وفي ١٩ شباط، جُرِّد من ثيابه ورُبط لسانه، وشُدَّ إلى خازوق من حديد فوق ركام من الحطب في «بيازا كامبودي فيوري» وأُحرق حيًّاً على مشهد جمعٍ غفير، وكان في الثانية والخمسين من العمر.

وفي عام ١٨٨٩ أُقيم له في نفس المكان، تمثال جُمعت له التبرعات من مختلف أنحاء الدنيا.

فانيني

بعد تسعة عشر عاماً من استشهاد «برونو» ظهرت نزعة دينية مماثلة ولاقت من فورها نفس المصير.

هذه النزعة تمثلت في «جيوليو لوسبلير فانيني» في جنوب إيطاليا لأبٍ إيطالي وأم إسبانية.

تجول «فانيني» في مختلف أنحاء أوروبا كما فعل «برونو» يختبر أجواء اللاهوتيات، ويؤلف الكتب التي فيها ومضات من فكرٍ ثاقب لا تتفق والهراء الغامض إلى أن استقر به الأمر في «تولوز» ١٦١٧، حيث قضى مثل «برونو» عامين ينعم فيهما بالهدوء، ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد، ويعارض فكرة وجود إله بشري.

وثمة مستمع آخر هو «سيردي فرانسون» كسب ثقة «فانيني» واستدرجه وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة، فقُبض عليه في ٢ آب ١٦١٨، واستناداً إلى محاضراته اتُّهِم بالإلحاد والتجديف، وأكَّد «فانيني» إيمانه بالله لكن «فرانسون» زعم أن السجين صرَّح بإلحاده وكفره أكثر من مرَّة،

وأقرَّ القضاة شهادة الشاهد، وصدر الحكم عليه بأن:

«يُسلَّم إلى الجلاد الذي يجره إلى سياج نقَّال وهو في قميصه، وحبل المشنقة حول عنقه، حاملاً فوق كتفيه إعلاناً يقول: ملحد، دنَّس إسم الله، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيس لكنيسة القديس «ستيفن» وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك، ومن العدالة، عن تجديفه، وإلحاده، ثم **يسوقه إلى ميدان «سالين» ويشده إلى خازوق مُقَامٍ هناك، ويقطع لسانه، ويشنقه، ثم يحرق جسمه، ثم يترك الرماد لتذروه الرياح»**[1].

---

(١) Ibid, 400.

المواجهة الصعبة

في ظل الصراعات المذهبية، والحروب الدينية أحسَّ الناس بالحيرة بالديانة المسيحية وتزعزع إيمانهم بها، كما دعت دراسة الكتاب المقدَّس إلى الشك في معانيه وفي عصمته عن الخطأ، ولم تعد القضية في نظر «برونو» و«ديكارت» و«هوبز» و«سبينوزا» و«بسكال» و«بل» و«هلباخ» و«هلفيش» و«فولتير» و«هيوم» و«ليبنتز» و«كانت» قضية كاثوليكية ضد بروتستانتية، بل قضية المسيحية نفسها، إذ انصبت حملات النقد على الكتاب المقدس، وقاتلت الفرق المتزايدة بعضها بعضاً، وتركت الديانة المسيحية ضائعة في مهب ريح العقلانية.

إنَّ مفكري أوروبا لم يعودوا يناقشون سلطة البابا، بل أخذوا يناقشون وجود الله، وكان الموحِّدون في إيطاليا، وسويسرا، وبولنده، وهولندة، وإنكلترا قد أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح، وكان هناك الربوبيون الذين آمنوا بالله فقط دون ديانات أخرى، ورغبوا في أن يجعلوا من المسيحية مذهباً أخلاقياً فحسب لا عقيدة دينية. وأشد جرأة منهم كان الأبيقوريون في المانيا الذين سخروا من يوم الحساب الذي

طال ترقبه. وأمّا في قاعات محكمة التفتيش فكان النزاع بين العلم والدين.

قال «بيل» في عام ١٦٨٦: «إنَّ العصر الذي نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين، ويدهش الناس لكثرة عددهم»[١].

ويقول القديس «فانسان دبول» (١٦٤٨): يشكو عدة رعاة (للكنيسة) من أنَّ عدد مَن يتناولون القربان قد تقلص، ففي «سان سولبيس» نقص العدد ثلاثة آلاف، ووجد راعي «سان ـ نيكولا ـ دو ـ شاردونيه» أنَّ ألفاً وخمسماية من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة»[٢].

وبدأ «هوبز» و«سبينوزا» و«بيل» يكيلون التهم على الدين وحال الإيمان، وأخذ الناس في باريس (١٧٠٣) يسخرون من التقوى والصلاح، وتجاوزت فوضى الدين كل الحدود خصوصاً مع ظهور مَن يسمونهم «العقول القوية».

وتحطمت الكنيسة الإنكليزية في عام ١٦٤٣ بإلغاء الحكومة، «الأسقفية» في الكنيسة، بعد ما انطوى انتصار «كروموبل» على ثورة دينية. واختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة، وحُرم رجال الدين الأنجليكانيون من رواتبهم، ولم يعد يُعترف بالكنيسة الأنجليكانية ولا الكاثوليكية، **وأُعدم قسيسان شنقاً** (١٦٥٠ ـ ١٦٥٤) بتهمة تضليل

---

(١) Bayle, philosophical Commentary on... «Let them come in,» in Robinson, H,Bayle The Sceptic, 73.

(٢) Sainte - Beute, port - Royal, II, 191.

الشعب، واعترف البيوريتانز بالزواج المدني، وأُبيح الطلاق، وانتكست الأخلاق أكثر فأكثر.

وظهر **جورج فوكس**» الذي آمن بأن الدين الحق لا يوجد في الكنائس بل في القلب المتنور أو النور الباطن، وهاجمه البيوريتانيون والأنجليكانيون، والمشيخيُّون لأنه نبذ الأسرار المقدسة، والكنائس والقساوسة، وكان واعظاً بلا كنيسة. وأسوأ اضطهاد كان هو ما أصاب «جيمس تايلر» الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن، حدَّ الإدعاء بأنه هو المسيح مجسَّداً من جديد، وعبده بعض أتباعه الغيورين، وحوكم لأجل دعواه ولم يُحكم عليه بالإعدام إذ كان البيوريتانيون يسيطرون على البرلمان الإنكليزي، لكنه عُذِّبَ تعذيباً شديداً، واحتُجز وحيداً في سجنٍ لا تدفئة فيه ولا ضوء، وانهارت روحه المعنوية يوماً بعد يوم، فاعترف بأنه غرر به، فأُفرج عنه (١٦٥٩) وقضى نحبه فقيراً معدماً في عام ١٦٦٠.

وسار «**جون بنيان**» على نفس النهج، وسُجن، وأُطلق سراحه للمرة الأخيرة عام ١٦٧٥، وعاد إلى الوعظ وكتب الجزء الأول من «انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني» عام ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني عام ١٦٨٤؛ على أن هذه الفكرة (حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة) فكرة صوفية قديمة، انتشرت في القرون الوسطى مذ رأى «تايلور» و«بنيان» وغيره أنَّ المسيحية في ظل الكنيسة إضطهاد، وضيق أفق.

* * *

ورفض الشاعر الشاب «**جون ملتون**» (١٦٠٨ ـ ١٦٤٠) ـ الذي كان أبوه يتوقع أن ينخرط في سلك الخدمة الكهنوتية بعدما تخرج إبنه من كمبردج ١٦٣٢ ـ مبدأ عدم الطلاق في المسيحية، وكتب «مبدأ الطلاق ونظامه» ونُشر دون توقيع، وأهداه إلى برلمان انكلترا وجمعية «وستنمستر» وتقدَّم إلى البرلمان بإقرار أسسٍ وشروطٍ للطلاق، مستنداً إلى ما ورد في التوراة: «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، كتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته»[١].

ومن الواضح أنَّ السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى، فقد جاء في إنجيل متى: «وقيل مَن طلَّق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم: إنَّ مَن طلَّق امرأته إلا لِعلَّة الزنى يجعلها تزني»[٢].

واحتج «ملتون»: بأن «المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفي كلمة بكلمة» «.. لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تُنَفِّر من الزواج، حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة، حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة بمجرد جثة»[٣].

وحيث أخفق في أن يجعل البرلمان يعدِّل قانون الطلاق، اعتزم أن يتحدى القانون، ويتخذ زوجة ثانية، وعلى أساسٍ من الأسفار المقدَّسة

(١) سفر التثنية: (٢٤ ـ ١).
(٢) متى: (٥ ـ ٣١، ٣٢).
(٣) كما ذكر ول ديورانت في قصة الحضارة مجلد: ٣١ ـ ٣٢ ص: ٧٠ القسم الثاني، نقلاً عن مصدره المذكور في كتابه.

نبذ «ملتون» نظرية الثالوث الأقدس التقليدية، وآثرعليها «هرطقة» «أريوس» الذي يقول بأن المسيح ليس مادة الله، بل هو خير خلقه فقط، ولم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره، ولم يُقم الشعائر الدينية في بيته، وازدرى رجال الدين وملأ حياته بالكتابة وتأليف الكتب التي كان منها «الفردوس المفقود» وبقي في ظل شعره وكتاباته رغم عماه أواخر عمره إلى أن توفي عام ١٦٤٠.

* * *

وأدَّت دراسات «**إسحاق نيوتن**» العالم الرياضي ـ الفيزيائي (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) للاهوت إلى نتائج أشبه بالآريوسية، وهي قريبة الشبه بأفكار «ملتون» فالمسيح ليس مساوياً للَّه الآب في الزمن أو القوة[1]، وقد كتب تعليقاً على سِفْر الرؤيا، ورأى أنَّ المسيح الكذَّاب المتنبأ به في السِفر هو بابا روما.

* * *

وفي «وحي العقل» أوضح الكاتب الإنكليزي **تشارلز بلونت**» (١٦٩٣) أنَّ اللاهوت المسيحي قام أول الأمر على توقع خاطىء لإنتهاء العالم في وقتٍ قريب أو مبكر، وسخر من قصص الكتاب المقدس عن الخليقة، ومن مولد حواء من ضلع آدم، ومن الخطيئة الأصلية، ومن إيقاف يشوع الشمس، واعتبرها جميعاً سخافات صبيانية، وأومأ إلى أن «الإعتقاد بأن أرضنا الحديثة هي قلب هذا الكون الشاسع الهائل، وأعظم أجزائه سمواً وحيوية، إنما هو اعتقاد

---

(١) Robertson, Free Thought, II, 112 - 13.

غير منطقي وغير عقلاني، يتعارض مع طبيعة الأشياء»[1].

* * *

وكتب «**جون تولاند**» الإيرلندي المولد ـ درس في «جلاسجو» و«ليدن» «وأكسفورد» ـ «. . . إنَّ الإعتقاد بألوهية الأسفار المقدسة أو بمعنى أي مقطع منه دون برهان عقلي أو حجة دامغة قوية، إنما هو سذاجة أو سرعة تصديق جديرة باللوم. . . ومن المألوف أن يميل بعض الناس إلى سرعة التصديق عن جهلٍ وعن عمد، لكن الأكثر من هذا أن ما يتوقعون من نفع هو الذي يدفعهم إلى سرعة التصديق»[2].

وعرَّض بذلك «تولاند» نفسه للخطر، وأُحرق كتابه بصفة رسمية أمام البرلمان الإيرلندي، وحُكم عليه بالسجن ولكنه فرَّ إلى «إنكلترا» ثم هاجر إلى القارة، وشُنَّ على كتبه حملات تفنيد واسعة النطاق (٥٤ مرة في ستين عاماً) وانتهى في سن الثانية والخمسين بداء عضال أُصيب به (١٧٢٢).

وحمل «**أنطوني كولنز**» أمانة مذهب الربوبية بعد «تولاند» بكل براعةٍ وتواضع، وكتب إليه «جون لوك» الذي عرفه كل المعرفة: «إنَّ حبَّ الحق من أجل الحق وحده هو الجانب الأساسي في الكمال الإنساني في هذه الدنيا، ومنبت كل الفضائل، وإذا لم أكن مخطئاً، فإنك جمعت منها قدر ما وجدته في أي إنسان»[3].

---

(١) Toland, John, Christianity Not Mysterious, 6, 37.

(٢) In Robertson, Free Thought II, 55.

(٣) In Robertson, Free Thought II, 55.

وفي نظر «كولنز» وفقاً لكتابه «بحث في التفكير الحر» أنَّ تباين المذاهب والتفسيرات المتناقضة لنصوص الكتاب المقدس لتضطرنا إلى قبول حكم العقل، فلمن نحتكم بعده إذن، اللهم إلا أن نحتكم إلى القوة! وكيف يتسنى لنا من غير طريق البيِّنة، والتأمل، والإستنتاج أن نقرر أيّاً من الأسفار في الكتاب المقدس حجة موثوقة، وأيها يُطرح جانباً. وينقل «كولنز» عن أحد رجال الدين أنَّه أحصى ثلاثين ألف قراءة مختلفة اقترحها العلماء لنصوص العهد الجديد (الإنجيل) وحده. ويشير إلى «ريتشار سيمون» ونقده المتعلق بنصوص الأسفار المقدسة(١).

وواصل حركة الربوبية في إنكلترا «وليام هويستون» و«ماتيو تندال» و«توماس تشب» و«كونيرز مدلتون».

وفي مطلع القرن الثامن عشر هبط الدين في «إنكلترا» إلى الربوبية(٢).

وسيطر على الفيلسوف الإنكليزي العقلي «جون لوك» (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) نبل السيد المسيح المحبب إلى النفس، ونشر في عام ١٦٩٥ «معقولية المسيحية كما تنقلها الأسفار المقدسة» وأعاد قراءة العهد الجديد كما يمكن أن يقرأ الإنسان كتاباً جديداً، واقتبس من الإنجيل فقرة فقرة وبدا له أنَّ هذه الأساسيات (تعاليم السيد المسيح، وقصصه) لا تطلب كلها من المسيحي إلا أن يؤمن بالله، وبأنَّ المسيح رسول من

---

(١) Ibid, 88, 89.

(٢) Willey Seventeenth - Century Back Ground.

عند الله. وهذه ديانة بسيطة، صريحة، واضحة ـ كما يقول «لوك» ـ صالحة لكل إنسان لا تعتمد على أي فقه أو لاهوت. وفيما يتعلق بوجود الله فقد شعر «لوك» «بأن أعمال الطبيعة بكل دقائقها أوفى دليلٍ على وجود الله»(١).

أمّا الفلسفة الديكارتية فلم تقف من المسيحية موقفاً ثابتاً، لأن «ديكارت» الفيلسوف الفرنسي تناولها بالمديح تارة وبالتجريح أخرى. وبدا أن كل اكتشاف جديد في العلوم يؤيد «آلية» «ديكارت» في تفسير الكون، ولم يوجد مكان لرب إبراهيم وإسحاق ويعقوب في الصورة التي وضعها «ديكارت» للكون، كما أنَّ المسيح ليس موجوداً فيها، ولم يبقَ فيها إلا ربٌّ عملاق أعطى العالم حركته.

ولم يكن هذا الرب هو الربُّ «يهوه» القاسي الذي ورد ذكره في العهد القديم، ولا الرب الرحيم الذي ورد ذكره في العهد الجديد، إنه كان رب «الربوبيين» غير المادي. وتزايد انزعاج رجال اللاهوت من وجهة نظر «ديكارت» بالنسبة للمادة التي لم يرَ فيها سوى إذعاناً لقوانين الفيزياء والكيمياء، والتي لا يمكن التوفيق بينها وبين تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه في العقيدة الكاثوليكية.

وفي عام ١٦٦٥ منع لويس الرابع عشر تدريس الفلسفة في الكلية الملكية، وفي عام ١٦٧١ امتد هذا الخطر إلى جامعة باريس، وفي عام ١٦٨٧ اشترك «بوسويه» في الهجوم على الديكارتية، كما انقلب عليها «هيوت» الذي ناصر الديكارتية لأمدٍ طويل.

---

(١) Locke, Reasonableness of Christianity, Willey, 285.

وعبَّرت مقالة «بيار بيل» (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) أستاذ الفلسفة والتاريخ الفرنسي عن «بيرهو» **عن الشكوك في التثليث** «لأن الشيئين اللذين لا يختلفان عن ثالث، لا يفترق الواحد منهما عن الآخر[١]، **أما بالنسبة لتحول الخبز والنبيذ**: فلا يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح ودمه، فإن أحوال المادة ـ ومن ثم ظهور الخبز والنبيذ ـ لا يمكن أن توجد بدون المادة التي تعدل منها[٢].

وعن وراثة الناس خطيئة آدم وحواء، يقول «بيل»:

ما دام المخلوق غير موجود فلا يمكن أن يكون شريكاً في عمل خاطىء»[٣].

واعتُبر «بيل» في عداد الملحدين والمشككين بناءً على مناقشاته للعقيدة المسيحية، وانتشر تأثيره طوال القرن الثامن عشر، وأُعيد طبع قاموسه عدة مرات، تسع مرات بالفرنسية، وثلاث مرات بالإنكليزية ومرة بالألمانية.

* * *

وحرص مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) على مسالمة المسيحية، فقد اعترف بوجود الله... فأيُّ حمق أفظع من قضاء وقدر أعمى خلق كائناتٍ ذكية[٤]. ودافع عن الدين ولكنه أخضعه لتأثير المناخ والخُلُق القومي من خلال ما أشار إليه في كتابه «روح القوانين» الذي اعتبر

---

(١) Selections 208 «article Pyrrho».

(٢) Ibid, 209.

(٣) Article Abdas, 204.

(٤) Spirit of Laws, X X I V. X.

بصفة عامة أعظم إنتاج عقلي في عصره إلا أن النُّقاد تناولوه بالنقد بسرعة. واتفق الجانسنيون (أتباع جانسن) واليسوعيون ـ وهم على طرفي نقيض عادة ـ على مهاجمته على أساس أنه رفض ماكر، خبيث للمسيحية.

واتهم اليسوعيون «مونتسكيو» باتباعه فلسفة «سبينوزا»، و«هوبز» بافتراضه وجود قوانين في التاريخ مثلما هو في العلوم الطبيعية. وأكَّد «مونتسكيو» من جديد مسيحيته بإصداره عام ١٧٥٠ «دفاعاً عن روح القوانين» إلا أن رجال الدين ظلوا غير مقتنعين.

وعلى الرغم من الهجمة الكنسية عل «مونتسكيو»، فقد ظلَّ «روح القوانين» الكتاب المقدس عند الزعماء المعتدلين في الثورة الفرنسية تقريباً، وبقي «مونتسكيو» على مدى جيلٍ من الزمن صوت العقل النابض في فرنسا، وذاع صيته وامتد أثره على مرِّ القرون.

وفي عام ١٧٥٤ أُصيب بالتهاب رئوي، وفي ١٠ شباط ١٧٥٥ قضى وهو في السادسة والستين من عمره.

* * *

وصوَّب «فولتير» (١٦٩٤ ـ ١٧١٥) سهامه نحو المسيحية فصدم الفكر الديني في فرنسا بتوجيهه نقداً لاذعاً لآراء «بسكال» الدينية، فكانت النتيجة أن «الجانسنيين» ـ الذين قدَّسوا «بسكال» وآراءه حتى العبادة، وسيطروا على برلمان باريس ـ فاقوا الآن اليسوعيين في الإستنكار على «فولتير» وشجبه، وأحسَّت الكنيسة، والدولة، والملك، والبرلمان أنهم لم يعودوا يطيقون صبراً على السهام الكثيرة التي وجهها

«فولتير» نحوهم في ردّه على «بسكال» فصدر أمر سري بالقبض على «فولتير» أينما وُجد، فغادر فرنسا قبل أيام من صدور المرسوم بعد سابق تحذير من بعضهم، واشتُرط العفو عنه بإنكار أنه مؤلف كتاب «ملاحظات على أفكار «بسكال» وبشرط أن يبقى بعيداً عن «باريس» فوافق «فولتير» فوراً على إنكار أنه المؤلف، فضلاً عن أنه وُزِّع دون موافقته، وكتب إلى الدوقة «دي إيجوبون»: يقولون إنه يجب أن أتراجع... بكل سرور.. سأعلن أن «بسكال» على حقٍ دائماً، وأن القساوسة مهذبون، وديعون، منزهون عن المصلحة، وأن الرهبان ليسوا متغطرسين، ولا منصرفين إلى تدبير الدسائس، ولا حقراء، وأن محاكم التفتيش المقدَّسة هي انتصار للإنسانية والتسامح»[1].

وفي كانون الأول عادت مدام «شاتليه» إلى باريس وأقنعت الحكومة بإلغاء الأمر بإقصاء «فولتير» عن العاصمة (٢ آذار ١٧٣٥) فعاد إلى «باريس» ولكن ماضيه لاحقه فقد نشر أحد الناشرين اللصوص «رسالة إلى أورانيا» كان قد كتبها «فولتير» قبلُ بخمسة عشر سنة، هاجم فيها المسيحية، فأنكر أنه مؤلفها لكنها كانت تحمل بصمات أسلوبه وفكره، ولم يُصدَّق إنكاره فهرب إلى «اللورين» ومنها إلى «سيريه».

وتلقى من الحكومة تأكيدات أنه إذا ظل هناك دون أن يرتكب أية مخالفات أخرى فلن يعكر صفوه أحد.

وفي العاشر من حزيران ١٧٥٠ غادر «فولتير» باريس إلى برلين، وقد دعاه «فريدريك» ليكون تلميذاً عنده، ولأن فرنسا لم تكتشف «الكنز

---

(١) Ibid, 303.

المخبوء في قلبها» ولأنها تترك «فولتير» يعيش وحيداً في صحراء شامبين. . «إترك وطنك الجاحد، وتعال إلى بلدٍ يعبدك فيه أهله»[1].

و«فولتير» و«فريدريك» متفقان على الربوبية، ويؤكدان الإيمان بالله، ويعترفان بأنهما لا يعرفان عنه تعالى شيئاً قط، وهما يمقتان رجال الدين الذين يقيمون سلطانهم على ما يزعمون من قربٍ من الله[2].

وتظافر تأثير «فولتير» مع «ليبنتز» في إحياء أكاديمية برلين للعلوم إحياء قوياً، وظهر تأثير الفلسفة. ففي ٢٢ حزيران أصدر «فريدريك» أمراً جاء فيه «يجب التسامح مع جميع الأديان، وعلى الحكومة أن تتحقق من أن أحداً منكم لا يجور على غيره، لأن على كل إنسان في هذا الوطن أن يصل إلى السماء بطريقته الخاصة»[3].

وعاش «فولتير» أستاذاً، وشاعراً، وفيلسوفاً، وأديباً لـ«فريدريك» في ألمانيا، كما عاش مكرَّماً معزَّزاً في بلاطه، وكتب في السياسة، والحرب، والتاريخ وثبَّت قدمه عند «فريدريك» ردحاً من الزمن.

وكتب «فولتير» إلى مدام «بومبادور» يتوسل بنفوذها على لويس الخامس عشر ليسمح له بالعودة إلى باريس، محاولاً أن يسترضي أعداءه الكنسيين بعد عودته، بتناول القربان في عيد القيامة، فرماه اليسوعيون وأصدقاؤه بالنفاق.

(١) Frederick to Voltaire letter Apr. 7, 1737.

(٢) Frederick to Voltaire, Nov. 4, 1736, Feb. 8, 1737.

(٣) Carlye, III, 164.

وفي ٨ حزيران ١٧٥٤ غادر إلى «كولمار» ثم استأنف تجواله إلى عدة مدن، وفكر في الإقامة في «ليون» بعد أن أُخرجت بعض مسرحياته فيها على المسرح، ورفع تصفيق الإستحسان معنوياته، إلا أن رئيس الأساقفة «تنسان» اعترض على بقائه في «ليون» فرحل عنها، وغادر فرنسا إلى سويسرة حيث وجد ملجأ هناك، فاشترى دجاجاتٍ وبقرة، وزرع حديقة خُضَر، وغرس الأشجار، وأشبع رغبته بالعيش المترف من خلال استثماراته الذكية التي كانت تدر عليه ربحاً وافراً، وفي عدوِّهِ ورواحه بين «جنيف» و«لوزان» عرف سويسرة، وانسرَّ بأن وجد العديد من رجال الدين الجنيفيين متقدمين نوعاً ما في لاهوتهم، واعترفوا له سراً بأنهم لا يحتفظون من عقيدة كالفن القائمة إلا بالقليل، **وكتب «فولتير»** في «مقالٍ عن الأعراف» (١٧٥٦) بعد تنديده بدور «كالفن» في إعدام «سرفيتوس» الموحِّد:

«يبدو أن ترضية تُقدَّم اليوم لرماد «سرفيتوس»، فإن الكنائس البروتستانتية المثقفين. . قد اعتنقوا آراءه (التوحيدية)»[1].

وبعد أن زار «دالمبير» «جنيف»، و«فولتير» (١٧٥٦) وتحدث إلى بعض القساوسة، وتبادل الرأي مع «فولتير»، كتب للمجلد السابع (١٧٥٧) من الموسوعة مقالاً عن «جنيف» أثنى فيه على تحرر إكليروسها.

فقال: «إنَّ العديد منهم لا يؤمنون بلاهوت المسيح الذي كان زعيمهم «كالفن» شديد الغيرة في الدفاع عنه، والذي أمر بسببه بحرق

---

(١) Ibid, 40.

سرفيتوس. . . والخلاصة أنَّ الكثير من رعاة «جنيف» لا يدينون بغير السوسنيانية الخالصة، ويرفضون كل ما يسمى أسراراً، ويتصورون أنَّ أول مبدأ للدين الحق هو ألَّا يُطلب إلى الناس الإيمان بشيء يناقض العقل. . . وهكذا نرى من الناحية العملية أن الدين اختُزل إلى عبادة إله واحد، على الأقل بين جميع الذين لا ينتمون إلى طبقات العوام»[1].

وأُعجب «روبرتسن» ـ وهو مؤرخ كبير ـ بدقة «فولتير» عموماً في ميادينه العلمية، والتاريخية التي أكَّد فيها بوجه عام على أخطاء المسيحية في التاريخ، وهوَّن فيها من اضطهاد روما للمسيحيين، واعتبره أقلَّ اضطهاداً وفتكاً من اضطهاد الكنيسة للمهرطقين، **وذهب إلى أن** القساوسة اغتصبوا السلطان ببث التعاليم السخيفة بين الجهال والسذَّج، وباستعمال قوة الطقوس المنومة لإماتة العقل وتقوية هذه الأوهام، ورمى البابوات بأنهم بسطوا نفوذهم، وجمعوا الثروات باستعمال وثائق مثل «هبة قسطنطين» وصرَّح بأن محكمة التفتيش الإسبانية، ومذبحة «الأليجنس» المهرطقين، هما أحط ما وعى التاريخ من أحداث.

وبدت له العصور الوسطى في العالم المسيحي فاصلاً مقفراً بين «جوليان» و«رابليه» **وكان أول مَن اعترف بدَين الفكر الأوروبي لعلم العرب، وطبِّهم، وفلسفتهم.**

وإذا كان هناك مَن نقد «فولتير» في فكره «مقال الأعراف» وعرضه للتاريخ، فقد ردَّ عليهم بالتأكيد على أخطاء المسيحية، واستشهد

---

(١) Lough, 94 .

بأقوال مؤلفين معاصرين امتدحوا الحروب التي شُنَّت على الألبيجنس، وإعدام «هس» بل مذبحة القديس «برتلميو» فالعالم يحتاج ولا ريب إلى تاريخ يدفع هذه الأفعال الإجرامية ضد الإنسانية والفضيلة(١).

وعندما وضعت حرب السنين السبع فرنسا في صف أعداء «فريدريك» انبعث حب «فولتير» لفرنسا في قلبه من جديد، وكان قد أحسَّ بالخطر عليه في «سويسرة» وحالفه الحظ بلهو الملك وسط نسائه، وعفو مدام «دبومبادور» عن حماقات «فولتير» فغضَّت الحكومة الفرنسية الطرف الآن عن عودته، وعاد إلى فرنسا (١٧٥٨) وكان في الرابعة والستين. وفي هذه الأثناء كانت الرقابة في فرنسا قد اتسعت وكان هناك ستة وسبعون رقيباً رسمياً عام ١٧٤١ على الطباعة والنشر لأي شيء، واحتج الفلاسفة (الناقدون للمسيحية) على الرقابة لأنها تحكم على الفكر الفرنسي بالعقم. ونجت رسائل «فولتير» من كثيرٍ من الرقابة، وطُبعت عدة كتب خارج فرنسا لتُستَورد إليها من جديد بأسماء مستعارة وإنكارها إذا اتُّهم أصحابها بتأليفها.

ونشر «فولتير» أجزاء من كتاب «عهدي الجديد» لـ«جان مسلييه» (١٦٧٨ ـ ١٧٣٣) راعي أبرشية «أتربيني» في «شمبانيا» الذي هو عبارة عن ثلاث نسخ من مخطوطة عُنْوِنَت بذاك العنوان، توسَّل فيها الراعي الذي خدم في الأبرشية ثلاثين سنة هادئة مثالية، إلى شعب الأبرشية أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم.

وأصدر «ديدرو» و«دي هولباخ» خلاصة له في عام ١٧٧٢ تحت

---

(١) Voltaire, X V I a,250 - 51 .

عنوان «رجاحة عقل الكاهن مسلييه».

وفي كل الحملة ضد المسيحية من «بيل» إلى الثورة، لم يوجد هجوم متطرف قاسٍ لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية، وراعي الأبرشية هذا.

ورأى «فولتير» في بعض نصوص كتاب «جان» شيئاً من التطرف، وبذل أقصى جهده عند نشره «العهد الجديد» الذي ألفه «جان» في أن يُلطف من إلحاد الكاهن بالربوبية، ولكن «مسلييه» كان متطرفاً عنيداً.

وأصدر فولتير «عهد» «جان مسلييه» بعد ترددٍ لأنه لم يكن في صف الإلحاد لإيمانه بالله وجوداً واحداً. وظلَّ حتى آخر حياته يؤسس إيمانه ويعلنه بدليل الغاية والتدبير الرائع للكون.

وبعد عام ١٧٥٠ أطلق على نفسه بصفة عامة أنه مؤمن بوجود إله[١].

«إنَّ المؤمن الموحِّد بالله رجل مقتنع كل الإقتناع بوجود كائنٍ أسمى فاضلٍ، قوي في وقتٍ معاً، خلق جميع الكائنات، يعاقب على الخطايا دون قسوة، ويثبت على صالح الأعمال برفقٍ وحنان. . .»[٢].

لقد انقلبت مناهضة «فولتير» للمسيحية إلى بُغضٍ استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ ـ ١٧٦٩) بدْأً باحتقارٍ شبابي للمعجزات، والأسرار، والأساطير، إلى تشككٍ ساخرٍ بالتثليث، وتجسُّد المسيح، وآلام المسيح، وموته تكفيراً عن خطايا البشر، ولما اعترف به «توماس

---

(١) Pomeau, Religion de Voltaire, 422.

(٢) Voltaire, Works, 82.

أكويناس» صراحة بأنه ليس في متناول العقل أو أنه يشق على الفهم.

ويصيح «فولتير» بأعلى صوته غاضباً «إقضوا على الرجس» وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة عام ١٧٥٩ واستخدمها منذ تلك اللحظة مائة مرة في عدة صيغ مختلفة.

لقد نبذ «فولتير» المسيحية بكل مذاهبها، وكتب إلى «دالمبير»:

«آمل أن تقضي على الرجس، تلك هي النقطة الهامة، ويجدر أن نهبط بها إلى ما هي عليه في إنكلترا، وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت تلك هي أجلُّ خدمة بمكن أن تؤديها إلى الجنس البشري[١].

وهكذا دعا «فولتير» كل أفراد عصبته للحرب، من خلال رسائله، وكتبه الأدبية والفلسفية.

كيف يمكن لربٍ فخورٍ، حقودٍ، غضوبٍ، قاسٍ، قاتلٍ[٢] أن يعبده عاقل؟ لقد كان «داود» وغداً منغمساً في الشهوات سفَّاحاً (في التوراة) فكيف يمكن لأحدٍ أن يصدق بأن هذا الكتاب تنزيل من عند الله؟ وكيف تسنى أن يخرج من الأناجيل اللاهوت المسيحي الذي لا يُصَدَّق، والعمل اليومي السهل الذي يحوِّل الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه، وبيع صكوك الغفران، والعداوة والبغضاء، والحرق، والرقى، والتعاويذ، والمعجزات الزائفة، والتماثيل السخيفة؟

«ألم يتعلَّم الناس الآن الإستغناء عن هذه الخرافات؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك، فالناس

---

(١) Letter of June 3, 1760.

(٢) كما في التوراة.

ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون، إنهم يستطيعون بسهولة ويسر أن يُقروا عبادة حكيمة بسيطة لإله واحد. . . إننا لا نعمل على سلب رجال الدين ما وفَّر لهم سخاءُ أتباعهم، بل إن كل ما نريده ـ حيث إن معظمهم يسخرون من الأباطيل التي يعلمونها ـ هو أن ينضموا إلينا في التبشير بالحقيقة. . . وأيِّ خيرٍ عميم لا يُحصى يمكن أن يتأتى من خلال هذا التغيير الميمون»[١].

وتابع «فولتير» الحرب بلا هوادة بين عامي: ١٧٦٥ ـ ٢٧٦٧ ـ وتساءل مرة أخرى عن أشياء في الكتاب المقدَّس لا يمكن تصديقها.

مَن خوَّل الكنيسة سلطة الحكم واختيار أربعة فقط من الخمسين إنجيلاً التي دُوّنت في القرن الذين تلا موت المسيح لتكون وحدها المعتمدة، وموحى بها من عند اللَّه؟

وأيُّ سهوٍ فاضحٍ هذا، أن يَتَحَدَّثَ الكتاب المقدس عن مولد المسيح من مريم العذارء ثم يتعقب نسبه إلى داود «الوغد» عن طريق يوسف «النجَّار» المزعوم الخامل؟ ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها؟

وهل كان بولس الذي نبذ هذه الشريعة سلطة أو مرجعاً أرقى من المسيح؟

ولم يخفِ «فولتير» عداءه للسامية، فقد فسَّر تاريخ اليهود ولم يبرأهم ولم يغفر لهم كونهم سبباً لإنجاب المسيحية، فـ«حين أرى المسيحيين

---

(١) Selected Works, 59.

يلعنون اليهود يُخيل إلي أنني أرى أبناءً يضربون آباءهم»[١]. ولم يكد يتبين له في العهد القديم شيئاً سوى كونه سِجِّلاً للقتل، والفسق، والإغتيال بالجملة، ورأى في سِفْر الأمثال «مجموعة من الحِكَم التافهة، القذرة، المهلهلة، المجردة من الذوق، أو الإختيار، أو الهدف» أما نشيد الإنشاد فهو في نظره «قصيدة حماسية سخيفة»[٢].

لقد كان في كل شهرٍ تقريباً يُرسل إلى المطابع نشرة جديدة ضد «العار» ويخفي منشوراته عادة تحت أسماء أو عناوين خدَّاعة مضللة: «محاضرات في تفسير العهد القديم» «رسالة إلى الرومان» «عظات الأب الجليل جاك روست» «محاضرات وعظات الكاهن بورن» «نصائح لأرباب الأُسعر» وباتت هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف، وتردد صداها في لندن، وأمستردام، وبرلين وفيينا، وكان مستمتعاً فرحاً بها.

ولم يكِل أو يمل قط من شجب قصة «الخطيئة الأولى» ونظريتها، وسَخِر من التثليث في كتابه «الملحد والحكيم» ويسأل الملحد: «هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة، وشخصية واحدة، وإرادة واحدة، أو أن له طبيعتين، وشخصيتين، وإرادتين، أم أن له إرادة واحدة، وطبيعة واحدة، وشخصيتين، أو إرادتين، وشخصيتين، وطبيعة واحدة؟» ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحياً طيباً[٣].

---

(١) Voltaire, English Notebooks, in Gay, 353.

(٢) Phil. Dict., art, «Solomon».

(٣) Works, Ib, 139.

لقد رأى «فولتير» في تاريخ المسيحية شقاءً بالغاً للجنس البشري، ورأى في الإصلاح البروتستانتي مجرد خطوة متعثرة نحو العقل، وامتدح الثورة ضد الرهبان في الأديرة، وبائعي صكوك الغفران، والساعين إلى جمع الثروة من رجال الدين، **وسخط من قول** القديس «أوغسطين» «أنَّ المذهب الكاثوليكي يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحاً جديدة أفضل»(١).

ولم يكن كاثوليكياً ولا بروتستانتياً، ولا مؤيداً لأي مذهب من مذاهب المسيحية أبداً باعتبارها هجمات وقحة على «المطلق اللامحدود»، وحين سأله «بوزول» (٢٩ كانون الأول ١٧٦٤).

أترى أن تكون هناك عبادة عامة؟ أجاب «فولتير»: نعم من كل قلبي، فلنجتمع أربع مرات في كل عام في معبدٍ كبير، تصدح فيه الموسيقى، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه، فهناك شمس واحدة، وهناك إله واحد، ولتكن لنا ديانة واحدة، ومن ثمّ يكون بنو البشر إخوة»(٢).

وذهب شيئاً فشيئاً إلى ارتضاء وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله، ويساعدون الفقراء شرط ألّا يستغلهم رؤساء الكنيسة، ونظر بعين الإكبار والإجلال إلى الراهبات اللاتي يقمن بأعمال البر والإحسان للمرضى والفقراء، عن طيب خاطر

(١) I'bil. Dict, art. «Sin».

(٢) Boswell on The Grand Tour: Germany and Zwitzerland, 304.

كتضحية يقدمها الجنس اللطيف للتخفيف من ويلات الإنسانية.

وشيَّد «فولتير» بالقرب من قصره في «فرني» كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة «يا رب إذكر عبدك فولتير» وادَّعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هذه الأرض، أما الكنائس الأخرى فهي مخصصة للقديسين.

وابتداءً من عام ١٧٦٠ كان «فولتير» قد بدأ يحضر القداس في كل يوم أحد، وكان يقوم بعملية البخور باعتباره سيد القرية، وفي عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الرباني، وفي ٣١ آذار ١٧٦٩ استدعى موثقاً ووقَّع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته في الموت على العقيدة الكاثوليكية، وسخر منه الأخوة في باريس، وتقبَّل هو سخريتهم بصدر رحب.

ليس من اليسير معرفة أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصاً أو كان إرضاءً لقصر «فرساي» أو أنه كان لغرض الخوف من عدم دفنه في مقابر فرنسا، فعندما ناهز الثمانين بدأت تغشاه نوبات إغماء، وقد سمَّاها هو إنذارات صغيرة، ولم يعبأ بها لأنه كان قد روَّض نفسه على الموت منذ زمنٍ بعيد ـ كما يقولون ـ وكان في باريس التي كان عاد إليها من منفاه الطويل جداً، بترحابٍ منقطع النظير.

وخطر لبعض رجال الدين أنهم قد يحققون نصراً كبيراً لو أصلحوا بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية؛ وكان نصف راغب في هذا الصلح لأنه كان يعلم بأنَّ الذين ماتوا في أحضان الكنيسة هم وحدهم الذين يمكن دفنهم في مقابر فرنسا التي تعتبر جميعها مقدَّسة.

ولمَّا بعث له الأب «جولتييه» خطاباً في ٢٠ شباط يطلب مقابلته رحَّب به، وحضر إليه وتحدثا برهة دون نتيجة لاهوتية معروفة، وفي اليوم الخامس والعشرين أُصيب «فولتير» بنزيفٍ شديد فبصق الدم، وفي اليوم الثامن والعشرين سلَّم «فولتير» «فاجنيير» اعترافاً بالإيمان نصه: «إني أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي ولا أبغض أعدائي، وأكره الإضطهاد»[١].

ولمَّا استعد «جولتييه» لمناولة القربان لـ«فولتير» اقترح عليه «فولتير» عدم تناوله قائلاً: «إنني أبصق الدم في سعالي باستمرار، ويجب أن تحذر من اختلاط دمي بدم الإله الصالح»[٢].

وفي الثالث من آذار حضر «ديدرو» و«دالامبيير» و«مارمونتيل» ليعودوا المريض، فلمَّا جاءه «جولتييه» في ذلك اليوم يحمل تعليمات من رئيسه بأن يحصل على اعترافٍ أقلَّ لبساً وأكثر تفصيلاً من سابقه (٨ آذار ١٧٧٨) في بيت المركيز «فيليت» قيل له إنَّ «فولتير» ليس في حالٍ تسمح له باستقباله، وعاد «جولتييه» عدة مرات ولكنه كان في كل مرة يصرفه الحارس الواقف بالباب.

وفي ١٣ آذار استقبل «فولتير» الكاهن «جان دنرساك» لكن الزيارة يبدو أنها لم تُسفر سوى عن تبادل المجاملات»[٣].

ثم توقف النزيف بعد ذلك فترة ما وخرج لزيارة بعض

---

(١) Lanson, Voltaire, 200.

(٢) Ibid., 236.

(٣) Ibid., 245.

الأكاديميات، والمحافل، وحضور بعض المسرحيات التي لاقى فيها كثير ترحيبٍ وتبجيل. وكانت هذه الأسابيع الأخيرة من حياته، ففي ١١ أيار أصابه هذيان، وشوَّه الألم وجهه، وجفاه النوم ليلاً، وظلَّ عدة أيام لا ينطق بكلمة ولا يُمسك طعاماً، والتمس إعادته إلى «فرنيه» ولكن الأوان كان قد فات، ففي ٣٠ أيار قَدِمَ الأب «جولتييه» وكاهن «سان ـ سولبيس» لمناولته سر الكنيسة المقدس إذا أضاف لاعترافه السابق بالإيمان إيمانه بلاهوت المسيح، وزعمت قصة رواها «كوندورسيه»[(١)] أن «فولتير» صاح: «بالله لا تكلموني عن ذلك الإنسان!».

أمَّا «لا هارب» فروى أن جواب «فولتير» كان: «دعوني أمت بسلام». وتوفي «فولتير» وسِيرَ به في موكبٍ مهيب، وكان الأب «منيو» متوقعاً عدم السماح بدفنه في مقبرة باريسيه، لكنه سُمح بدفنه في قبو كنيسة «دير سكلبير» في قرية «رومبي» على «السين».

وفي تموز ١٧٩١، وبأمرٍ من الجمعية التأسيسية للثورة، نُقل رفات «فولتير» من دير «مسكليبر» إلى «باريس» وطافوا به المدينة بموكب النصر، ثم دُفن الرفات في كنيسة «سانت جنفييف» «البانتيون» وفي أيام ١٨١٤ أثناء عودة الملكية البوربونية، نقلت جماعة من الغيلان الأتقياء رفات «فولتير» و«روسو» من «الباتنيون» خفية، وأودعته غرارة، ودفنته في مقلبٍ بأطراف باريس، ولم يُعثر للرفات بعد ذلك على أثر.

---

(١) Pomeau, 447.

جان مسلييه

(١٦٧٨ ـــ ١٧٣٣)

قضى نحبه وهو في الخامسة والخمسين، في ظل حياة معتدلة بعيدة عن الإسراف والتبذير، راعياً لأبرشية «أتربيني» في «شمبانيا» وصوَّت إلى جانب العقل وأيَّده، **وتساءل**: لماذا اختلف نسب السيد المسيح في إنجيل «متى» اختلافاً كبيراً عنه في إنجيل «لوقا» إذا كان كلاهما منزلاً من عند الله؟

لماذا لم تنتهِ سلسلتا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيُعفى سريعاً من إنجاب يسوع؟

لماذا يُمتدح إبن الله بأنه إبن داود الذي كان زانياً[١] بكل معنى الكلمة؟

وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح، أم أن هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية؟

---

(١) وفقاً لما هو مذكور في العهد القديم.

وهل كانت معجزات العهد الجديد حِيَلاً أو خداعات ورعة، أم كانت عمليات طبيعية أُسيء فهمها؟

وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل؟

«أيُّ رجلٍ عاقلٍ يُصدق أن الله لكي يسترضي البشر، ويستميلهم يمكن أن يضحي بابنه البريء الذي لم يرتكب إثماً؟[١].

لقد زعزعت الخلافات الدينية أركان الأمبراطوريات، وأدَّت إلى الثورات، ودمَّرت الملوك، وخرَّبت أوروبا بأسرها... إنَّ الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين...»[٢].

---

(١) X C مصدر قصة الحضارة ـ وِل ديورانت.

(٢) C I. V مصدر قصة الحضارة ـ وِل ديورانت.

جوزيف يريستلي[1]

في كتابه: «تاريخ تحريفات المسيحية» (١٧٨٢) رفض المعجزات، وسقوط آدم، وكفارة المسيح، وعقيدة الثالوث، **وذهب إلى أن هذه العقائد كلها تحريفات** أُدخلت أثناء تطور المسيحية، إذ لا وجود لها في تعاليم المسيح والرسل الإثني عشر. ولم يبقَ من المسيحية عند «بريستلي» غير الإيمان بالله المبني على شهادة للقصد الإلهي في الخلق والوجود، وألمح إلى أن الله في يوم الحشر سيعيد خلق الأموات جميعاً، وأنَّ «يوتوبيا» «سعادة» ستبنى على هذه الأرض بانتصار العلم على الخرافة والجهل.

وأجاب «بريستلي» عن تحذير القديس «بولس» الذي قال فيه: «إنَّ السلاطين الكائنة هي مرتبة من الله» بقوله: «للسبب نفسه ستكون سلاطين المستقبل مرتبة من الله أيضاً»[2].

---

(١) ظل الفضل في اكتشاف الأوكسجين يُنسب إليه طويلاً لا إلى «شيليه» الذي اكتشفه قبله بعامين دون أن ينشر.

(٢) Ibid. in Willey, 197.

وفي عام ١٧٩١ انطلق جمع إلى بيت «بريستلي» في «برمنغهام» فأحرقوه، وأتوا على مختبره، ومكتبته، ومخطوطاته، ففرَّ إلى «دِدْلي» ثم إلى «لندن»، وتجنب رجال الكنيسة، وأنصار المَلَكِيَّة صحبته، بوصفه مسيحياً متمرداً، ومعارضاً للنظام الملكي.

وفي الثامن من نيسان ١٧٩٤ هاجر إلى أميركا، وعُرض عليه كرسي الكيمياء في جامعة «بنسلفانيا». وفي عام ١٧٩٦ ألقى على الجامعيين في «فيلادلفيا» سلسلة من الأحاديث عن «الشواهد على المسيحية» ومن هذه الإجتماعات انبعثت جمعية الموحدين.

جوليان ـ أجوفروي ـ دي ـ لامتري

(١٧٠٩ ــ ١٧٥١)

الطبيب الفيلسوف، شبَّ جانسياً (أتباع جانس) متحمساً، درس مهنة الطب، ومارسها، وتحول إلى الفلسفة. وفي «ليون» أصدر كتاب «الإنسان آلة» يشرح فيه أفعال الجسم، كيف تعمل بطريقة آلية مختلفة عن جسم الحيوان وعمليات أعضائه، وتأثير الغذاء على النفس، والجسد، والطباع.

وفي كتاب «الإنسان نبات» (١٧٤٨) توسَّع في سلسلة الوجود الكبيرة إلى نظرية للتطور، وبرهن على أن بعض الحيوانات لديها ذكاء وتفكر، كالقرد، والسمُّور، والفيل، ورأى أنَّ الإنسان لم يعد قرداً «إلا عندما اخترع أصواتاً معينة لتكون تعبيراً مناسباً عن أفكارٍ بعينها، وأصبح إنساناً بفضل اللغة»[١].

وفي كتبٍ ثلاثة مستقلة عبَّر عن مذهبه القائم على اللذة،

---

(١) La Mattrie, 103 .

والسعادة، وفن الإستمتاع ما دام لا ينطوي ذلك على الإضرار بالغير، وكره تحقير اللاهوتيين لملذات الحياة، وهاجمه رجال الدين، واعتبروه مبعوثاً من عند الشيطان، واستحث رجال اللاهوت في «ليدن» الحكومة الهولندية لإبعاده عن البلاد، واصطدم «فولتير» بـ«لامتري» في حاشية الملك الأكبر «فريدريك» الذي دعاه للحضور إلى «بروسيا» وضمَّه إلى أكاديمية العلوم في «برلين» وطبيباً في حاشيته.

وهل أقرَّ «لامرتي» بوجود حاجة لإله محرِّكٍ للعالم أو للكون؟

لقد رفضها، وخالف «فولتير» و«ديدرو» في ذلك، «فلا يهمنا في ألّا يوجد إله»[1]. فعند ذاك لا يكون ثمة مزيدٍ من خلافات لاهوتية أو اضطهادات من جانب الكنيسة، ولا مزيدٍ من الحروب الدينية، ويمكن للإنسان حينئذٍ أن يعبر عن الطبيعية عنده دون شعورٍ بالإثم.

وفي ١١ تشرين الثاني ١٧٥١ قتل المرض طبيبه إثر حمى شديدة أصابته نتيجة إتخامٍ من فطيرة لحم طيرٍ تناولها في مأدبة عشاء دعاه إليها مريض عالجه من داءٍ عضالٍ، فقدَّم نفسه مثالاً ـ وهو في الثانية والأربعين ـ لمسرحية الموت التي وصف الموت من خلالها بأنه مسرحية هزلية ساخرة تُمثَّل[2].

---

(١) La Mattrie, 222.

(٢) Desnoiresterres, IV, 198, 200.

ديدرو

(١٧١٣ ــ ١٧٦٨)

كان ديدرو الفيلسوف الفرنسي، ربوبياً. إنَّ شواهد تصميم العالم وتكوينه تُرغم على الإيمان برب ذكي بارع، ويمكن أن يُفسِّر المذهب الآلي المادة والحركة ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر. هل رأيتم في تفكير أي إنسان وأعماله، ذكاءً، ونظاماً، وحكمة، واتساقاً أكثر من تركيب الحشرة؟ أليست بصمات الإله واضحة في عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير في أعمال «نيوتن» العظيم... **فكِّروا في أنني لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة، وعين البعوضة في حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون**[١].

وهكذا نبذ «ديدرو» الإله الذي جاء به الكتاب المقدس حيث بدا له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة، واتهم الكنيسة التي نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل، والتعصب، والاضطهاد، وطالب «بتعظيم الإله وتحريره».

---

(١) Vartanian, Diderot and Descurtes, 115.

وأمر برلمان باريس بإحراق كتاب «ديدرو» «أفكار فلسفية» بتهمة إفساد الذهنية البشرية؛ وبوضعه كل الأديان في مستوى واحدٍ تقريباً.

وكان إحراق الكتاب الصغير هذا، (٧ تموز ١٧٤٦) بمثابة إعلان عنه، فتُرجم إلى الألمانية والإيطالية، وارتفع «ديدرو» إلى مرتبة تداني «فولتير».

وألَّف «ديدور» كتاباً آخر «نزهة الشكاك» لم يظهر حتى عام ١٨٣٠ بعد أن كان سمع به كاهن الأبرشية (١٧٤٧) فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمي المسيحية من هجومٍ ثانٍ، فداهمت الشرطة داره، وصادرت مخطوطة الكتاب أو ـ كما يُروى ـ قَنِعَت بعدم نشره وكان في صدور الكتاب (١٨٣٠) تنفيس عن مشاعر وآراء «ديدرو» بحيلة الفيلسوف الحوارية التي تدور بين الربوبي والملحد، وإقامة الحجة المأخوذة من نظام الكون، وتكييف الوسائل مع الغايات في الكائنات تكييفاً لا يمكن أن ينشأ عن طريق الصدفة والإتفاق.

وعلى أي حال فإنَّ «ديدرو» أُودع السجن لكتابه «رسالة العميان» و«الأفكار الفلسفية» و«الحلى الزائفة» التي رأى فيها رجال الدين علة الإلحاد والزندقة. وتوسَّلت زوجته «إنطوانيت» إلى رئيس الشرطة «بريبه» لإطلاق سراح زوجها، ولمَّا حُقِّق مع «ديدرو» أنكر أنه مؤلف تلك الكتب، لكن رئيس الشرطة أدرك أنه يكذب فأعاده إلى السجن وحيداً في زنزانة قلعة «فنسان» في ضواحي باريس.

وفي الثالث من تشرين الثاني ١٧٤٩ أُفرج عنه بعد قضاء ثلاثة

أشهرٍ ونصف في السجن، وبعد اعترافه بأنه كتب الكتب الثلاث تلك وأنها ستكون الأخيرة والوحيدة.

وبدأ «ديدرو» عمله بعد ذلك في مشروع إعداد «موسوعة» ولم يكن قد نسي قلعة«فنسان» بعد فتجنب «الهرطقة. وفي الرسائل التي كتبها كانت مواضيع شتى، ولم يكن المجلد الأول الذي صدر من الموسوعة ضد الدين بشكلٍ سافر، وكثيراً ما وُجدت هرطقات مغلَّفة، وهجمات على الخرافة، والتعصب مستترة بمقالات بريئة. وعلى الرغم من كل شيء فإنَّ اليسوعيين استقبلوا المجلد الأول من الموسوعة استقبالاً ودياً، وحرص الكهنة والأساقفة على مراقبة المجلدات الأخرى التي كانت تصدر والتدقيق فيها بعناية فائقة.

وفي ٣١ كانون الثاني اتَّهم مطران باريس «كريستوف دي بومونت» الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينية.

وفي السابع من شباط صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها، ولم يُعتقل «ديدرو» ولكن الحكومة صادرت كل المادة التي كان قد جمعها، وكتب «فولتير» من «بوتدام» يستحث «ديدرو» على نقل المشروع إلى برلين» للنهوض به تحت حماية «فريدريك» ولكن «ديدرو» وقف عاجزاً بدون المادة التي صودرت.

وفي ربيع عام ١٧٥٢ وافق مجلس الحكومة على نشر المجلدات الأخرى مع تهدئة خواطر رجال الدين ومراجعة ثلاثة من رجال اللاهوت لها، يختارهم الأسقف السابق «بوير».

ومهما يكن من أمر فإن «ديدرو» تابع في المجلد الثالث هجماته

غير المباشرة على المسيحية مغلَّفة بالجهر بالإيمان بالعقيدة القويمة، وأبرزت مقالته «التوقيت الزمني المقدس» مرة أخرى تناقضات التوراة، وألقت ظلالاً من الشك على نصوص الأسفار.

وفي الخامس من كانون الثاني ١٧٥٧ بُذلت محاولة لقتل الملك، فكان ردُّ الملك عليها أنه أحيا قانوناً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهاجم الديانة أو تزعج الدولة، وزُجَّ بعددٍ من الكُتَّاب في السجن إلا أنه لم يُعدَم أحد. وقطع «دالمبير» ـ الذي كان قد صمم على الاقتصار في الكتابة في الموسوعة على الرياضيات فقط ـ علاقته بالموسوعة خوفاً من ردَّات الفعل السلبية عليه، فكتب إليه «فولتير» يستحثه على المتابعة إلَّا أن «دالمبير» أجابه بأنَّ المتابعة ستُودي بنا بإلقائنا في المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن إذا تابعنا الموضوع، وأذعن «فولتير» لرأي «دالمبير» ونصح «ديدرو» بالتخلي عن الموسوعة لأنه إنه إذا استمر العمل فيها بأية حال، فستكون خاضعة لرقابة تقضي على قيمة العمل باعتباره آداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا[١].

وفترت همَّة «ديدرو» لفترة من الزمن، إلا أنه لم يستسلم، وحرَّض الناشرين على ألَّا يستسلموا رغم صدور قرار من مجلس الدولة بتحريم متابعة نشر الموسوعة تحريماً تاماً.

وفي أيلول عام ١٧٦٢ عرضت «كاثرين» قيصرة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة في «سان بطرسبرغ» وجاء مثل هذا

---

(١) Wilson, 288 - 89.

العرض من «فريدريك الأكبر» عن طريق «فولتير» وربما استحثت هذه الإقتراحات الرجال الرسميين في فرنسا على إجازة الطبع واستمرار النشر والعمل في باريس، وظهر المجلد الأخير من النصوص عام ١٧٦٥ وأُضيف أحد عشر مجلداً للوحات والرسوم فيما بين عامي ١٧٦٥ و١٧٧٢ وصدرت ملاحق أخرى من خمسة مجلدات، وطُلب إلى «ديدرو» تحريرها إلا أنه كان منهوكاً فرفض بعد أن استنزفت الموسوعة قواه حيث كانت سلاحاً من الأسلحة التي استخدمها هو والفلاسفة الآخرون في صراعهم ضد المسيحية الوحيدة التي عرفوها، والتي لم يؤيِّدوا فيها الإلحاد بل الربوبية.

جان ـ جاك ـ روسو

(١٧١٢ ـــ ١٧٧٨)

من جملة الصيحات الجريئة على المسيحية تلك التي نطق بها الفيلسوف والأديب الفرنسي «جان جاك روسو» **فقد عبَّر عن توحيده للإله، ورفضه للاهوت المسيح** في كتابه «إميل» (أيار ١٧٦٢) في أكثر من موضع. فإن المسيحي ـ كما رأى ـ إذا أخذ لاهوته مأخذ الجِد، فهو إلى هذا الحد مواطن ضعيف. . . قد يقاتل دفاعاً عن وطنه، ولكنه لا يفعل إلا تحت إكراه وإشرافٍ مستمرَّين. . . لأن له وطناً واحداً فقط هو الكنيسة. والمسيحية تبشر بالعبودية والتبعيَّة الطيِّعة، ومن ثم كانت روحها مؤاتية جداً للإستبداد بحيث إنَّ الطغاة يرحبون بتعاونها.

«إنَّ المسيحيين الحقيقيين خُلقوا ليكونوا عبيداً»[١].

وأقرَّ «روسو» بعقيدته الموحِّدة «فوجود إله قادر، ذكي، خيِّر. . . وحياة آخرة، وسعادة الأبرار، وعقاب الأشرار، وقداسة العقد

---

(١) Ibid.

الإجتماعي؛ تلك هي عقائد الدين الإيجابية»[(١)].

وأنكر الخطيئة الأصلية الموروثة في البشر إذ «ليس في القلب البشري خطيئة أصلية. . . فالتلميذ «في أفعاله التي لا صبغة أخلاقية لها كلها لا يمكن أن يأتي بخطأ من الناحية الأخلاقية ولا يستحق عقاباً ولا تقريعاً. . . فابدأ بترك بذرة شخصية حرة في الإفصاح عن نفسها، ولا تقسره على شيء، وبهذا يتكشف لك على حقيقته»[(٢)]. على أنه سيحتاج إلى التربية الخُلُقية، لأنه من دونها يصبح إنساناً خطراً، تعساً.

فـ«القدوة، القدوة! فبدونها لن تنجح في تعليم أي شيء للأطفال»[(٣)].

ويصوِّر «روسو» كاهن «سافوي» «Savoy» في كتابه «إعلان بإيمان كاهن سافوي» قسيساً على أبرشية صغيرة في الألْب الإيطالية، وهو يعترف سراً بشيء من الشكوكية، ويرتاب في الوحي الإلهي للأنبياء، وفي معجزات الرسل والقديسين، وفي صحة الأناجيل، ثم يتساءل كما يتساءل «هيوم»: مَن يُجرؤ على أن يخبرني كم شاهد عيان يقتضيهم إقناعنا بتصديق معجزة ما؟

وهو يرفض صلاة التضرع، فصلواتنا يجب أن تكون ترانيم لمجد الله، وتعبيرات عن امتثالنا لمشيئته، كما يرى أنَّ الكثير من مواد العقيدة الكاثوليكية حديث خرافة أو أساطير الأولين[(٤)].

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, 21 - 22 - 46.

(٣) Ibid, 341.

(٤) Ibid, 272.

والخطوة التالية كما (يُسَلِّم الكاهن) هي الإستدلال العقلي الخالص، فأنا لا أدرك الله بحسي، ولكن استدل عقلاً على أنه كما أن في أفعالي الإرادية عقلاً هو السبب المدرك للحركة، كذلك هناك على الأرجح عقل كوني وراء تحركات الكون. إن الله لا يمكن معرفته، ولكني أشعر أنه تعالى موجود وفي كل مكان، وأُبصر قصداً في مئات الحالات من تكوين عيني إلى حركات النجوم، وينبغي ألَّا أفكر في أن أنسب إلى الصدفة تكييف الوسائل وفق الغايات في الكائنات الحية ونظام العالم، أكثر مما أنسب إلى الصدفة تجميع الحروف تجميعاً لذيذاً في طبع الإلياذة[١].

فإذا كان هناك إله ذكي وراء عجائب الكون، فمحال أنه سيسمح بأن يُهزَم الحق هزيمة دائمة. ولا بد لي من الإيمان بإلهٍ خيِّر يؤكد انتصار الخير ولو لِأتحاشى ذلك الإيمان الكئيب بانتصار الشر. إذن يجب أن أومن بحياة آخرة، بجنة تُجزى فيها الفضيلة... **وهبنا عاجزين عن البرهان على وجود الجنة، فيا لها من قسوة أن ننتزع من الناس هذا الرجاء الذي يعزيهم في أحزانهم ويشدد عزائمهم في هزائمهم**. وعليه وجب أن نتقبَّل الدين على أنه منحة وعطية كبرى للبشر.

وقد رفض «روسو» عقيدة الخطيئة الأصلية والدور الفدائي الذي يؤديه موت المسيح، وذلك برغم قبوله الرسمي للكلفنية، وأبى قبول العهد القديم بوصفه كلمة الله، **وذهب إلى أن العهد الجديد** «يحفل

---

(١) Ibid, 238 - 249 .

بأشياء لا يمكن تصديقها، أشياء ينفر منها القعل»[1].

مع هذه الآراء هل فلت كتاب «إميل» هذا من الرقابة والنشر؟

لقد حثَّ الرقيب المتسامح، العطوف «كان مالزبرب» «روسو» على أن يحذف من كتابه الفقرات التي تدفع الكنيسة إلى العداء القوي له قبل أن يُنشر الكتاب إلا أن «روسو» رفض، وذكر إسمه بشجاعة على غلاف كتابه، وسائر كتبه الأخرى.

وأدان أحبار فرنسا، وقضاة باريس، وجنيف، كتاب «إميل» باعتباره مروقاً عن المسيحية، واقترح مجلس الدولة أن يُلقي القبض على «روسو» فلما نما الخبر إليه نُصح بالرحيل فوراً عن فرنسا، وأذعن للنصح على مضض، وعبر بالعربة الطريق الطويل من فرنسا إلى سويسرا، وفي التاسع من حزيران كان مرسوم القبض عليه قد صدر، لكن «روسو» كان قد وصل إلى سويسرا. وفي ١١ حزيران مُزِّق، وأُحرق كتاب «إميل» كما أمر البرلمان الفرنسي، في فناء قصر «العدل» وحُظِّر طبعه، ونشره، وتوزيعه.

ولكن هل انتهت المشكلة بهذا الهروب والرحيل؟

لم يكن «روسو» مطمئناً كل الإطمئنان، ففي ١٩ حزيران أدان مجلس الخمسة والعشرين الذي يحكم جنيف كلاً من «إميل» و«العقد الإجتماعي» لأنهما خارجان عن التقوى، فاضحان، وقحان، مفعمان بالتجاديف، والإفتراءات على الدين، وقد جمع المؤلف تحت ستار الشك كل ما من شأنه أن يُضعف المقومات الرئيسة للدين المسيحي

---

(١) Emile, 272.

المنزل، ويهزها، ويهدمها. . . ويتعاظم خطر الكتابين، ووجوب شجبهما لأنهما مكتوبان بالفرنسية (لا باللاتينية التي لا يفهمها إلا القلة) بإسلوب شديد الإغراء، منشوران باسم مواطن جنيفي[1].

وعليه فقد أمر المجلس بحرق الكتابين، وتحريم بيعهما، وأصدر مرسوماً بالقبض على «روسو» إذا دخل يوماً ما أرض الجمهورية. وانقلب صديق السنين الطويلة «يعقوب فيرن» على «روسو» وطالبه بسحب أقواله. يقول «روسو» وهو يذكر ذلك الموقف:

«لو سَرَتْ بين الجماهير أية شائعة عني لأضرَّت بي، وقد عاملني كل مروجي الشائعات والمتفيقهين كأنني تلميذ يهدَّدُ بالجلد لأنه لم يُحسن حفظ درسه الديني»[2].

ودعا «فولتير» «روسو» إليه بعد أن علم أنه دون ملجأ، إلا أنَّ «روسو» لم يرد عليها، وفي ١٧٦٣ جدَّد «فولتير» الدعوة فرفضها «روسو» متهماً إياه بتحريض مجلس الخمسة والعشرين على إدانة «العقد الإجتماعي» و«أميل» ولكن «فولتير» أنكر التهمة.

وفي بواكير عام ١٧٦٢ من شهر تموز أخطر مجلس شيوخ «برن» في سويسرا «روسو» بأن عليه أن يرحل في غضون خمسة عشر يوماً وإلا سُجن.

وحوالي ١١ تموز تقدَّم «روسو» بطلب التجاء، والتماس عطفٍ إلى ملك «بروسيا» «فريدريك» فلبَّاه.

---

(١) The Confessions II, 232.

(٢) The Confessions, II, 255.

ولم تطل إقامة «روسو» في «بروسيا» حتى دعاه «هيوم» إلى «إنكلترا» بعد أن التقى به في كانون الثاني ١٧٦٦ في زيارة وداع «هيوم» لضيوغف البارون «دولباخ» وإخبارهم مآمالر في إنقاذ «الرجل قصير القامة» من الإضطهاد، وتوفير أسباب السعادة له في إنكلترا.

وصل «هيوم» و«روسو» إلى لندن في ١٣ كانون الثاني ١٧٦٦، وأقنع «هيوم» المشكك، صديقه «كوفواي» بمعاشٍ للغريب الكبير، ووافق جورج الثالث على منحه مائة جنية في العام.

وبالجملة كان «هيوم» إلى هنا مسروراً بضيفه غاية السرور، لكن سعادة «روسو» في لندن لم تدم لأكثر من إسبوع، ففي ٣ نيسان نشرت مجلة لندنية تسمى «سانت جيمس كرونكل» بالفرنسية والإنكليزية خطاب «فريدريك» الأكبر المزعوم إلى «روسو» حين كان دعاه إلى بروسيا، دون إشارة إلى كاتبه الحقيقي، حتى ظن «روسو» أن هناك مؤامرة عليه لأجل التغير المفاجىء في لهجة الصحف البريطانية، فمن الترحيب والتكريم إلى الهزء والتحقير فجأة، وصعب الأمر في نفس «روسو» حين عرف أن محرر المجلة اللندنية تلك هو «وليام ستراهان» الذي كان صديقاً قديماً لـ«هيوم» وكثرت المقالات التي انتقدت الفيلسوف غريب الأطوار، وأغلب الظن ـ كما تصور ـ «روسو» أن «هيوم» كان وراء جميع ذلك، وأنه كان على علمٍ تام بنقائصه، فبعث برسالةٍ إلى «هيوم» شاكراً ومعاتباً، ولكن ردَّ هيوم على «روسو» كان موجزاً (٢٢ تموز ١٧٦٦) ولم يُجب على التُّهم التي وجهها إليه.

وثارت ضجة كبرى بين مؤيدي «روسو» ومؤيدي «هيوم» أصدر

على أثرها «روسو» في تشرين الأول (١٧٦٦) عرضاً موجزاً للنزاع الذي ثار بين «هيوم» وبينه، وكان «فولتير» على عكس «دالمبير» من الدَّاعمين والمؤيدين لـ«هيوم» في عرض ونشر عيوب ونقائص «روسو». ووسط تلك الضجة الكبيرة، لزم «روسو» الصمت وقرر العودة إلى فرنسا مهما كلف الثمن.

وعلى عجلٍ وخوف غادر «روسو» و«تريز» ـ رفيقة دربه ـ إنكلترا تائهين لجهلهما بجغرافية البلد. وبعد عشرة أيام من التِّيه، وستة عشر شهراً من الإقامة في انكلترا، وصل الوحيد المهجور إلى فرنسا وهو لا يزال من الناحية القانونية تحت طائلة الأمر باعتقاله.

وصل «روسو» إلى فرنسا في ٢٢ أيار ١٧٦٧، ووجد بعض العزاء في الترحيب الذي لقيه من المدن التي قرَّ بها، وعرض عليه كثير من الفرنسيين النبلاء بيتاً ليقيم فيه. وبين الحيرة والقلق، والخوف على المصير، والإنتقال من مكانٍ إلى آخر، استقر في «موكان» في بيتٍ في مزرعة قرب «جربنويل» بعد أن تزوج بـ«تريز» رفيقته الدائمة.

وهناك في كانون الثاني ١٧٦٩ كتب آخر صفحات «الإعتراف.

ومن «موكان» انتقل بعد ذلك مع زوجته وأولادها إلى عدة مدنٍ وقرى من فرنسا إلى أن كان مقره نهاية المطاف، في باريس، ٢٤ حزيران ١٧٧٠ حيث عاش فيها عيشة متواضعة، يتكسب بنسخ الموسيقى، ويدرس علم النبات.

وفي عام ١٧٧٢ ردَّ على خصومه بكتاب: «حوارات: روسو يحاكم جان ـ جاك» وكتب في فترة (١٧٧٧ ـ ١٧٧٨) كتاب «أحلام

جواد منفرد» ألمع فيه إلى أنَّ الروح المتأملة قد تجد دائماً في الطبيعة شيئاً يستجيب لمزاجها.

وفي صباح ربيع ١٧٧٨ أُصيب «روسو» بالنقطة وهو في البيت الريفي الذي أسكنه فيه المركيز «رينيه دجيراردان» قرب قصره الريفي في «أرمينوفيل» ووقع على الأرض، فرفعته «تريز» زوجته إلى فراشه لكنه وقع منه، واصطدم رأسه صدمة قوية على الأرض المبلَّطة، فتدفق الدم منه، وكان في هذا الإصطدام والوقوع نهاية أجله.

ووري الثرى في جزيرة الحور في ضيعة «جيراردان». وفي ١١ تشرين الأول ١٧٩٤ نُقل رفاته إلى «البانتيون» إلى جوار رفات «فولتير».

وأجمع القادة البروتستانت والكاثوليك على تكفيره، وَوُضِع في خانةٍ واحدة مع «فولتير» و«بيل» بوصفهم جميعاً رجالاً «يبثون سموم الضلالة والفسوق»[١].

أمَّا «روسو» في رأي «روبسبير» ـ فقد ارتفع فوق هامات هؤلاء الجبناء، وهاجم جميع الملوك بشجاعة، وجاهر بالدفاع عن الله والخلود»[٢].

---

(١) Pomeau, 340.

(٢) Masson, P. M., La Religion de Rousseau, III, 239 - 244.

إدوارد جبون

(١٧٣٧ ـــ ١٧٩٣)

من المؤرخين الإنكليز الذين تأثروا بالفلاسفة الفرنسيين فضلاً عن قراءته لـ«هيوم» والربوبيين الإنكليز، فكان ذلك سبباً لتقويض مسيحية «جبون» وكاثوليكيته على السواء.

وفي كتابه «اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها» شرح كيف أعانت المسيحية على اضمحلال روما بإضعاف إيمان الشعب بالدين الرسمي، وبذلك قوَّضت أساس الدولة التي كان سندها ذلك الدين وقدسه.

وردَّ بوجه عام تقدم المسيحية في أول عهدها إلى العملية الطبيعية لا إلى المعجزة، ونقل الظاهرة من اللاهوت إلى التاريخ. **والرهبان في رأي «جبون»** كانوا رجالاً متبطلين استسهلوا التسول والصلاة عن العمل، وكان المسيحيون هم الملَّة الوحيدة التي نددت بسواها من الملل، وحكمت عليها بأنها شريرة هالكة، وتنبأت صراحة بسقوط «بابل» أي روما[١].

---

(١) Ibid., 102 - 105.

وقد عزا «جبون» قدراً كبيراً من هذا التعصب لأصل المسيحية إلى اليهودية، وذهب مذهب «تاسيتوس» في التنديد باليهود في نقاطٍ شتى في روايته، ووافق «فولتير» على أن «المسيحيين» على مدى خلافاتهم الداخلية ـ منذ قسطنطين ـ أوقعوا بعضهم بعضاً بأعمال قسوة تعتبر أفدح بكثير مما لاقوه من تعصب الكفار» وأنَّ «كنيسة روما دافعت بالعنف عن الإمبراطورية التي اكتسبتها بالحيلة»(١).

وقد أثار الفصلان الختاميان من كتابه ردود فعلٍ كثيرة اتهمت «جبون» بعدم الدقة، أو التحيز، أو عدم الإخلاص.

وقد احتوى المجلد الرابع من كتابه على عدة فصول، منها فصل عن مزيدٍ من الحروب التي استعرت بين اللاهوتيين المسيحيين.

كتب «ولبول» يقول: «ليت المستر «جبون» لم يسمع قط بالمونوفيزيين (القائلين بطبيعة المسيح الواحدة) أو النساطرة أو أي من هؤلاء الحمقى»(٢).

وتحوَّل «جبون» في المجلد الخامس إلى الحديث عن ظهور محمد ﷺ وفتح العرب للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأفاض على النبي والخلفاء العسكريين بكل العقل المتفهم المحايد الذي خانه في حديثه عن المسيحية، وكان استيلاء «محمد» الفاتح على القسطنطينية التاج الذي تكلل عمل «جبون».

تُرى ما هي النتائج التي خلص إليها «جبون» من دراسته للتاريخ؟

---

(١) Ibid., 244 See Voltair's View in the Age of Voltaire, 486.

(٢) Walpole, June 5, 1788.

لقد حكم على التاريخ بأنه «حقاً، لا يعدو كثيراً أن يكون سجلاً لجرائم الإنسان وحماقاته ونكباته»[1].

وهو مما وافق به «فولتير» ورفض أن يكون العِرقُ عاملاً حاسماً في تفسير التاريخ أو صياغة فلسفته، وأقرَّ بتأثير الأفذاذ من الرجال، فحين كان في استطاعة قريش أن تغتال محمداً ﷺ «كان من الجائز أن يغيِّر رمح عربي تاريخ العالم»[2].

ولو لم يهزم «شارل مارتل» المغاربة في «تور» (٧٣٢) لاكتسح المسلمون أوروبا بأسرها، «ولكان تفسير القرآن يُدَّرس الآن في مدارس أكسفورد، ولكان تلاميذها يفسرون لشعبٍ من المختونين قدسية الوحي الذي نزل على النبي وصدَّقه»[3].

---

(١) Ibid., 314.

(٢) Decline and Fall, V, 237.

(٣) Ibid., 423.

جان ـ أنطوان ـ نيقولا كاريتا

(١٧٤٣ ـــ ١٧٩٤)

خاتم الفلاسفة الفرنسيين الذين رحبوا بالثورة الفرنسية، وكان لا يعترف للعصور الوسطى بقدر، شأنه في ذلك شأن «فولتير» فقد تمثَّل فيها **تسلط الكنيسة على الفكر الأوروبي، وتخدِّر الشعب بسحر القداس، وانبعاث الشرك نتيجة لعبادة القديسين**[١].

واحتفظ كـ«فولتير» بإيمانٍ ربوبي بالله، واعتمد على تقدم العلم والمعرفة في تقويض الكنيسة، وتوسيع الديموقراطية، بل والإرتقاء بالأخلاق، فقد شعر بأن الخطيئة والجريمة هما إلى حدٍّ كبير نتيجة للجهل[٢].

وارتاب اليعاقبة المتطرفون في نواياه بوصفه أرستقراطياً يحاول أن يُخضع الثورة لسيطرة الطبقة الوسطى، وقد صوَّت في صف الذين أدانوا لويس السادس عشر مذنباً بالخيانة، ولكنه صوَّت ضد إعدامه

---

(١) Ibid., 105.

(٢) Ibid., 110.

وفي ٨ تموز ١٧٩٣ أصدر المؤتمر الذي سيطر عليه اليعاقبة، أمراً بالقبض عليه لنشره كلاماً من غير توقيع، ينصح فيه المواطنين رفض الدستور الجديد بدعوى إسرافه في محاباة البرجوازية.

وظلَّ تسعة أشهرٍ مختبئاً كتب خلالها بعض الكُتَيِّبات والمخطوطات التي تتحدث عن حركة التنوير، ومراحل تقدم العقل البشري، وتنبؤه بمستقبلٍ علمي، فكري، متحرر تسوده جلائل الأعمال، وحكومة العدل والمساواة.

وبعد أن تشرد أياماً على أطراف باريس، أثار الشبهة مظهره وهو في فندق لا يحمل أوراقَ ثبوتية تُعرِّف عن هويته، فظُنَّ أنه أرستقراطي، وقبض عليه، وزُجَّ في سجنٍ بمدينة «بور ـ لا ـ رين» ٧ نيسان ١٧٩٤. وفي صبيحة الغد وُجد ميتاً في زنزانته، وأفاد تقرير الطبيب الذي فحص الجثة بحدوث جلطة في أحد عروقه[١].

---

(١) Schapiro, 107.

اليسوعيون

كانت جمعية يسوع (اليسوعيون) تدين بالولاء للبابوية، لذلك تحركوا في كل مكان، يصارعون البروتستانتية في المانيا، ويدبرون المؤامرات في فرنسا، ويموتون في سبيل عقيدتهم في إنكلترا.

وقد بشَّر عدد غير قليلٍ منهم بحق الشعب عن طريق ممثليه الشرعيين في أن يعزل، بل أن يقتل الملك الفاسد «الهرطيق» واستنكروا التأكيد على الخطيئة الأصلية، وقابلوا الجبرية التي قال بها بولس، وأوغسطين، ولوثر، وكلفن، ويانسن، بالتأكيد على حرية الإرادة.

وقد حارب البروتستانت الألمان اليسوعيين زاعمين أنهم «مخلوقات من الشياطين تقيأتهم جهنم»[١].

ودخل اليسوعيون الأقطار غير المسيحية أيضاً، فدخلوا اليابان عام ١٥٤٩ ولقوا فيها اضطهاداً عنيفاً صُلب فيه قساوسة، ورهبان، ومسيحيون يابانيون، ولم تحل سنة ١٦٤٥ حتى اختفت المسيحية من اليابان..

---

(١) Justi, Velazquez, 105.

وفي إسبانيا شكا رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل ما يتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب، ورأوا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية.

ولاحظ شارل الثالث ملك إسبانيا بأن اليسوعيين ما زالوا يشجعون مقاومة هنود مستعمرة «براجواي» لأوامر الحكومة الإسبانية[١].

وروَّعه اطلاعه على بعض خطابات اليسوعيين، وَوَصْفُهُ فيها بأنه إبن غير شرعي، ويجب أن يحل محله أخوه «لويز» ولمَّا كانت سابقة محاولة اليسوعيين لإغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨) لا تزال في ذهنه، صحَّ حدسه في تصديق ما جاء في الخطابات التي زُعم أن كاتبها الأب «ريكي» زعيم الطائفة اليسوعية في إسبانيا، وقرَّر أن يحذو حذو «يوسف» ويطرد الطائفة من مملكته.

وفي ٣١ آذار استيقظ اليسوعيون الإسبان ليجدوا بيوتهم ومدارسهم يطوّقها الجنود، ويجدوا أنفسهم معتقلين، وأُمروا بالرحيل بهدوء غير مصطحبين معهم سوى ما يقدرون على حمله، وصودرت سائر ممتلكاتهم، ثم أُركبوا السفن إلى إيطاليا.

ومع هذا، فإنَّ الجمعية اليسوعية بقيت تواصل نشاطها وسط وشمالي إيطاليا، وفي سيليزيا، وبولندة، لكن في ٧ شباط ١٧٦٨ طُردوا من دوقية «بارما» البوربونية، وبدأت الحكومات الكاثوليكية حرباً على البابوية.

---

(١) Ibid, 361.

وفي ١٠ كانون الأول ١٧٦٨ قدَّم السفير الفرنسي في روما بإسم فرنسا، ونابلي، وإسبانيا إلى البابا كليمنت الثالث عشر طلباً بسحب المرسوم الموجَّه ضد «بارما» التي يعتبرها إقطاعة بابوية، وبإلغاء جمعية اليسوعيين.

وانهار الحبر الأعظم تحت وطأة هذا الإنذار النهائي، وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وسبعين عاماً، في ٣ شباط ١٧٦٩ إلى عقد مؤتمر يضم المطارنة، وأصحاب البعثات، لدراسة الأمر. وفي ٢ شباط خرَّ صريعاً بانفجار عرق في دماغه.

وفي «بولندة» كانت الكاثوليكية فيها منتشرة، وكان المخالفون من البروتستانت والروم الأرثوذكس واليهود (٨٪ من السكان) محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم كان ينظرها محاكم كاثوليكية خالصة. وقد بلغت الخصومة الدينية مبلغاً دفع الجماهير عام ١٧٢٤ في مدينة تورون (ثورن) التي كان أكثر أهلها من البروتستانت إلى أن تنتهك قدسية القربان، وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعي، وقد أُعدم تسعة من هؤلاء المغيرين، واستنجد بروتستانت بولندة ببروسيا، والروم الأرثوذكس بروسيا، وعرضت بروسيا وروسيا الحماية لكليهما، ومن خلال ذلك وقع الغزو والتقسيم.

وفي صيف ١٧٥٩ استأذن «المركيز «بومبال» الذي يعتبر أعظم مَن حكم البرتغال من الوزراء في أي عهدٍ من عهودها «كليمنت» الثالث عشر في تقديم اليسوعيين المعتقلين للمحاكمة بتهمة الإطاحة

والتحريض على الثورة ضد ملك البرتغال «يوسف» الأول (خوزيه مانويل) وصرَّحت رسالة شخصية من «يوسف» إلى البابا بعزم الملك على طرد اليسوعيين من البرتغال.

وفي ١١ آب بعث البابا بالإذن بمحاكمة اليسوعيين أمام المحكمة المدنية كما كان اقترح الملك على البابا آملاً موافقته، داعياً بالرأفة بالقساوسة المتهمين، راجياً عدم أخذ جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم.

لكن نداء البابا فشل، ففي ٣ أيلول ١٧٥٩ ـ ذكرى الإغتيال المبيَّت للملك ـ أصدر الملك مرسوماً بالمحاكمة والطرد، والنفي من جميع أراضي المملكة، وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها، ومُنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية[١]، واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال في مركبات أو سيراً على الأقدام إلى سفنٍ أقلَّتهم إلى إيطاليا. وتمَّ ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية.

وفي١٧ حزيران ١٧٦٠ قطعت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان.

وفي المانيا كان اليسوعيون أهدافاً محبَّبة، فَرُمُوا في مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والقصائد، والكتب، باللواط، والزنى، والبهيمية.

وفي عام ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين،

---

(١) Gershoy, From Despotism to Revolution 152; Cheke, 140.

وفي عام ١٧٦٤ وقَّع الملك لويس الخامس عشر مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا، إذا كانوا يرون مشروعية قتل الملوك في ظروفٍ معينة.

وبدا واضحاً كل الوضوح لدى الملوك، أنَّ تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة على العالم، إذا لم يوضع لها حد سيجعل من جميع الحكام المدنيين والرؤساء أتباعاً للبابوات، ويعيد سلطان روما الإمبراطورية.

واتُّهم منهج المدارس اليسوعية بالتعلق الشديد، والحرص البالغ على تعليم اللغة اللاتينية إلى حد تعويق نمو المعرفة العلمية لدى التلامذة والطلاب بعدم الإستفادة من العلوم المنتشرة باللغات الأخرى غير اللاتينية، لذا أهاب «دالمبير» في مقالة عن «الكلية» في الموسوعة، بالحكومة للتدخل والسيطرة على التعليم، بإدخال منهجٍ جديدٍ للدراسة في مدارس جديدة.

وفي عام ١٧٦٢ نشر «روسو» كتابه «إميل» أعلن فيه الثورة على التعليم.

ورغم الاتفاق شبيه الود الذي كان بين «فولتير» وأساتذته اليسوعيين، فقد انتهى حين لحق «فولتير» بـ«فريدريك» في «بوتسدام». ورغم محاولة التوفيق بين «فولتير» وجماعة يسوع في أواخر ١٧٥٧ واحتفاظ «فولتير» بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين، فإنه ظلَّ في حربٍ وهجوم على الكنيسة رغم شجبه لحرق «غابرييل مالا جريدا» الزعيم اليسوعي في البرتغال (١٧٥٧) واعتباره هذا العمل قسوة

غاشمة، وكانت كتاباته كما كانت كتابات «ديدرو» و«دالمبير» و«موريليه» تُسهم في إضعاف اليسوعيين في فرنسا.

وتساءل لويس الخامس عشر: لماذا كان هؤلاء كهنة الإعتراف اليسوعيين متساهلين مع الآخرين، قساة مع المرأة (مدام دي بمبادرو) التي أضاءت جوانب حياته المرهقة، الموحشة، رغم توكيداتها بأن علاقاتها معه لم تعد جسدية، فلم يمنحوها الغفران؟

لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لحربه المشؤومة اللازمة لجيشه وبحريته؟ ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الملوك؟ وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة في الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلما لا تُقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا؟

وشعر اليسوعيون بالعداوات المختلفة، واشتد الإرتياب فيهم بأنهم أشركوا في إشعال فتيل الحرب بين فرنسا والنمسا في حرب السنين السبع. وبعد هزيمة الفرنسيين على يد «فريدريك» في «روسباخ» وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض، وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفاً في باريس، بات اليسوعيون هدفاً للنكات، والشائعات، والإفتراءات المشوِّهة للسمعة حتى إلى حد الإتهام باللواط[1].

واتهموا بالإنهماك بجمع الثروة، والهرطقة، والعمالة لدولة أجنبية، والسعي لإلقاء فرنسا في أحضان روما.

---

(١) Gay, Voltaire Politics, 310.

وكان برلمان باريس من أعظم القوى في فرنسا، التي انقلبت على اليسوعيين، إذ كان مؤلفاً من محامين وقضاة أرستقراطيين منظمين تنظيماً جيداً، ومتلهفين لتحدي سلطة رجال الدين، والحد منها.

وكانت تلك العقول القانونية البرلمانية قد اتضح لها الآن بما لا يدع الشك بأن اليسوعيين هم الذين ألحُّوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير «بورت رويال» تدميراً تاماً عليهم، وإصدار مرسوم من البابا اعتبر فيه «الجانسنية» هرطقة أنكى من الإلحاد.

فهل تحين الفرصة للرد على اليسوعيين بمثل هذا الإيذاء؟

لقد هيَّأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة.

إضافة إلى ذلك فقد اشتغل اليسوعيون لعدة أجيال مضت بالتجارة والصناعة لتمويل معاهدهم اللاهوتية، وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية، واحتكروا كثيراً من مجالات الإنتاج، والحِرَف والصناعات، وأنشأوا مصنعاً لتكرير السكر في آنجرز» في فرنسا، وكانوا من أغنى المقاولين في مستعمرات إسبانيا، والبرتغال في أميركا[١].

وجأر أصحاب المشاريع الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة، حتى أن الكاثوليك المعروفين بالفضل تعجبوا كيف أن طائفة مثل اليسوعيين نذرت نفسها للتقشف تجمع مثل هذه الثروة.

وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب «إنطوان دي لافالت»

---

(١) Martin, H, Histoire de France, X V I, 201.

الرئيس الأعلى لليسوعيين في جزر «الأنتيل» الذي أدار بإسم الجماعة مزارع واسعة في جزر الهند الغربية، واستخدم آلافاً من المواطنين السود[1]، وصدَّر السكر والبن إلى أوروبا.

وفي عام ١٧٥٥ اقترض «لافالت» مبالغ ضخمة من مصارف «مرسيليا» ولسداد هذا القرض أرسل إلى فرنسا سفناً محملة بالبضائع تُقَدَّرُ قيمتها بمليوني فرنك فرنسي، إلا أن البوارج الإنكليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ في مقدمة حرب السنين السبع، وأملاً في تعويض هذه الخسارة اقترض «لافالت» مبالغ أكبر لكنه أخفق وأعلن إفلاسه وهو مدين بمبلغ ٢.٤٠٠.٠٠٠ فرنك فرنسي، فطلب المُقْرِضون إلى زعماء اليسوعيين الإعتراف بمسؤوليتهم عن ذلك، فرفضوا بحجة أنه عمل فردي لا علاقة له بالطائفة.

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة، وقوانينها، ومستنداتها، وفي ٨ أيار صدر الحكم في مصلحة أصحاب الشكوى فشرع اليسوعيون بتسوية الأمور مع بعض المُقْرِضين، ولكن في ٨ حزيران قدَّم الراهب «تيري» إلى البرلمان تقريراً عن «المذهب الخلقي والعملي لجماعة اليسوعيين، وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان في ٦ آب قرارين قضى أحدهما بإحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين في القرنين السابقين، وحرمة الإنضمام إليهم، وإغلاق جميع مدارسهم.

وفي٢٩ آب أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ووافق البرلمان على

---

(١) Lanfrey, 267; Campbell, The Jesuits, 482.

تأجيل تنفيذهما مؤقتاً، ودخلت البرلمانات الإقليمية حلبة النزاع، ووُجِّهت مزيد من الإتهامات إلى اليسوعيين، وفي ١٥ شباط ١٧٦٢ صدرت القرارات من البرلمانات في فرنسا، وأمر برلمان باريس في أول نيسان بتنفيذها كلها، وقد نصَّت على إخلاء اليسوعيين لجميع دورهم، وكلياتهم، وعزل كل المديرين الأجانب، ونقل إدارة المدارس اليسوعية إلى مديرين آخرين وتمَّ الأمر، ولم تنفعهم شفاعة الشافعين.

وأعلن البابا «كليمنت» الثالث عشر في مرسومه الرسولي براءة اليسوعيين، فأحرق المدعي العام المرسوم على أساس أنَّ البابوات ليس لهم حق مشروع في التدخل في شؤون فرنسا.

ورحَّب الفلاسفة والمفكرون، والمثقفون، ورجال الأدب، والجانسنيين بطرد اليسوعيين، ورحيلهم، وفي عام ١٧٧٣ حلَّ البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها لكنهم ظلوا يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم في بروسيا وسيليزيا.

ولم تعكر «كاترين» الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم في الجزء الذي استولت عليه من «بولندة» وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلوا إلى روسيا فيما بعد.

ولكن مَن ذا الذي يتولى تعليم شباب فرنسا بعد رحيل اليسوعيين عنها؟

إنَّ «شالوتيه» انتهز الفرصة وقدَّم لفرنسا رسالة عن التعليم القومي (١٧٦٣) هلَّل لها الفلاسفة مرحبين، فيجب أن يكون المعلمون

علمانيين، لإعداد الفرد للحياة لا للسماء، وتخصيص وقتٍ لتعلم اللغة اللاتينية أقل من وقت تعلم اللغة الإنكليزية والألمانية، ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم، وتوفير الوسائل لتعليم الإناث.

وأول مهمة في رأي «فولتير» كانت هي في وضع حد للتعليم الكنسي الذي رأى أنه مسؤول عن الخرافات التي امتلأت بها عقول الناس، وعن تعصبهم.

ونادى «ديدرو» بلزوم سيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين، وبمزيدٍ من العلوم؛ وأمام الثورة الفكرية التي دعا إليها الفلاسفة، والمفكرون العلمانيون في فرنسا، ازدادت الروح القومية، وأخذ التفاخر بسمو اللغة، والأدب، والفن، والحرب، يظهر، ويزداد ليحل محلَّ اللاهوت القديم، وقساوات الكهنة، ورجال الدين.

لقد بدا واضحاً أن الفلاسفة، وأصحاب الموسوعة الفرنسية قد كسبوا المعركة ضد المسيحية التي أكثر ما كانت متمثلة باليسوعيين، وأصبح الإلحاد الرهيب منتشراً، والإيمان بالمعجزات المسيحية خامداً، والجحيم أضحوكة، وأخذ عداء العمال للكنيسة يزداد، وكانت المقاهي قد طردت الإيمان منذ زمنٍ بعيد، وسرت العدوى إلى رجال الدين، فبعضهم كان ملحداً، والبعض الآخر كان ربوبياً.

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى في الأديرة، وتجنباً للفضيحة، كان «دوم كولينيون» يسمح لعشيقَتَيه بأن تكونا معه على المائدة حين يكون الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم موجودين. ولم

يكن يسمح لطائفة الرسوليين أن تتدخل في ملذاته، ولكنه اعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب للحفاظ على الأخلاق عند العامة[1].

ونتج عن التدهور الديني ازدياد التسامح، فَتُرِكَ الهيجونوت بسلام، وخُفِّفَت القوانين ضد البروتستانت.

وهرب اليسوعيون وولى الجانسينيون الأدبار، وتغيرت كل نغمة المجتمع الفرنسي، ونهج كل كاتب في فرنسا نهج الفلاسفة تقريباً وسعى إلى كسب رضاهم، ووقعت معظم مرافق الدولة حتى وزارة الملك نفسه تحت تأثير الفلاسفة.

وشارك الملوك والملكات في التهليل والتصفيق لـ«فولتير» وها هوذا «هيوم» على الرغم من أنه قد استبق «فولتير» في كثيرٍ من آرائه، نراه ينظر إليه على أنه أستاذ معلم، وهلّل «فريدريك» الأكبر للإنتصار في الحملة ضد الرجس والعار، وكان من أوائل مَن أدرك أهمية «فولتير» وشاركت «كاترين» الثانية قيصرة روسيا، و«جوستاف» الثالث ملك السويد في هذا التملق.

ولمّا دخل الجيش الفرنسي روما بعد أن غزا «نابليون» الولايات البابوية ١٧٩٦ طالب البابا (بيوس السادس) بالتخلي عن كل سلطاته الزمنية وسجنه في قصره البابوي.

---

(١) Robertson, J. M., History of Thought,278.

الفلاسفة والثورة

لقد وفَّر الفلاسفة الإعداد الإيديولوجي للثورة الفرنسية، بفضل عمل الهدم الذي قاموا به لإزالة العبقات القائمة في طريق التغيير، كالإيمان بالإمتيازات الإقطاعية، والسلطة الكنسية، وحق الملوك الإلهي، فقد كانت جميع الدول الأوروبية حتى عام ١٧٨٩ تعتمد على معونة الدين في غرس قدسية الحكومة في النفوس، وكانت الكهنة أول معقل للسلطة المطلقة وقد أطاح به «فولتير». ومزقت الشكوكية، والربوبية، والتوحيدية، والإلحاد كل فلسفة اللاهوت، وأعلنت الحرية الفكرية، وريادة العلم والعقل في سير الحياة وتكاملها، وتطورها.

لقد مرَّت الثورة الفرنسية بثلاث مراحل:

الأول: محاولة النبلاء استرداد سلطانهم الذي فقدوه بمَلَكية لويس الرابع عشر.

الثانية: ظفر الطبقات الوسطى، وانتصارها لتشربها بأفكار الفلاسفة.

الثالثة: فقد القساوسة، والكهنة، والملوك دورهم وتأثيرهم،

وإحلال تماثيل جديدة تسمي «مابليه» و«روسو» و«فولتير» محل تماثيل القديسين.

ولنسأل الآن أي ضرب من الأخلاق ساد فرنسا بعد أربعين عاماً حفلت بالهجمات المختلفة على المعتقدات المسيحية.

لقد قال «فونتينيل» قبيل موته ١٧٥٧ : إنه يتمنى لو مُدَّ في أجله ستون سنة أخرى «لأرى النهاية التي تنتهي إليه الخيانة الزوجية المستشرية، والخلاعة، وتحلل جميع الروابط»[١].

ويدفع الفلاسفة انعدام الحس الأخلاقي هذا، المعزو إليهم بسبب نقدهم للاهوت المسيحي، بأنَّ العقل السليم يُقر بالإلتزامات الأدبية الأخلاقية سواء آمن المرء أم لم يؤمن.

وللتخفيف من فضائح الكنيسة فقد شجَّعت الثورة على زواج القساوسة بل وصدر مرسوم بإبعاد كل أسقف امتنع عن الزواج.

وفي سبيل حماية الثورة تمَّ تزويج ألفي قس وخمسماية راهبة.

وفي «نيفر» «Nevers» أصدر «فوشي»[٢] أحكاماً صارمة فيما يتعلق بالقساوسة: لا بد أن يتزوجوا، وأن يعيشوا حياة بسيطة غير مترفة، ولتكن حياتهم كحياة الرسل.

وفي «كليرمونت ـ فران» أعلن «كوثو» أن دين المسيح قد تحوَّل إلى خداع لأجل الحصول على المال، واستأجر طبيباً لإجراء تجارب أمام الجماهير ليثبت أن ظهور دم المسيح بشكلٍ إعجازي في الزجاجة

(١) Carlvle Essay on Didrot.

(٢) Zweig, Fouchi, 39 FF.

التي تقدمها الكنيسة ليس سوى زيت التُربنتينيه مصبوغاً باللون الأحمر، وألغى المرتبات المالية التي تدفعها الحكومة للقساوسة، وصادر ما في الكنائس من آنية ذهبية وفضية.

وكان زعماء المعركة ضد الدين هما: «هيبير» في مجلس مدينة باريس، و«شوميت» في «كومون» باريس.

وفي ٢٣ تشرين الثاني أمر الكومون بإغلاق الكنائس كلها في باريس. ورغم ذلك فقد أعاد المؤتمر الوطني الفرنسي سنة ١٧٩٣ تأكيده على حرية العبادة، وضمن حماية الطقوس الدينية التي يقوم عليها قساوسة موالون.

لقد أجحفت الثورة الفرنسية بالدم كما هو شأن معظم الثورات لكن الفلاسفة، وأصحاب العقول النيرة لم يرتضوا هذا الإجحاف الذي كانت تحكمه الغوغاء القاتلة، فالثائرون كانوا منتقمين أشد الإنتقام كرد فعلٍ للظلم والطغيان.

«إنه الغيظ المكظوم في قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطَّخت به الديانة سِجِّلها في وجه التقدم والمعرفة، والإضطهادات، والمذابح... ذلك أن الإيمان بالعقل الذي آذن بانبلاج فجره «فرنسيس بيكون» قبل ذلك بقرن، أصبح أساس الفكر المتحرر وآدابه، أي إنَّ الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس، وتعاليم الكنيسة، وبرز العقل متألقاً في عظمة وحي جديد، وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان. لقد بذلت الكنيسة غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا، وحرَّضت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير

الإنساني، والتخريب الخالي من الرحمة لـ «بورت رويال» وأقرَّت المذابح الوحشية كمذبحة «سانت برثلميو» وأشعلت نار الحروب الدينية التي دمرت فرنسا تقريباً، ووسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادَّعت الكنيسة بأنها فوق العقل، وفوق الريبة والمساءلة، وأنها ورثت وحياً إلهياً، وأنها ممثل الله على الأرض الملهَم المعصوم عن الخطأ، وأن جرائمها كانت بإرادة الله مثل حسناتها، وها هو العلم اليوم يزيد من احترام العقل، ومن الإيمان بنظام كوني، ومن عدم الإيمان بالمعجزات، وخصوصاً بأعظمها شيوعاً وانتشاراً، ألا وهي تحويل خمسين ألف كاهن يومياً الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه»[1].

---

(١) قصة الحضارة: مجلد: ٣٧ ـ ٣٨ ـ القسم الثاني: ص٢ ـ ٣ ـ وِل ديورانت.

فلاسفة آخرون

في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر انضم حشد كبير من الفلاسفة إلى صف الهجوم على المسيحية ، فعمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين، **وأدانوا** بني إسرائيل، وأنزلوا «يهوه» الرب عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية، وإلهاً للحرب، **وسخروا** من الخطيئة الأولى ومن «الآب» الذي كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل إبنه ويُضرب بالسياط، ويُصلب ليهدأ من غضبه، وهو الآب الذي أثارت امرأة فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة.

ومن جملة هؤلاء الفلاسفة كان: هلفشيوس، دالمبير، رينال، بولانجيه، موريليه، سانت لامبرت، مارموتيل، ترجو، وكني، وكذلك جاء «روسو» ولكنه كان يرتاع للإلحاد الذي كان يتدفق من حوله والألماني «هنريخ ـ ديتريش ـ فون هولباخ» (دي هولباخ) الذي كان وكر الفلاسفة الملحدين خاصة عنده كل يوم خميس وأحد، في منزله. وانتهز الجميع كل فرصة لمهاجمة رجال الدين، وانتقاد الكنيسة بل

حتى عبَّر بعضهم (دي هولباخ) عن إلحاده، وإنكاره المطلق لمذهب الربوبية، ومذهب وحدة الوجود.

واتخذ شباب المتمردين المادية سلاحاً للحرب ضد الدين ودخلت فلسفة «دي هولباخ» إلى روح الثورة الفرنسية وأخذ كتابه «منهج الطبيعة» الإلحادي ـ الذي كان قد نقده فولتير ـ تنتشر أصداؤه في فرنسا.

لقد ساعد العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية، ونمو سلطان «شوازيل» في الحكومة الفرنسية (١٧٥٨ ـ ١٧٧٠) ـ وهو من مشايعي فولتير ـ على مضي الفلاسفة قُدُماً نحو التنوير، ومواجهة المسيحية بالشكل الذي يفهمونه منها.

ما بعد الثورة

تخلَّصت الثورة من الدين المسيحي، وتحرر البروتستانت الذين كانوا يشكلون ٥٪ من السكان من المعوِّقات التي اعترضت سبيل عقيدتهم، وأصبح حقهم في العبادة حقاً كاملاً وفق دستور ١٧٩١، وأصبح الإكليروس الكاثوليك الذين كانوا من الطبقة الأولى يعانون من حكومة فولتيرية قاسية، وفقدت الطبقات العليا إيمانها بالكنيسة، وحصلت الطبقة الوسطى على معظم أراضي الكنيسة.

لقد كسب «فولتير» و«ديدرو» معركتهم مع الكنيسة كما بدا واضحاً.

وفي ظل حكومة الإدارة، عمدت الحكومة إلى تأسيس مجتمع علماني خالص، وتركت الأخلاق المسيحية للزوجات والبنات. وأرغمت الكنيسة على التخلي عن ضريبة العشور.

وسرعان ما أحلَّت الثورة الدولة الشمولية «Omnipotent State» محل الملكية، ولم يعد السجن وسيلة للتعذيب، وسُمح للسجناء بممارسة الإلعاب الرياضية، وغيرها من الترفيهات.

وراحت أحياء من فرنسا تشن حرباً على الدعارة والفساد الذي انتشر بكثرة، ونشأت عنه الأمراض التناسلية، وتضاعف عدد اللقطاء، فجرى تشكيل فرق من الخَفَر لإلقاء القبض على المستهترين الخليعين، لكنه بعد فترة من الزمن تراخت قبضة هؤلاء المراقبين، وعاد الفساد وانتشر أكثر فأكثر، وكثُر عدد أبناء الزنا، وحلَّ الزواج المدني مَحل الكنسي، فلم يعد وجود قس مسألة ضرورية لإتمام الزواج بعد ٢٠ أيلول ١٧٩٢، ومنذ صدور القانون المتعلق بالزواج المدني أصبح يمكن الحصول على الطلاق بموافقة الطرفين (الزوج والزوجة) أمام مسؤول المجلس البلدي.

وانتشر الأدب الإباحي، وتضاءلت السلطة الأبوية على الأولاد، وتغيَّرت طرز الثياب، وحياة المرأة ومكانتها، شيئاً فشيئاً.

وكان من النتائج السياسية لمرحلة ما بعد الثورة، انتهاء النظام الإقطاعي ليصبح الفلاحون أحراراً، ويصبح قسم منهم ملاكاً، وحلت المحاكم المدنية محل المحاكم الإقطاعية، ومع الديمقراطية النظامية أتت المساواة أمام القانون، وإتاحة الفرص للجميع على حدٍّ سواء، وحرية الرأي والفكر، والعبادة وأكملت الثورة توحيد ولايات فرنسا، وجعلت منها دولة فرنسية ذات حكومة مركزية، وقانون وطني يسري في جميع الولايات، وأصبح الولاء للأمة بدلاً من الولاء للملوك والأمراء، هو الأساس والدافع للحرب.

ومن النتائج الإقتصادية لمرحلة ما بعد الثورة كان أن تُرك لحركة السوق تحديد الأسعار، والأجور، والإنتاج، فيكون النجاح أو

الفشل محكوماً بالمنافسة في السوق، ومن النتائج الثقافية أيضاً، أن شُجِّع العلم ليكون بديلاً عن اللاهوت، وظهرت جهود العلماء الفرنسيين في الفلك والرياضيات، والفيزياء، والبيولوجيا، وغير ذلك من العلوم.

ومن أجل تثبيت الدستور الجديد، وتثبيت أمة نهشتها الفوضى في شتى الميادين اجتمع القناصل المؤقتون في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ في قصر «اللكسمبورغ» لإعادة بناء فرنسا من جديد، وكان هؤلاء القناصل المؤقتون هم: «نابليون» و«سييز» و«روجر (روجيه) دوكو» وساعدهم في مهمتهم أفراد من المجالس والجمعيات القديمة.

وفي تلك الأيام كان بمقدور الشعب الفرنسي أن يحب نابليون لكفاءته، ووطنيته، وأن يختاره بمختلف هيئاته وساساته، ليمسك بزمام السلطة.

ومن المؤكد أن الكنيسة الكاثوليكية في روما لم تكن تعتبر نابليون ذلك الرجل المسيحي الذي تحبه وترتضيه حاكماً لفرنسا، إذ لم يكن ليحضر صلاة شكرٍ ولا غيرها في كنيسة في حياته، أو يعبِّر حتى عن إيمانه المسيحي بالتثليث، وتزوج من «ماري لويز» النمساوية ولم يكن البابا قد أقرَّ طلاقه من جوزفين بعد، بل لقد أهانه بعد ذلك وسجنه وجرَّده من ممتلكاته، وتزوج من امرأة بولندية راقت له وأعجبته عندما وصل إلى «بولندة» ليحتلها، وكانت «بولندة» وقتها منقسمة بين روسيا وبروسيا، والنمسا، فـ«نابليون» من وجهة نظر معاصريه الأوروبيين إمَّا ملحداً كان أو علمانياً، وإن كان هناك من مسيحية في بعض تصرفاته؛

فلم تكن تعدو أن تكون مجرد وسيلة لإسكات بعض الجهات الدينية التي لم تكن تعتبره مؤمناً، أو لوجود مصلحة سياسية تقتضي ذلك، فالحرب، وأطماعه التوسعية، وتمجيد شخصه كان همَّه الوحيد.

إنَّ عظمتي الحقيقية ليست في المعارك الأربعين التي خضتها وأحرزت فيها النصر، ذلك لأن هزيمتي في «واترلو» «Waterloo» ستمحق ذكرى هذه الإنتصارات.. أما ما لا يمكن محقه، وما سيبقى أبد الدهر فهو مدوَّنتي القانونية»[١].

وقرر «نابليون» الإستعانة بدعم الكنيسة الكاثوليكية لتدعيم حكمه الذي لم يكن له قرار، وكان في فرنسا في ذلك الوقت ثمانية آلاف قس نشط، منهم ألفان دستوريون، أقسموا يمين الولاء لدستور ١٧٩١ الذي أقرَّ مصادرة ممتلكات الكنيسة، وستة آلاف آخرين غير دستوريين رفضوا الثورة، ولم يُقسموا يمين الولاء للدستور فلم يكونوا معتمدين، فأسعد «نابليون» هؤلاء ليضيف إلى رصيده تأييدهم. «لذا فإنني بكل ما لدي من سلطة... أُعيد ترسيخ الدين. إنني أجعل منه الأرضية والأساس الذي أبني فوقهما. لقد اعتبرته دعماً للمبادىء الصحيحة، والأخلاق الصالحة»[٢].

واعترض كثير من اليعاقبة على جعل الكاثوليكية ديناً رسمياً للأمة تحميه الحكومة وتُنفق عليه، لأنهم اعتبروه نهاية الأمر فصلاً للدين عن الدولة، أما رجال الدين الذين عارضوا مشروعه فقد أرهبهم مهدداً بأنه

---

(١) E B, VII, 120 ـ المدوَّنة القانونية النابليونية: ١٨٠١ ـ ١٨٠٤.
(٢) Las Cases, II, 253.

سيحذو حذو «هنري الثامن» في «إنكلترا» في فصل الكنيسة الفرنسية عن روما فصلاً كاملاً إذا ما رفضوا مشروعه؛ أما بالنسبة للاأدريين فحاول تهدئتهم بأن شرح لهم أنه إنما يريد أن يجعل الكنيسة آداة حكومية لاستمرار السلام الداخلي. ولم يغفر «نابليون» أبداً لـ«لا لاند» الفلكي رغبته في »إدراج إسم نابليون في قاموس الملحدين في اللحظة ذاتها التي فتح فيها نابليون باب المفاوضات مع بلاط روما البابوي» على حد ما ذكره «بورين» سكرتير نابليون»[١].

لقد ظن أن الكنيسة يمكن أن تكون إحدى أدواته، تُغنِّي لعظمته وتؤيد سياساته، كما نظر إليها باعتبارها وسيلة لتعليم الأطفال الفرنسيين ذلك أن «توقير الإمبراطور يعني توقير الرب ذاته» و«أنهم إذا فشلوا في آداء واجبهم نحو الأمبراطور. . . إنما هم بذلك يعصون الله، وأن هذا العصيان يجعلهم يستحقون اللعنة الأبدية»[٢].

لقد كان مقتنعاً بأنه قد كسب العالم الكاثوليكي كله إلى جانبه في هذه اللحظات والأجواء المفعمة بالإنتصارات.

بقي شيء واحد ينقص هذه الجلالة النابليونية التي جرى الإستفتاء عليها ألا وهي الإعتراف والإقرار الديني من أعلى ممثل لعقيدة الأمة الدينية، وهو البابا لأن قيام البابا بتكريس الحاكم «ومسحه بالزيت» يعني أن هذا الحاكم قد أصبح بالفعل مختاراً من الرب.

---

(١) Bourrienne, I, 236

(٢) Stael, Mume de, Considerations sur les Pricipaux événements de 107 La Révolution . Francaise, 376; Caniton, 44, Herold, The Mind of Napoleon, 107

وراح «نابليون» يستعد للتتويج البابوي له (٢ كانون الأول ١٨٠٤) وجرت الترتيبات اللازمة لحماية الشوارع الكبرى بالجنود، وصدرت التعليمات لدار الأوبرا بإعداد رقصات الباليه التي تشرح صدر البابا كما لو كان هناك حفل زواج حقيقي بين القيصر والكنيسة، ورحَّب أهل باريس بالبابا «بيوس» السابع، بمشهدٍ جديرٍ بالرؤية، ورحَّبت به «جوزفين» التي كانت انتهزت الفرصة لتخبره بأنها لم تكن مرتبطة بـ «نابليون» بزواج ديني، فوعدها بعلاج هذا الخطأ قبل التتويج وكان لها ما أرادت بعد ذلك لتمنع نابليون من تطليقها بهذه العقبة المباركة (الزواج الديني) من قِبَل البابا.

وصعد البابا إلى مذبح الكنيسة، وركع نابليون وجوزفين على رُكبهم أمامه، ودهنهما بالزيت وباركهما، ووضع تاجاً على رأس «نابليون»، وتاجاً من ماس على رأس «جوزفين» وأعلن الصيغة التقليدية التي تفيد أن الكنيسة قبلته إمبراطوراً، ورتَّل البابا القدَّاس، ووضع نابليون يده على الإنجيل وأقسم القسم المطلوب منه، وبحلول سنة ١٨٠٤ كانت جميع الحكومات الأوروبية ـ باستثناء إنكلترا والسويد وروسيا ـ قد اعترفت بـ«نابليون» كإمبراطور للفرنسيين.

لقد ملأ في عشرين سنة أحداثاً تكفي لقرنٍ، وأمكنه أن يكون له باقة من المحظيات، وكانت كل امرأة تُسعده لليلة تعتبر نفسها قد دخلت التاريخ، وقد تسبَّب عدم إخلاصه في إزعاج «جوزفين» لساعاتٍ طوال قضتها في كآبة وحزن، وعندما أتته «ماري لويز» النمساوية زوجة، قَبِل بها، ولو لأجل كون الزنا قد يتسبب في فقدانه النمسا،

وازداد حبه وإخلاصه لها عندما وضعت له طفلاً يكون معقد آماله في توريثه عرش فرنسا.

وعندما طوى الخيال جناحيه، وفشل «نابليون» في ضم النمسا، وبروسيا، وإسبانيا، وروسيا، وإحكام الحصار خصوصاً على بريطانيا «اللعنة» المسيطرة على البحار، وسقطت أحلام الإمبراطورية الشاسعة، أصبح «نابليون» قادراً على استخدام عقله على نحو ما يفعل العلماء في معاهدهم العلمية. لقد سمع في «مصر» عندما احتلها بعض العلماء الفرنسيين يتحدثون عن الخالق دون توقيرٍ ولا احترام، فتحداهم مشيراً إلى النجوم: «**تحدثوا كما تشاءون، وأطيلوا الحديث كما يحلو لكم أيها السادة، مَنْ خلق هذه النجوم؟**»[١].

لقد غيَّر وجهات نظره بالنسبة للدين بمرور الوقت، لذلك نجده يتخلَّى عن عقائد أقسم في شبابه ألَّا يتخلى عنها!

وتحدث في بعض الأوقات كالماديين والملحدين لكنه وبشكلٍ عام ظلَّ محتفظاً باعتقاده بوجود عقلٍ كامنٍ وراء العالم المادي أو كامنٍ فيه، لكنه ينكر معرفته بأية معلومات عن طبيعة هذا العقل وهدفه. لقد استقر رأيه وهو في جزيرة القديسة «هيلانة» في منفاه الأخير بعد هزيمته المنكرة في «واترلو» الشهيرة، على أنَّ: **كل شيء يشهد بوجود الله**»[٢]. **لكن أن تقول: «من أين جئت؟ ومَنْ أكون؟ وإلى أي مصير أنا صائر، فتلك كلها مسائل فوق مستوى الفهم**»[٣].

---

(١) Bourrirnne, I, 327.

(٢) Las Cases, II, 253.

(٣) Taine, II, 3 - 4.

وكان «نابليون» يؤمن بوجهة نظر النبي محمدﷺ في الهدف من الزواج، وهو إنجاب عددٍ كبيرٍ من الذرية في ظل ظروفٍ يتمتع فيها الرجل بالحرية، وتتمتع فيها الزوجة المخلصة المطيعة بالحماية، واستقر رأيه على الطلاق. وإن كان الزوجة المخلصة الواحدة غير كافية للرجل «فإنني أجد أنه من السخرية ألَّا يكون قادراً على أن يكون له أكثر من زوجة شرعية، ذلك أن المرء إذا كان لديه زوجة واحدة حبلى، أصبح وكأنه لا زوجة له»[١]. فتعدد الزوجات أفضل من الطلاق أو الزنا.

وفلسفة «نابليون» الدينية وإن لم تكن متفقة كل الإتفاق مع دين الإسلام إلا أنها كانت مستقرة بالإيمان بالتوحيد نهاية الأمر، ولم يكن «نابليون» قدرياً[٢] (جبرياً) لكنه كان يتحدث كثيراً عن «القضاء والقدر» أو القسمة والنصيب «destiny» ـ المجرى الرئيس للأحداث ـ الذي يمكن تطويعه جزئياً عن طريق الإرادة البشرية لكنه يسير في الذي لا يمكن مقاومته بشكلٍ أساسي، وكأنه ينساب من طبيعة الأشياء ملازماً لها لا يبغي عنها حِوَلاً.

«إنَّ القدر يدفعني إلى هدفٍ أجهله، وحتى يتحقق هذا الهدف فأنا منيع حصين لا يستطيع أحد مواجهتي فإذا تحقق هذا الهدف أصْبَحَتْ ذبابة واحدة كافية لتدميري»[٣].

لقد شعر بنفسه مقيَّداً بقَدَرٍ محتوم، قَدَرٍ رائع لكنه خطير.

---

(١) Kircheisen, 154.

(٢) Herold, 40 - 41.

(٣) Bertaut, 9.

لقد كان المجد والظروف يسوقانه سوقاً فلا بد من «إنجاز ما يريده القدر»[1].

لقد تحمَّل الشعب الفرنسي الإستنزاف السنوي الدموي الملح للقوى البشرية في فرنسا، في نشوة الإبتهاج بانتصارات «نابليون» لكنه عندما بدأت الهزائم (١٨٠٨) نمت المقاومة، وتضاعفت أعداد المتهربين والفارِّين.

وبحلول عام ١٨١٤ كان «نابليون» قد جنَّد ٢،٦١٣،٠٠٠ فرنسي، مات منهم حوالي مليون بسبب جروحٍ شديدة أصابتهم أو بسبب الأمراض[2]. والرقم القديم الدال على عدد القتلى الفرنسيين في الحروب التي خاضها «نابليون» هو ١،٧٠٠،٠٠٠ قتيل إلَّا أن الحسابات اللاحقة قلَّصته ليصبح مليوناً فقط[3].

وحتى لو كان هذا الرقم الأخير صحيحاً فإنه كفيل بإضعاف فرنسا طوال جيل حتى تستطيع أرحام نسائها تعويض هذه الخسارة.

وحيث يتألق «المجد» تسقط الضحايا بالألوف، وتُستنزف ثروات الأمم.

---

(١) Herold, 40.

(٢) Lefebvre, Napoleon, I, 227.

(٣) Lefebvre, I, 227.

جيرمين دي ستيل

كانت مدام «دي ستيل» أعظم مؤلفة في أوروبا، لقد كتبت خمسة عشر كتاباً قبل سنة ١٨٠٠. ألّفت روايتين: «دلفين» «Delphine» (١٨٠٣) و«كورين» (١٨٠٧) حققتا لها الشهرة في جميع أنحاء أوروبا.

وتركت بعد موتها كتاباً مهماً وكبيراً «ملاحظات على الأحداث الرئيسة للثورة الفرنسية». وكتاب «عشر سنوات في المنفى».

لقد كانت مدام «دي ستيل» تؤمن بنشر التعليم والعلم والمعرفة، وتحرير العقل من سطوة السيطرة السياسية، وتنبأت قائلة: بأنه ربما أصبحت الفلسفة في بعض حقب المستقبل مفهومة وناضجة بشكلٍ كافٍ «بحيث تحل محل العقيدة المسيحية أو بتعبيرٍ آخر تغنينا عن العقيدة المسيحية التي كنا نعتقدها في الماضي».

وعرَّفت التنوير الفلسفي بأنه «الحكم على الأشياء بمعيار العقل»[١].

---

(١) Stael, Mme, de, Considerations, 97.

واستمرت تقول: إن تطور العقل ليس كافياً، فالمعرفة ليست إلا عنصراً واحداً في عملية الفهم، أما العنصر الآخر فهو الشعور. وبدون الحواس، الروح كلوحٍ ميت غير قابل للتلقي أو كمتلقٍ ميت للمثيرات المادية، فبالحواس تدخل الروح في حياة الموجودات الحية الأخرى، وتشاركها إعجابها ومعاناتها، وبشعور الروح من خلال الجسد يكون الشعور بوجود الله وراء العالم المادي. ودافعت مدام «دي ستيل» عن الديمقراطيات، ونبذت الإستقراطيات، والأنظمة الإستبدادية، **ودافعت عن الليبرالية وعن المسيحية القائمة على أسسٍ عقلية فأسقطت في طريقها مئات المسلَّمات.** ولمَّا نشرت روايتها «دلفين» التي ناقشت فيها شرعية الطلاق، وتعصب الكاثوليكية، والحقوق المعنوية للمرأة، ومشروعية الوعي الفردي بأن يعمل المرء بما يملي عليه ضميره بإسلوبٍ درامي، تلقى المثقفون في باريس حججها بقبولٍ حسن لكن «نابليون» لم يكن سعيداً بها، فقد كان ذاك الوقت مولياً وجهه شطر الكاثوليكية كعلاج للتفسخ الخلقي، والإضطراب الفكري في فرنسا. وفي ١٣ تشرين الأول ١٨٠٣ أصدر أمراً بمنع مدام «دي ستيل» من الإقتراب من باريس مسافة أربعين فرسخاً (٢٢٠ كلم). وقد روت «جيرمن» قصة رحلتها إلى ألمانيا، وإيطاليا، وسويسرا، وكل مغامراتها ومعاركها الفكرية، والأدبية في كتابها «عشر سنوات في المنفى» «Ten Years of Exile».

وبدأت تكتب تحفتها «ملاحظات على الأحداث الرئيسة للثورة الفرنسية» الذي شجبت في الجزء الثاني منه بقوة حكم نابليون الإستبدادي.

لم يكن سفَّاحاً متعطشاً للدماء ـ في نظرها ـ ولكنه كان دوماً غير مبالٍ بالقتلى ما دام النصر قد تحقق. إنه لم يكن إبن الثورة، وإن كان إبناً لها فهو أيضاً قاتلها.

وبعد «واترلو» انسحبت أخيراً من ميدان الصراع السياسي، ولم تستسغ اندفاع النبلاء القدامى لإستعادة الأرض والثورة. وماتت في ١٤ تموز ١٨١٧ إثر شلل دماغي أعجزها عن الحركة طوال ثلاثة أشهر، ولم تكن قد بلغت الواحدة والخمسين بعد، وبعد أربعة أعوام مات عدوها العظيم «نابليون» ولم يبلغ الثانية والخمسين.

قالت للكاتب الفرنسي الشهير: «شاتوبريان»: «**لقد أحببتُ الله، وأبي، والحرية**»[١].

---

(١) Sante - Beure, Portraits of Celeberated Women, 204.

شاتوبريان

(١٧٦٩ ـــ ١٨١٥)

كان «فرانسوا رينيه دي شاتوبريان» يُعَدُّ من أعظم كُتَّاب فرنسا في تاريخ الأدب الفرنسي، والأكثر شهرة بينهم، فسيادته للأدب الفرنسي لا تضارعها إلا سيادة «فولتير».

وقد انتصر «شاتوبريان» «Chateaubriand» للدين على حساب الفلسفة، وقت الثورة الفرنسية، وبُعد الناس عن الدين، وكتب «عبقرية المسيحية» في خمسة مجلدات، وظهر في ١٤ نيسان ١٨٠٢ كأعظم إنجاز منذ تاريخ الأدب والفكر الفرنسيين، في الدفاع عن المسيحية.

لقد أعلن في البداية إيمانه بالسر الأساسي للعقيدة الكاثوليكية، وهو التثليث: الرب باعتباره الآب الخالق، والرب باعتباره الإبن المخلص أو الفادي، والرب باعتباره الروح القدس الذي ينير الطريق ويبارك.

إنَّ المسألة ليست مصداقية هذا الأمر، فالمهم أنه دون عقيدة بوجود إله مدبر تصبح الحياة معركة لا رحمة فيها، ولا غافر لخطاياها،

ويصبح الزواج رباطاً ممزقاً هشّاً غير قائم على أساسٍ وطيد، وتصبح الشيخوخة انفصاماً كئيباً، ويصبح الموت شيئاً قبيحاً، وإن كان كرباً لا يمكن اجتنابه.

أما الشعائر الكنسية من تعميد، واعتراف، وعشاء مقدس، وتثبيت العماد، ومسح المحتضر بالزيت المقدس، والسيامة الكهنوتية (مراسم تعيين الكهنة) فتُحيل آلامنا وانهيارنا المخزي إلى تطور روحي متقدم يتم تعميقه بإرشاد القساوسة، والكهنة وتوجيهاتهم، وبالطقوس المؤثرة، وتقوي الفرد الضعيف بمفرده ليكون كثيراً بإخوانه من المؤمنين بالمسيح المحبوب المخلص، وأمه العذراء الشفيعة التي بلا خطيئة، والله الحكيم كلي القدرة، المراقب، المعاقب، المسامح والمجازي.

بهذا الإيمان ـ يرى «شاتوبريان» ـ يتم خلاص الإنسان من أعظم لعنة يمكن أن تحيق به، وهي أن يكون بلا معنى في عالم بلا معنى.

وبالنسبة للأخلاق، فإن دستورنا الأخلاقي لا بد أن يباركه الرب وإلا تردَّى ليكون ضد طبيعة الإنسان. فليس هناك دستور أخلاقي من وضع البشر يمكن أن تكون له القوة الكافية للسيطرة على غرائز البشر، لكن الخوف من الله هو بداية الحضارة، وحُبُّ الله هو هدف الإخلاق.

وأخيراً، **لا يمكن أن تكون هناك أخلاق إن لم يكن هناك عالم آخر**»[١].

إنه لمن الواضح أن كتاباً مثل «عبقرية المسيحية» «The Genius of

(١) Chateaubriand, The Genius of Christianity, 190.

«Christianity» لا يمكن أن يكون مقبولاً إلا من أولئك الذين كانوا مستعدين عاطفياً للإيمان أو الإعتقاد بسبب تجاوزات الثورة الفرنسية أو بسبب محن الحياة. ومن هنا قال الفيلسوف «جوبير» «Joubert» صديق «شاتوبريان» عنه: أنه بحث عن ملجأ في الكاثوليكية هرباً من عالم ثوري مرعب بدرجة لا تحتمل(١).

لقد كان القراء لـ«عبقرية المسيحية» دوماً مبهورين برقة موسيقى لفظ «شاتوبريان» وأسلوبه، حتى أنهم لم يتوقفوا كثيراً لفهم ما ذكره عن النعم الثلاث لشرح فكرة التثليث في العقيدة المسيحية أو الخوف الذي أثاره «مالتوس»(٢) من زيادة عدد السكان زيادة هائلة، للدفاع عن فكرة التبتل أو البقاء بلا زواج، تلك الفكرة ذات الأبعاد الكنسية الإكليريكية(٣).

والسؤال الآن **هل كان «شاتوبريان» حقاً مؤمناً؟**.

بدءاً من سنة ١٨٠١ إلى آخر حياته سمعنا أنه كفَّ عن صلاة عيد الفصح «Easter» فلم يعد يشترك في العشاء الرباني، ولم يعد يتقدم للكاهن لآداء طقس الإعتراف، وهو الحد الأدنى الذي تطلبه الكنيسة من الأطفال.

«إنَّ شاتوبريان» قد لاحظ تدهور الدين في العالم على مستوى

---

(١) Lemaitre, 138.

(٢) إشارة إلى نظرية «مالتوس» التي اقترحت تحديد النسل خوفاً من حدوث كارثة عالمية، هي مجاعة مستقبلية لأجل تزايد عدد السكان في العالم مع انخفاض نسبة الإنتاج العالمي.

(٣) قصة الحضارة: مجلد: ٤٣ ـ ٢٤ ـ ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣ قسم : ٢.

أوروبا وآسيا . . . وانتهى إلى أن أمم أوروبا قد تختفي مع دياناتها . . . إنه يعتقد أن الدين ضروري لمساندة الدولة . إنه يعتقد أنه والآخرين ملزمون أو مقيدون بالإيمان بدين أو بتعبيرٍ آخر، لا فكاك عن ذلك»[١].

«إننا مندهشون من كتمان شكّه في الدين طوال ستين عاماً . يا له من عبءٍ ثقيل حمله! إنه لم يتخلص أبداً من الشؤم الذي أصابه في شبابه ووصفه به «رينيه» في كتابه[٢]. وفي أواخر حياته قال: «كان يحب ألّا يولد»[٣].

إنَّ أكثر أعمال «شاتوبريان» بقاءً هو «مذكرات من القبر».

وظل يعيش في الريف حتى سنة ١٨١٤ إلى أن أعادته القوات المتحالفة ضد نابليون ـ بعد انتصارها ـ إلى فرنسا، إذ كان على خلافٍ معه، وضد حربه الخارجية وممارساته الداخلية.

وقد أكَّد المؤلف للأمة أن «الرب نفسه يسير على رأس قوات الجيوش المتحالفة ضد نابليون، ويجلس في مجلس اجتماع الملوك «Council of Kings»[٤].

إن حكاماً كثيرين قمعوا حرية الصحافة وحرية الكلام، لكن «نابليون» تمادى إلى أبعد من ذلك فأمر الصحافة بامتداحه مهما كان هذا على حساب الحقيقة.

---

(١) Ibid, 326 - 327.

(٢) وِل ديورانت ـ قصة الحضارة ـ مجلد : ٤٣ ـ ٤٤ ـ ص: ٢٨٣ القسم الثاني

(٣) Ibid, 312.

(٤) Memoris, appendix, 457.

إنَّ الضرائب التي جمعها لم يكن يستحقها فقد جعل من الإستبداد علماً، ومن الضرائب مصادرة، ومن التجنيد الإجباري مجزرة. لقد مات في معركة روسيا وحدها ٦٠٠.٢٤٣ مقاتل بعد معاناة شديدة، بينما كان قائدهم (نابليون) في مأمنٍ يأكل أحسن الطعام، وتخلَّى عن جيشه هارباً إلى باريس»[1].

عاش «شاتو بريان» حتى سنة ١٨٤٨ وشهد ثلاث ثورات فرنسية.

---

(١) Ibid, 481.

توم بين

كان «توم بين» «Tom paine» رجلاً إنكليزياً. ولد في أسرة من «الكوكر» «Quaker» (أصحاب مذهب ديني معروف في إنكلترا) عام ١٧٣٧ وهاجر إلى أميركا سنة ١٧٧٤ بناءً على نصيحة «بنيامين فرانكلين» وقام بدورٍ ناشطٍ في الثورة الأميركية.

يقول هذا المفكر الإنكليزي في مستهل كتابه الذي كتبه حول الدين: إنه لا يهدف إلى تدمير الدين، وإنما يهدف إلى منع الفساد الناتج عن أشكاله غير العقلية من أن يقوّض النظام الإجتماعي ويدمره «خوفاً من الخراب العام الذي تسببه الخرافة، والنظم الحكومية الزائفة، واللاهوت الزائف، فهذه النظم الزائفة تفقدنا الأخلاق الإنسانية واللاهوت الحق» ويضيف قائلاً، ومؤكداً: «**إنني أؤمن بالله الواحد الأحد لا ربَّ سواه** One and no more، **وإنني آمل في تحقق السعادة بعد هذه الحياة أي بعد الموت**»[١].

ويعجب «**بين**» كيف أن الميثولوجيا (الديانة) المسيحية قد أضفت على الشيطان شرفاً كبيراً. إنها تفترض أنه أجبر الله على إرسال إبنه (المسيح) إلى بلاد اليهودية ليُصْلَب، وذلك ليعيد لله على الأقل جزءاً

---

(١) Ibid., 5.

من أهل الأرض كانوا على علاقة مودة ـ بشكلٍ واضح ـ مع الشيطان. ورغم صلب المسيح فلا زال الشيطان يحتفظ لنفسه بكل الممالك غير المسيحية، بل وله ملايين من الأتباع في الممالك المسيحية نفسها.

كل هذا ـ كما يقول توماس ـ تقدمه لنا على لسان الله جل جلاله سلسلة من الأقوال منسوبة إلى «موسى» وحتى القديس بولس.

ورفض «بين» «Paine» كل هذه الحكايات باعتبارها حكايات تصلح لأطفال الحضانة وللكبار الذين أنهكهم البحث عن الخبز والزبد، وأعياهم المرض، وأرهبهم الموت فباع لهم اللاهوتيون أوهام الوعود الموعودة. وقدَّم «بين» لذوي النفوس الأقوى، الله بصورة لا تشبه الإنسان، وإنما باعتباره حياة الكون.

«لا يمكننا أن نوحد كل أفكارنا عن الله إلا من خلال الخلق. . إن الخلق (الكون) يتحدث لغة عالمية (كونية). . . إنه (الكون) كلمة الله التي توحي للبشر كل ما هو ضروري لمعرفة الله. أتريد أن تتأمل قوته؟ إنها تتجلى في عظمة خلقه. أتريد أن تتأمل حكمته؟ إنها تتجلى في سنن الكون التي لا يعتريها تبديل، والتي تحكم الكل الذي لا يحيط به أحد. أتريد أن تتأمل كرمه؟ إنها تتجلى في تلك الوفرة التي تملأ الأرض. أتريد أن تتأمل رحمته؟ إنها تتجلى في كونه لا يمسك فضله حتى عن العصاة. باختصار: أتريد أن تعرف الله؟ إبحث عنه في الخلق لا في الكتاب المقدس المسيحي»(١).

وكرَّس الجزء الثاني من كتابه (عصر العقل The Age of Reason)

---

(١) Ibid,. 30.

لتوجيه نقدٍ حاد للكتاب المقدس، ووجد نفسه بلا تكريم في وطنه الأصلي (إنكلترا) بسبب اعتراضاته، وعدم تعاطفه مع الكتاب المقدَّس.

ومات «بين» في «نيويورك» سنة ١٨٠٩، وبعد موته بعشر أعوام نُقل رفاته إلى «إنكلترا» حيث لعبت روحه القوية ـ من خلال كتبه ـ دوراً في المعارك الطوال التي تمخض عنها صدور مرسوم الإصلاح سنة ١٨٣٢.

وقدَّم «وليام بالي» كاهن أسقفية «ويرموث» دفاعاً قوياً عن عقيدة «بين» وكان كتابه «اللاهوت الطبيعي» «Natural Theology» ١٨٠٢ لا يزال هو الأكثر شهرة، فهو كتاب يبحث في البرهنة على وجود «قوة ذكية علوية» بتجميع براهين وأدلة من العلوم المختلفة.

لقد قال: برهنا، إذا رأى إنسان ساعة ولم يكن قد سبق له رؤية ساعة من قبل، ألن يتفحص ماكينتها، ويضع في اعتباره أن كائناً ذكياً صمَّمها؟! ثم أليس في الطبيعة مئات العمليات تشير إلى تنظيم الوسائل التي لتحقيق الأثر المطلوب؟! «فمن ناحية نحن نرى قوة ذكية ترتب نظام الكواكب... ومن ناحية أخرى فإنها تقدم العملية (الميكانيكية) المناسبة لحركة جناحي الطائر الطنان وحركة ريشه... فكل جسم طبيعي متسق بما ينطوي عليه من إمكانية حفظ نوعه، وكيانه، وإمكانية تكاثره يشهد بعناية الخالق وتوجيهه لتحقيق أهدافه».

لقد عاش كتاب «اللاهوت الطبيعي» طويلاً، بل إنَّ «داروين» نفسه درسه بعناية قبل صياغة نظريته المنافسة عن تكيف الأعضاء، وتطورها لتحقيق الغايات المطلوبة، وأن البقاء للأصلح من خلال الإنتخاب الطبيعي.

التنوير في النمسا

(١٧٨٠ ـــ ١٨١٢)

كان النظام الإجتماعي في النمسا يضبطه الجيش والبوليس والعقيدة الدينية، ورفض «الهبسبرغ» الحاكمون الحركة الدينية الإصلاحية (لوثر وجماعته) وأبقوا على الولاء للكنيسة الكاثوليكية، وتُرك التعليم في المرحلة الأساسية والثانوية لتتولّاه الكنيسة، وتمَّ إيقاف كل الأفكار الفولتيرية عند حدود النمسا ولم يُسمح لها بالتغلغل. وكان المفكرون الأحرار قلة قليلة. والتزم العامة ـ بشكلٍ حر ـ بتجنب المحرمات الجنسية لكن الطبقات العليا كانت أكثر تسيُّباً في هذا الشأن، فللرجال في هذه الطبقة خليلات، وللنساء عُشَّاق.

وكانت العادات معتدلة لطيفة، ولم تكن المشاعر الثورية لتلقى ترحاباً كبيراً، كيف وقد اعتمد «الهبسبرغ» على رجال دينها جيداً للتدريس، وتنشئة كل طفلٍ مسيحي على عقيدة تؤكد مبدأ وراثة العرش النمساوي كحق إلهي. وكتب «بيتهوفهن» عن حياة الرجل النمساوي البسيطة، في ٢ آب ١٧٩٤ : «أعتقد أن النمساوي لن يثور

طالما كانت لديه جِعته (البيرة) وسُجُقُه»[١].

وكانت الموسيقى هي الفن الأعلى مقاماً في «فيينا»، إذ كانت كهواية يفضلها العامة أكثر من كونها عملاً يحترفه المحترفون. واستمر حب الموسيقى ورعايتها تراثاً وتقليداً توارثه حكام أسرة الهبسبرغ» طوال قرنين من الزمن، وكان بيتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) من أشهر الموسيقيين العالميين في ذاك الوقت. ولما حضرته الوفاة طلب منه أخوه «جوهان» (يوهان)[٢] استدعاء قس، فوافق. وفي ٢٣ آذار تلقى «أسرار المسيحية المقدسة «Sacrament» لآخر مرة، ويظهر أنه قبلها بمزاجٍ رحب، وقد ذكر أخوه في وقتٍ لاحق أن الرجل المحتضر «بيتوفن» قال له: شكراً على هذه الخدمة الأخيرة»[٣]. وقال «بيتهوفن» لصديقه «شِيْنْدلِر» وهو يحتضر بعد انتهاء الطقوس الدينية (تلقين الأسرار المسيحية): «**كوميديا فينيتا، أي لقد انتهت الملهاة أو المهزلة**»[٤].

---

(١) Ibid., 183.

(٢) «Johan» «جوهان» بالإنكليزية و«يوهان» بالألمانية.

(٣) Thayer, III, 307.

(٤) Ibid., 306.

التنوير في المانيا

فتح «ليسنغ» «Lessing» عصر التنوير الألماني بالبحث عن أمورٍ أهملها التاريخ، واخذ ينشر جزءاً منها في الفترة من ١٧٧٤ إلى ١٧٧٨. وقد عبَّر «هيرمان ريماروس» في هذا العمل عن شكوكه في صحة الأناجيل من حيث الأصل التاريخي لها.

وكان هناك ـ إضافة إلى ذلك ـ الشكاكون الذين خرجوا عن صمتهم، فلم تعد ترهبهم أية سلطة قمعٍ أو إرهاب.

لقد استنشقوا هواء التنوير الفرنسي، وأدَّى كتاب «كَانْت» (نقد العقل الخالص أو المجرَّد) إلى حدوث بلبلة بين المتعلمين في المانيا بشرحه لصعوبات إخضاع العقل للاهوت، وتنافيه معه.

وظلَّت الفلسفة الألمانية طوال جيلٍ بعده تعمل على دحض شكوكه أو إلغائها.

ووفقاً لما ذكره «ميرابو» «Mirabeau» ـ الذي زار المانيا ثلاث مرات بين عامي ١٧٨٦ ـ و١٧٨٨ ـ فإن معظم رجال الدين البروتستانتيين البروسيين في ذاك الوقت قد تركوا ـ بشكلٍ سري ـ إيمانهم السفلي وباتوا يؤمنون بالمسيح كرجلٍ صوفي محبوب أعلن قرب نهاية الدنيا.

فيشته

(١٧٦٢ ــ ١٨١٤)

كان «فيشته» المفكر والفيلسوف الألماني كلما تعمق في دراسة اللاهوت المسيحي ازداد استغراباً وشكَّاً. وقرأ كتاب «كَانْت» وافتتن به، وقدَّم لـ«كَانْت» كتابه «مقال نحو نقد كل وحي» الذي شهره، وجعله عضواً في «جماعة المفكرين الجليلة».

لقد كان «فيشته» ميتافيزيقياً، ولكن ما هي ـ يا ترى ـ هذه الميتافيزيقا التي جذبت هذا المفكر الرومانسي كل هذا الجذب، لقد كان محورها هو أنَّ الفرد والأنا الواعية بذاتها التي جوهرها الإرادة الحرة، هي ذروة كل حقيقة. ونقد القائلين بالوجود المستقل للمادة (الدوغماتيين) على أساس أنها تُفضي منطقياً إلى جعل الوعي أمراً غير ضروري، مما يقوِّض دعائم المسؤولية البشرية والأخلاق، بينما حرية الإرادة أو الإختيار من بين أكثر الأمور التي نتمسك بها. وذهب «فيشته» إلى أن أي فلسفة تبدأ بالمادة لا يمكنها أن تشرح الوعي الذي هو غير مادي.

لقد تعرَّف العالم الخارجي على الأنا، لكن تعرَّفهُ كان من خلال ما نعرفه نحن عنه عن طريق إدراكنا الحسي. وانتهى «فيشته» إلى أنَّ الأشياء الخارجية سبب لإحساسنا بما هو خارج الذات وهو المعنى المستمد أو المأخوذ منها كرد فعلٍ لإحساساتنا بها، لكن هذه الأشياء أو المعاني الواقعة خارج الذات (الوعي) لا تفسرها إلا الحواس، والذاكرة، والإرادة التي هي من مكونات العقل أو الوعي.

وبما أن الإرادة حرة، فإن هذه الإرادة تجعله كائناً مسؤولاً، قادراً على الإلتزام بالقانون الأخلاقي.

وواجب الإنسان الحر أن يعيش في تناسق «harmony» مع هذا القانون الأخلاقي المقدس.

إننا عند تناولنا لفلسفة «فيشته» نشعر بإنسانٍ يلتمس طريقه الإيماني التوحيدي بعد أن فقد إيمانه بالدين المسيحي.

لقد كانت أمُّهُ تدعو الله له أن يكون قِسَّاً، وتمَّ إرساله إلى «ينا» «Jena» لدراسة اللاهوت. ولكن شاءت الأقدار غير ذلك.

ويظهر «فيشته» موحِّداً صريحاً وبكل وضوح، بإصداره لبحثٍ ديني (مهمة الإنسان ـ ١٨٠٠) حيث يلجأ إلى الله فيه بكل عقلٍ، ونشوة ومحبة:

«عقيدتنا في الواجب هي إيماننا به (بالله in Him) فحسب، وبحكمته His reason وبحقيقته His Truth... فالإرادة الأبدية الخالدة هي خالقة الكون بكل تأكيد... ونحن أيضاً خالدون لأنه (الله He) هو الخالد. الإرادة السامية الحية معروفة بغير إسم، لا يحيط بها فكر..

إنَّ الأطفال يعرفونها كأفضل ما يكون، وتعرفها النفوس البسيطة المؤمنة... إنني أخفي وجهي أمامك Thee، وأضع يدي على فمي (لا أجرؤ على الكلام)... كيف أنت Thou، وكيف تنظر إلى وجودي... لا أعرف أبداً..

أنت يا الله (Thou) علمتني واجبي ومهمتي في عالم الموجودات العاقلة كيف لا أعرف، وكيف لا أحتاج إلى المعرفة... في ظل ألطافك هذه بي... كيف لا أستطيع الإطمئنان إلى نعمتك... كيف لا أستطيع أن أرتاح في ظل نعمتك الطيبة!»[١].

---

(١) Fichte, The Vocation of Man, 157 - 160.

عمانوئيل كانت

(١٧٢٤ ــ ١٨٠٤)

لم يكن الفيلسوف الألماني، وأستاذ الجغرافيا، قانعاً بلاهوته، فمقالاته الأربع التي كتبها في «مجلة برلين الشهرية» عدد نيسان ١٧٩٢ في «كونجزبرغ» عام ١٧٩٣ والتي طُبِعَت بعنوان «الدين في حدود العقل وحده» أشار فيها إلى أن الشر في طبيعة البشر لم يبدأ بسبب «الخطيئة الأصلية» «فلا ريب في أنَّ أشد التفسيرات كلها سُخفاً ـ لذيوع هذا الشر وانتشاره في جميع أفراد وأجيال نوعنا ـ هو التفسير الذي يصفه ميراثاً منحدراً إلينا من أبوينا الأولين»[١].

والميول الطبيعية ـ عند «كانت» في ذاتها خيِّرة لا تُلام، ومحاولة القضاء عليها ضارة ومستحقة للوم، والأولى أن نروِّضها ننسق فيما بينها لتنسجم في كُلٍّ يسمى السعادة.

والخير الأخلاقي عنده غريزي ويدل على ذلك الحس الأخلاقي

(١) Kant, Leligion Within The Limits of Reason Alone, 3.

الموجود في جميع الناس، وهو حاجة لا بد من تنميتها بالتعليم الأخلاقي والتهذيب الشاق.

وقد تشبَّث «كانت» بالعقل، وكان كـ«فولتير» و«روسو» في نقده، وهجومه الجامح على الكنيسة فـ«حين تنقلب كنيسة ما إلى مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة، وحين تزعم لنفسها الحق الأوحد في تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية، وحين يكون كهنوتها يدَّعي لنفسه سبل الإتصال وحده بالله والنعمة الإلهية، وحين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزية، وحين تصبح ذراعاً للحكومة وآداة للطغيان الفكري، وحين تحاول أن تتسلط على الدولة، وتستخدم الحكام العلمانيين مطايا للطمع الكهنوتي، عندها **يثور العقل الحر على كنيسة كهذه، ويبحث خارجها عن ذلك الدين العقلي الخالص، الذي هو السعي لبلوغ الحياة الأخلاقية**[1].

لم يكن يختلف «كانت» إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته واجباته الجامعية، ولم يُصَلِّ قط في حياته ـ كما يبدو ـ بعد بلوغ سن الرشد[2].

ووافته المنية في ١٢ شباط ١٨٠٤ وقد خلف خليطاً كبيراً من المؤلفات والكتابات أبرزها «نقد العقل الخالص» الذي اعتبر فيه العقل هو السيد الأوحد، الآمر، الناهي، فله القدرة على الأمر بسلطة شخصٍ إلهي وعلى هيأته... إن الكائن الأعلى... هو مِن خَلْقِ

(١) Ibid., 153, 164 - 165, 168.

(٢) Sruckenberg, Life of Kant, 340 - 54. in Robertson, J. M., Free Thought, II, 343.

العقل. . . لا جوهر خارج عني»[1].

وبهذا طبَّق «كانت» الفكرة الإرتيابية على الله، فالله لا وجود له إلا في ذهننا، وهو العقل أو الحس الأخلاقي.

وفي مثوى «كانت» في «كونجزبرغ» نُقشت على قبره كلماته «السماء المرصَّعة بالنجوم من فوقي، والقاموس الأخلاقي في باطني»[2].

---

(١) Ibid., 316 - 317.

(٢) ولكن من وراء هذا القاموس الأخلاقي الباطني؟ وهل يكفي في سلوك البشر؟

غوته

(١٧٤٩ ــ ١٧٧٥)

الشاعر والأديب الألماني «غوته» مفخرة الشعب الألماني في شعره وأدبه، كَتب في شباط ١٧٧٤ قصة «آلام الفتى فرتر» التي بسببها ذاع صيته، واشتهر اسمه في جميع أنحاء أوروبا.

لقد كانت القصة حدثاً في تاريخ الأدب، وتاريخ المانيا، واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة، فقد عبَّرت عن العنصر الرومانسي في الحركة الزوبعية، ولم يشارك رجال الدين في استحسان القصة، وكان «غوته» يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم[١].

وانتقل «غوته» من حضيض إلحاده، وكفره بالكنيسة إلى حلولية «سبينوزا» الفيلسوف اليهودي الذي يؤمن بوحدة الوجود. وقد أضاف على عقيدته الإسبينوزية، ولعه الشديد بالطبيعة، وكان يتحدث عنها كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها، وعبَّر في ملحمة من الشعر المنثور سمَّاها «الطبيعة» (١٧٨٠) بوجدان ديني عن استسلامه

(١) Truth, Book X I I.

المتواضع للقوى الخلاَّقة التي تكتنف الإنسان، واندماجه السعيد فيها.

كان «غوته» كثير الكلام عن القدر، قليلُهُ جداً عن المصادفة، وجد في كتاب «الأخلاق» لـ«سبينوزا» مسكناً لعواطفه المشبوبة، ونظرة حرة واسعة تشرف على العالم الحسي والخلقي... «ولم تبلغ بي الجرأة قط مبلغ الإعتقاد بأنني فهمت كل الفهم رجلاً... ارتقى بدراساته الرياضية والربانية، إلى ذرى الفكر، رجلاً يلوح أن اسمه حتى يومنا هذا، يعين الحد الذي تقف عنده كل المحاولات التأملية»[(١)].

لكنه ازدرى نفسه والعالم عند شيخوخته، وانسلخ عن نهر الأدب الفيَّاض الذي عشقه وانغمس فيه، سواء على صعيد الروايات أو المسرحيات أو التاريخ.

«تبدو الحياة كلها إذا نظرنا إليها من قمم العقل كأنها مرض خبيث، والعالم كأنه مستشفى للمجانين»[(٢)].

والتقى «غوته» هردر (١٧٤٤ ـ ١٧٧٦) ـ الذي كان قد انتقل من دراسة الطب إلى دراسة اللاهوت ـ في «فايمار» وتصادقا، وكان حديث «هردر» وخطبه رائعة، فكان بصفته قسيساً للدوق يقوم بواجبات العماد، والتثبيت في الإيمان، وعقد الزيجات، والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه، ويشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقي فيها عظات مثيراً في بعضها شكوكه الخاصة فيما يتعلق بالعقيدة.

---

(١) Trutb, I, 295.

(٢) In Mann, 47.

وقال غوته عن بعض عظاته: «بعد عظة كهذه لم يبق أمام أي أمير إلا الإعتزال»[١].

وفي عامه الأول في «فايمار» اشتبه بعضهم في أنه ملحد، حر الفكر، سوسيني، صوفي، وكان قد قرأ أجزاء من «مخطوطة فولفنبوتل» لـ«ريماروس» الرافضة لألوهية المسيح، والتي نشرها «ليسينج» وتأثر بها تأثراً كافياً لتشكيكه في لاهوت المسيح[٢].

لم يكن «هردر» ملحداً ولكنه دافع عن «سبينوزا» وكرَّس لـ«سبينوزا» الفصول الأولى من رسالة عنوانها «أحاديث عن الله» (١٧٨٧) ففي هذا البحث فَقَدَ الله صورته الذاتية[٣]، وأصبح قوة الكون وروحه الذي لا سبيل إلى معرفته إلا في نظام العالم والوعي الروحي للإنسان»[٤] ودخل بذلك في دائرة الموحدين.

ورحَّب «هردر» القِس، والشاعر، والكاتب، والفيلسوف، والمؤرِّخ الألماني ـ لما له من كتب عِدَّة في هذه المجالات ـ بانهيار الإقطاع الفرنسي بسقوط «الباستيل» ونجاح الثورة الفرنسية، **ولم يذرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا**[٥].

ولم يفقد في شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكري، فقابل نقد «كانت» لكتابه «الأفكار» بهجوم حاد على «نقد العقل الخالص» ووصفه

---

(١) Ibid., 18.

(٢) Clark, Herder, 274 - 277.

(٣) أي في صورة السيد المسيح.

(٤) Clark, 340.

(٥) Ibid., 368.

بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية، وأنكر ذاتية المكان والزمان.

واعتكف «هردر» في خلوة بيته ـ بـ«فاميار» آخر عمره، ومات هناك في ١٨ كانون الأول ١٨٠٣.

***

والتقى الشاعر، والأديب، والطبيب الألماني «كريستوف فريدريش شيلر» (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) بـ«غوته» وكانت بينهما انتقادات كتابية، واتفاقات في إخراج وكتابة مسرحيات، وعلاقات ودية، وأفكار متبادلة في الفكر، والأدب، والحياة، والموت.

وعنى «شيلر» بالشعر الساذج العاطفي، ولعلَّ تصوير «شيلر» و«غوته» الرومانسي لليونان القديمة كان هروباً من المسيحية، فـ«شيلر» ينتمي إلى التنوير، وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق العقل البشري لا النعمة الإلهية التي تُمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة. واحتفظ باعتقاد ربوبي في الله، **ورفض الكنائس كلها البروتستانتية منها والكاثوليكية وتحدث عن المسيحية في رسالته إلى «غوته»**.

«إنني أجد أن المسيحية تحتوي فعلاً على الأصول الأولى لكل ما هو أسمى وأنبل، وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغيضة منفردة إلا لأنها تعبيرات سيئة عن الأسمى... ولم يشدِّد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن أن يكونه هذا الدين لعقلٍ جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه عقل جميل. وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية وأنه في النساء فقط يمكن احتماله بشكلٍ مطلق»[١].

---

(١) Schiller to Goethe, Aug 1795, Correspondence, I - 88 - 89.

هيجل

(١٧٧٠ ـــ ١٨٣١)

تخرَّج «جورج فيلهيلم فردريش هيجل» على درجة علمية في اللاهوت، وأزعج والديه برفضه الدخول في سلك الكهنوت، إذ عاش في ظل أسرة متدينة تديناً شديداً في «شتوتغارت».

وفي سنة ١٧٩٦ ألَّف «هيجل» أو «هيغل» كتابه «حياة يسوع» «Das Leben Jesu» قدَّم فيه «وصفاً للإله الذي يجب الإيمان به حتى النهاية. إنَّ «العقل الخالص» الذي لا تحدّه حدود، هو الله Deity نفسه»[١].

وفي ٢٢ تشرين الأول ١٨١٨ بدأ في جامعة برلين وتولى منصب الأستاذية فيها حتى وفاته. وبدأ «هيجل» بالمنطق الكلاسيكي القديم للأشياء من حيث عرض الأسباب والمبادىء الأساسية لأي شيء أولاً وما ينطوي عليه من عمليات ثانياً.

وبشكلٍ عام فإنه يترك العمليات للعلم كما أن العلم يترك المعنى للفلسفة. إنه يقترح أن يحلل «السبب» أو «العقل» أو «المنطق» في الحقائق، **ومن ثم يعطي لمصدر هذه الأسباب إسم الرب أو الله.**

والمناقشة المنطقية عند «هيجل» لا بد أن تأخذ شكل البناء

---

(١) Hegel: Reinterpretation, Texts and Commentary, 61.

الديالكتيكي من عرض ومعارضة وتوفيق. إنه ديالكتيك الفكرة Thesis ونقيضها antithesis والجميعة Synthesis أي ما يتمخض عن الفكرة ونقيضها من فكرة جديدة ترفض الإثبات والنفي وتتيح مكاناً لعناصر من الفكرتين المثبتة والنافية.

وطبَّق «هيجل» ديالكتيكه على الحقائق Realities كما طبقه على الأفكار، فأظهر أن التناقض والصراع والجميعة، تظهر في السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ أيضاً.

واعترف «هيجل» بالدور التاريخي للدين في تعديل طبيعة الإنسان وفي دعم النظام الإجتماعي، لكنه كان شغوفاً بالعقل شغفاً يحول بينه وبين السعي للاهوت، وفهم معاناة القديسين، وعبادة ربٍّ متجسدٍ «Personal God» والخوف منه[1].

وفي أواخر كتابه «علم وصف الظواهر» عن وصف الظواهر، استوحى حبه الحقيقي ـ إنه الفلسفة. **لم يكن مثله الأعلى هو القديس بل الحكمة.**

لكن لا بد قبل الوصول إلى هذه الذروة الفلسفية أن ندرك أن الكون الحقيقي ليس هو الذي نلمسه أو نراه، وإنما هو العلاقات والقواعد التي تضفي عليه النظام والنبالة.

إنه القوانين غير المكتوبة التي تحرك الشمس والنجوم، وتكوّن العقل غير المتجسد للكون.

إلى هذه الفكرة المجردة أو عقل الكون يقدم الفيلسوف «هيجل» ولاءه. إنه إلهه الذي يعبده ويجد عنده حريته، ورضاه التام[2].

---

(١) Caird, 153.

(٢) وِل ديورانت ـ قصة الحضارة ـ مجلد: ٤٥ ـ ٤٦ ـ ص: ٢١٧ ـ القسم الثاني.

التنوير في إيطاليا

في إيطاليا كان الجنوب الإيطالي (١٨٧٩) تحت حكم البابوات، لكن سرعان ما بدأت البابوية تنهار ببطء كلما تقدم العلم، وتعمقت الفلسفة، مما أفقد الكنيسة سلطتها وعرَّضها لتحديات صريحة من الحكام البروتستانت والكاثوليك أيضاً. وكان تزايد الأقلية المشككة في الكاثوليكية، والمشككة في ولايات الكنيسة يشكل إضعافاً لقبضة طبقة الإكليروس (رجال الدين) على الناس.

ورغم البابوية وعدوى الملاريا في جو الصيف في إيطاليا، فقد جعل أهل روما الحياة مستساغة بتسامح الكنيسة مع أهلها في علاقاتهم الغرامية، والإستمتاع بالكارنفالات، بل كان رجال الدين أنفسهم ينعمون باسترخائهم في دفء الشمس الإيطالية.

لقد هيَّأت أفكار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين الجو في إيطاليا وأثَّرت في الطبقات المتعلمة والمثقفين، فطرحوا الأفكار التي لا تؤيد العقل، وتعتمد عليه، وتميل نحو الحداثة.

وصفَّق مئات الإيطاليين لسقوط الباستيسل، وكتب «ألفيري» بحماس عن الثورة الفرنسية.

كان الإيطاليون يعترفون بأن المسؤولين الذين عيَّنهم البابا قد سمحوا بدرجة كبيرة من الفساد والرشوة في الولايات البابوية، ومع هذا فقد تعبوا من حماية «نابليون» لهم من النمساويين، وساءتهم المعاملة السيئة التي لاقاها البابا «بيوس» السابع من المسؤولين الفرنسيين خصوصاً أَمْر «نابليون» بسَجْن البابا لإعتراضه على ضمه الولايات البابوية للإمبراطورية الفرنسية، لقد ساءهم ذلك، وكان على التحرير أن ينتظر وحدة وطنية من خلال جيش إيطالي، ورجال دولة وفكر إيطاليين، وحدث ذلك البعث، والتحرير الإيطالي المتنور بالفعل، ولم يعد للبابوية أي سلطة زمنية بعد ذلك.

البرتغال وإسبانيا

(١٧٨٩ ـــ ١٨٠٨)

كان في البرتغال (١٧٨٩ ـ ١٨٠٨) حرس العوام البسطاء الذين كانوا في غالبهم من الفلاحين، والحرفيون، والعمال، والجنود الذين يجهلون القراءة والكتابة، وقد أنست هذه البلد بعقائدها الموروثة، وتفاعلت بتقوى شديدة مع طقوسها. وكانت الملكة «ماريا فرانسسكا» وإبنها «جون» الوصي على العرش (١٧٩٩) والذي أصبح ملكاً على العرش (١٨١٦ ـ ١٨٢٦) يعتمدان على الكنيسة كآداة للحماية، وضبط الأخلاق، ومؤزارة الملكية المقدسة ذات الحق الإلهي والسلطة المطلقة.

ووسط كل هذا الحرس المدافع عن القديم كان هناك قلة قليلة من الدارسين، والماسونيين، والعلماء، والشعراء، ورجال الأعمال الذين كانوا -جميعهم يزعجهم الحكم المطلق الذي ورثته البلاد عن الماضي.

وأتت أخبار الثورة الفرنسية لتسبب البهجة لتلك القلة، وتسبب الرعب لذوي المقامات الرفيعة، ومحاكم التفتيش.

وجرى سَجْنُ «فرانسيكو دا سيلفا» زعيم الليبراليين، و«مانويل دي دو بوكيج» (١٧٦٥ ـ ١٨٠٥) الشاعر البرتغالي الرائد في عصره الذي كتب قصائد قوية ضد الطغيان، وراح يستغل وقت فراغه في السجن في ترجمة «أوفيد» و«فيرجيل».

كل هذا جرى عندما عزل ثوار باريس الملك «لويس السادس عشر» وشعرت الملكة «ماريا» أن عرشها يهتز، وسلمت الحكم لإبنها.

وفي سنة ١٧٩٣ شنَّت إسبانيا حرباً مقدسة ضد فرنسا، فحذت البرتغال حذوها بأن أرسلت أسطولاً صغيراً لينضم إلى الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، لكن سرعان ما سعت إسبانيا إلى عقد سلام منفرد مع فرنسا (١٧٩٥) فطلبت البرتغال من فرنسا عقد الإتفاق على النحو نفسه، لكن فرنسا رفضت بحجة أن البرتغال في الواقع هي مستعمرة لإنكلترا وحليفة لها، ولم يتمكن «نابليون» من وضع البرتغال موضع اهتمامه إلا بعد أن كان قد احتلَّ نصف أوروبا.

في هذا الوقت، كانت إسبانيا لا تزال تعيش أجواء العصور الوسطى. لقد كانت ذائبة في عشق الرب، ومكتظة برجال الدين، وتخشى محاكم التفتيش وتوقرها. وقد وجد «جورج بورو» «أنَّ جهل الجماهير كان فظيعاً لدرجة أن التمائم المطبوعة ضد الشيطان وأعوانه، والتمائم التي تُبعِد السحر، كانت تُباع علناً في المحلات، وكانت تلقى رواجاً كبيراً»[(١)].

ونتيجة تأثر معظم الكتّاب الإسبان بالأفكار الفرنسية، فقد

(١) Borrow, Georges, The Bible in Spain, 211.

تفرنسوا، وهلَّلوا للثورة الفرنسية، ورحَّبوا بنابليون كمخلِّصٍ من الأرستقراطية الإقطاعية، والكنيسة والحكومة الهزيلة، وظهر «التأثير العميق في دوائر الأدب والفكر، لأفكار الموسوعيين الفرنسيين، والثورة الفرنسية»[١].

وفي عام ١٨١٠ وبعد الإنسحاب الفرنسي، والتحرر الإسباني شعباً وبرلماناً من حكم الفرنسيين، تمَّ إعلان الدستور الليبرالي (١٩ آذار) وحظَّر الدستور الجديد محاكم التفتيش، وأصبح دستور سنة ١٨١٢ يضارع دستور ١٧٩١ الذي أصدرته فرنسا الثورة.

---

(١) Altamira, History of Spain, 336 b.

الدانمارك والسويد

كانت الكنيسة تسيطر على المنابر، والطباعة في الدانمارك، وأَمِلَتْ أن تسيطر على العقول أيضاً، ففرضت الرقابة الصارمة التي امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ على كل ما يُطبع أو يقال مما لا يتفق والتعاليم اللوثرية القويمة، وصودر الكثير من الكتب غير اللاهوتية كـ«قصة «جومة» «آلام فرتر» لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة.

وكان إدخال بصيص من التنوير إلى الدانمارك من مآثر ألمع دانماركي في القرن الثامن عشر، وهو «لو دفج فون هوبرغ» لقد خلق الأدب الدانماركي في لحظات فراغه، وتناول كل أعمدة المجتمع تقريباً بالتشهير في أول أثاره الأدبية الكبرى، وبإسلوبٍ هزلي، وصدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح وكانت من جملة كتبه رائعته «رحلة تيلس كليم السفلية» (١٧٤١) ووصلت إلى الأوروبيين أيضاً من طريق الترجمة، وقد اشتملت «الرحلة السفلية» هذه على انتقادات للعقيدة المسيحية ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب، ولكنها أوصت بالإيمان بالله، والجنة، والنار، باعتبارها ركائز ضرورية

لناموس أخلاقي لا تفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً[١].

واستمتع «هولبرج» بلذة التمرد في شبابه، والرضا عنه في شيخوخته التي اختتمت سنة ١٧٥٤، وما زال إلى اليوم إمام الأدب الدانماركي.

على أن السويد أسلمت عقلها للتنوير أيضاً، ووجدت النزعة التحررية الجديدة في عهد «جوستافُس» الثالث، وأمه قبولاً واسعاً في الطبقتين الوسطى والعليا، وبين رجال الدين الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة[٢].

---

(١) Ibid., 109.

(٢) Gustafson Alrik, History of Swedish Literature, 112, 136.

الخاتمة

إنَّ منطق الأحداث في التاريخ، يقدِّم لنا دائماً نتائج منطقية صحيحة لأنها معلَّلة الظواهر واضحة الأسباب. والحقيقة وإن غابت في ظل القمع والإرهاب، إلا أنها لا تموت، ويُكتب لها العود والإنتصار من جديد، وذلك هو فعل الحق والإرادة في التاريخ.

هناك الحق والحقيقة التي تعيش في أحضان الأمم والشعوب، والحضارات، لكن القِوَى المتشيطنة لا تريد تجسيداً لها، فيكون السكوت عنها أحياناً نصف الدبلوماسية، أو ضعفاً مؤقتاً، لكن فطرة الإنسان ـ وهي شعلة لا تنطفأ لأنها نور من الداخل ـ يتعين عليها بالضرورة أن تظهر لتعارض وتُقاوم، وتبين الخطأ من الصواب، أو لتُظهر القناعات على الأقل فيما يبدو صائباً من وجهة نظرها الطبيعية.

فكل البشر تشارك في التهليل والترحيب لإثبات فكرة الحق وسلطانها، دون أي تسلطٍ على العقول أو تصرف إرهاب، لأنَّ حياتنا بطبيعتها، تتألف من الحرية والضرورة.

إنَّ لنا أن نختار بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك،

والإنسان والتاريخ خاضعان لمثل هذه العناوين، وللمرء أن يدافع عن معتقده حتى آخر نسمة من حياته، لكن آداة الدفاع هذه يجب أن تكون حكيمة تُبقي المجال للتعاون، وتفسح المجال للمحاورة، لتمارس بذلك الدور الطيب الذي تفرضه الفطرة، والعقيدة المتسامحة في حدِّ ذاتها.

الأوضاع الدينية والسياسية في القرون الوسطى لم تكن لتقدم شيئاً إلا الإمتيازات الخاصة لفئاتٍ معينة من الناس بغض النظر عن بعض الجوانب الإيجابية التي لم تساعد على تحسين أوضاعٍ عامة أو خلق فجرٍ جديد.

لقد سوَّدت تلك الإمتيازات، والضغوطات، والإرهابات صفحة ذلك الفجر الذي كان الناس يرنونه من بعيد.

ولكن هل اختلفت أوضاعنا الدينية، والسياسية اليوم عن أوضاع تلك القرون المظلمة؟

لا شك في حدوث تغييراتٍ هائلة في مختلف مجالات الفكر والتنوير العلمي، مثَّلَت الأوَّج لكل ما سبقها من نُظُم وطرقٍ علمية وفكرية متنوعة، لكن السلفية الدينية والسياسية ـ عامةً دون استثناء ـ عادت من جديد وكأنَّ التاريخ يعيد نفسه ليصنع فتنة جميلة ـ في نظر البعض ـ لا ينتهي جمالها إلا بأثوابٍ من الدم قانية.

إنَّ في داخل كل إنسانٍ شيطاناً، وقليلون هم الذين يستطيعون طرده، لأنّ الإنسان ما لم يكبحه وجود العناية الخيِّرة في نفسه، ووعيه الإنساني، وعقله الكبير المنفتح، وروحه النابذة للتعصب، والعقائد

المتزمتة، فإنه سوف يتحوَّل إلى طاغية، ولن يصنع إلا تاريخاً ومجداً مزيفاً.

لقد أتى رجال بارزون، قطعوا مسافات طويلة، ليعلنوا جدَّ إيمانهم الواحد، وبشكلٍ أكثر وضوحاً، وأكثر مصداقية وقبولاً، فعانوا ما عانوه، ولم يهنوا، واستبقوا الزمن يُرسلون ومضات برقٍ وسط ظلام الليل الحالك.

إنَّ الأرواح الحرَّة المؤمنة لا تجد سلاماً ولا راحة حتى ترسم وخزاتٍ في رحم الزمن العقيم، وإن كان من أسبابٍ لعظمتها فلكونها مهَّدت السبيل، وهيَّأت لقومٍ آخرين.

الفهرس